كلاسيكيات كلمات

ألكسندر دوما

الزنبقة السوداء

رواية

ترجمة:
سعيد بوكرامي

فريق متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الزنبقة السوداء

تأليف: ألكسندر دوما

ترجمة: سعيد بوكرامي

نبذة عن الرواية

بسرده الشيق والمميز يسرد دوما قصة مزارع الزنابق كورنيليوس الرجل العاشق للزنابق الذي يسجن غدرا فيعيش قصتي حب: الأولى تجسد ولعه وشغفه ومعرفته بعالم الازهار والثانية حبه لروزا ابنة سجانه الظالم.

الفصل الأول

امتنان الشعب..

في 20 أغسطس 1672، كانت مدينة لاهاي مترعةً بالحياة، تبدو أكثر بياضًا وأشدّ تأنقًا حتى يخيل للمرء أن كلّ يوم من أيامها هو بمثابة يوم أحد. كانت مدينة لاهاي بمنتزهها الظليل وأشجارها الكبيرة الدانية بجوار منازلها القوطية، وبمرايا قنواتها الكبيرة التي تعكس مياهُها أبراجَها المقببة شبيهة تقريبًا بالطراز الشرقيّ.

في ذلك اليوم، كانت مدينة لاهاي، عاصمة المقاطعات السبعة المتحدة، تتضخم شراييها كلّها بفيضان أسود وأحمر من المواطنين الراكضين، واللاهثين، والقلقين، الذين يهرولون، حاملين السكاكين في أحزمتهم، وبنادق الموسكيه على اكتافهم أو عصيًا في أيديهم، يحثون الخطى متوجهين إلى ساحة البوتنهوف، ذلك السجن الهائل الذي ما زال يمكن للمشاهد أن يرى اليوم نوافذه الحديدية المشبّكة.

بداخل هذا السجن كان يقبع كورنيْ دو وايت، شقيق المتقاعد الأكبر السابق في هولندا، بعدما وجه إليه الجراح تيكيلير اتهامًا بضلوعه في تدبير محاولة لاغتيال أمير البلاد.

إذا كانت الحكاية في هذا الوقت، وخاصة في منتصف هذا العام الذي نبدؤه بسرد تفاصيل حكايتنا، لا ترتبط ارتباطا وثيقًا بالاسمين اللذين ذكرناهما مسبقًا، فإن السطور الموضحة التي سنقدمها يمكن أن تفتح شهيتنا على مزيد من الحوادث.

لكننا ننبه، منذ البداية قارئنا، هذا الصديق القديم، الذي نَعِده دائمًا بالمتعة في صفحتنا الأولى، ونلتزم أيضًا بتوفيرها له، قدر المستطاع، فيما يلي من الصفحات؛ لكننا مع ذلك ننوه لقارئنا، ولنتفق منذ البداية، بأن هذا الاستطراد ضروري أيضًا من أجل إضاءة وقائع مهمة، وكذلك ليفهم القارئ حدثًا سياسيًا عظيمًا تندرج في سياقه هذه الحكاية.

كان كورنيْ أو كورنيليوس دو وايت، مفتش السدود في هذا البلد، ورئيس بلدية دوردريخت سابقا، التي كانت مسقط رأسه، ونائبًا في ولايات هولندا. كما كان يبلغ من العمر تسعة وأربعين عامًا عندما تعب الهولنديون من الجمهورية، أما جان دو وايت، فكان مستشارًا كبيرًا (سكرتير الهيئة التنفيذية والتشريعية) في هولاندا، قد أحب الستاتهاودر، ذلك المرسوم الدائم الذي فرضه جان دو وايت على المقاطعات المتحدة وكان قد ألغي في هولندا بشكل نهائي.

كما أنه من النادر في الأوقات المضطربة، أن تتفهم العقلية الغوغائية رجلًا يتبنى مبدأً، ولكن الشعب كان يرى وراء الجمهورية شخصيتين قاسيتين هما الأخوان وايت، ويعتبر هذين الهولنديين شبيهين بطغاة روما، متغطرسين مزدرين ومخادعين للذوق الوطني، والصديقين الحميمين للحرية غير المرخصة والازدهار اللامجدي، تمامًا كما هو الحال مع الستاتهاوديرات الذي يرون فيه الخنوع الخطير والمدروس للشاب غيوم أورانج، الذي عمد معاصروه إلى تسميته بالتاسيتيرن، وهو الاسم الذي جرى على لسان الأجيال القادمة.

حاول الأخوان دو وايت مداراة لُوي الرابع عشر، لأنهما شعرا بصعوده المعنوي في جميع أنحاء أوروبا، وهيمنته المحسوسة عسكريا على هولندا من خلال نجاح حملته الرائعة من نهر الراين،

المشخصة في بطل رواية تسمى الكونت غوشيه، وغناها بوالو، وهي الحملة التي أسقطت المقاطعات المتحدة.

لطالما كان لُوي الرابع عشر عدوًا للهولنديين، لذلك كان يتعرض دائمًا للإهانة أو الاستهزاء قدر الإمكان، صحيح يحدث ذلك على لسان اللاجئين الفرنسيين في هولندا.

وقد جعله الكبرياء القومي بمثابة ميثراداتيس للجمهورية. لذلك ظهرت ضد الأخوين دو وايت حركة عدوانية مزدوجة، نتج عنها مقاومة قوية تلتها مكافحة قوية لذوق الأمة والإنهاك الطبيعي لجميع الشعوب المهزومة، عندما يأملون في أن يتمكن قائد آخر من إنقاذهم من الدمار والعار.

هذا القائد الآخر، القريب جدًا من الظهور، والجاهز لمواجهة لُوي الرابع عشر العتيد، لم يكن سوى غيوم، أمير أورانج، ابن غيوم الثاني، وحفيده، أمه هنرييت ستيوارت، ابنة الملك تشارلز الأول ملك إنجلترا، هذا الطفل الصموت، الذي قلنا إنه لا يعتبر بالفعل إلا ظلا خلف الستاتهاوديرات.

كان هذا الشاب يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا في عام 1672. كان جان دو وايت يعلمه ويربيه كي يصير هذا الأمير السابق مواطنًا صالحًا. لقد كان في حبه للبلد الذي كسب مع حبه تلميذه، قد حرمه، بمرسوم دائم، من أمل الحصول على منصب الستاتهاودير. ولكن الله يسخر الرجال الذين يصنعون ويكسرون قوى الأرض دون استشارة ملك السماء. ونتيجة تقلب الهولنديين والذعر الذي بثه فيهم لُوي الرابع عشر، كان قد غيّر للتو سياسة المتقاعد الأكبر وألغى المرسوم الدائم من خلال استعادة لقب الستاتهاودير من أجل تتويج غيوم أمير أورانج، الذي كانت لديه أهدافه التي ما تزال دفينة في الأعماق الغامضة للمستقبل.

رضخ المتقاعد الأكبر لإرادة مواطنيه؛ لكن كورنيْ دو وايت كان أكثر تمردًا، وعلى الرغم من التهديدات بالقتل من العامة والغوغاء الأورانجيين الذين حاصروه في منزله في دوردريخت، فقد رفض التوقيع على الصك الذي سيعيد تأسيس الستاتهاوديرات.

لكنه وقّع في النهاية استجابة لطلب زوجته المناجية والباكية، مضيفًا إلى اسمه حرفين فقط هما: ف س (vi coactus) وتعني: أوقع بالقوة.

حدثت معجزة حقيقية في ذلك اليوم لأنه أفلت من ضربات أعدائه.

أما بالنسبة لجان دو وايت فإن موافقته كانت أسرع وأسهل، فرضخ لإرادة مواطنيه، لكنها لم تكن مجدية. بعد بضعة أيام، كان ضحية لمحاولة اغتيال. تعرض لطعنة خنجر، لكنه، لحسن حظه، لم يمت متأثرًا بجروحه.

لم يكن هذا ما يريده الأورانجيون. لأن حياة الأخوين كانت عقبة ملحة أمام خططهم. لذلك قاموا بتغيير التكتيكات مؤقتًا، فحاولوا أن يؤلبوا عليهما الرأي العام، ليحققوا بواسطة التشهير والافتراء، ما لم يتمكنوا من تحقيقه بالخنجر.

من النادر جدًا أن يوجد في هذه اللحظة، وتحت رعاية الرب، رجلًا عظيمًا، لكي ينجز عملًا عظيمًا، ولهذا السبب عندما تحدُثُ عن طريق الصدفة هذه المعادلة الإلهية يسجل التاريخ في اللحظة نفسها اسم هذا الرجل المختار، فيحظى بإعجاب الأجيال القادمة.

ولكن عندما يتدخل الشيطان في الشؤون البشرية لكي يدمر حياة، أو يطيح بإمبراطورية، من النادر جدًا ألا يكون في متناوله على الفور بعض البؤساء كي يهمس كلمة واحدة في أذنهم حتى

يشرعوا على الفور في تنفيذ المهمة.

وقد صادف أن عثر الشيطان على هذا البائس، الذي قدّم نفسه، في مثل هذه الظروف وكيلًا للروح الشريرة، وقد كان يدعى كما قلنا من قبل تيكيلير، ومعروف بصفته طبيبًا جراحًا.

فجاء بِغلّه، ليصرح أن كورني دو وايت، كان يائسًا من إلغاء المرسوم الدائم، ويشعر بنيران الكراهية تجاه الأمير غيوم أورانج، فأوكل إلى قاتل مأجور مهمة تخليص الجمهورية من الستاتهاودر الجديد، وأن هذا القاتل ليس سوى تيكلاييير نفسه، ولأنه شعر بالندم والخزي من مجرد التفكير بما طُلب منه القيام به، فضل الكشف عن الجريمة بدلاً من ارتكابها.

وعلى إثر الانفجار الذي وقع بين الأورانجيين عقب اكتشاف هذه المؤامرة. أوقف المدعي العام كورني في منزله في 16 أغسطس 1672. فتعرض، شقيق جان دو وايت النبيل، للتعذيب الأولي في إحدى حجرات بوتنهوف؛ بهدف أن ينتزع منه اعتراف صريح بضلوعه في المؤامرة المزعومة ضد غيوم، كما هو الحال مع المجرمين الأشرار.

لكن كورني لم يكن روحًا عظيمة فحسب، بل كان أيضًا قلبًا عظيمًا. إذ كان من عائلة الشهداء الذين يملكون إيمانًا سياسيًا، مثل أسلافهم الذين كانوا يملكون إيمانًا دينيًا، فقد واجه العذاب بابتسامة، وخلال التعذيب، تلا بصوت حازم وردد الأشعار الموزونة، من الفقرة الأولى الشهيرة لهوراس من Justum ac tenacem، كما أنه لم يعترف بأي شيء، ولم يرهق قوة جلاديه فحسب، ولكنه أنهك تعصبهم أيضًا.

لم يكن القضاة مرتاحين لمنطق التهم التي وجهها تيكيلر، ومع ذلك حُكم على كورني حكمًا لم يكتف بتجريده من مكانته وكرامته، وتكليفه بدفع مصاريف المحاكمة؛ بل حرمانه من الحياة فوق أراضي الجمهورية ونفيه خارجها.

حتما كان الحكم من أجل إرضاء الناس، الذين تعهد كورني دو وايت بأن يرعى مصالحهم على الدوام، إن هذا الحكم لم يصدر فقط ضد بريء، ولكن أيضًا ضد مواطن عظيم. ومع ذلك، كما سنرى، لم يكن ذلك كافيًا.

قام جان دو وايت، مع الشائعات الأولى لاتهام أخيه، بتقديم استقالته من منصبه الكبير. وقد حصل أيضًا على مكافأة مستحقة لتفانيه في خدمة البلاد. وحمل مشاكله وجراحه إلى حياته الخاصة، وهي المنفعة الوحيدة التي يحصل عليها بشكل عام الشرفاء المذنبون بتفانيهم في العمل من أجل بلادهم بنكران تام للذات.

خلال هذا الوقت، انتظر غيوم أمير أورانج، مستعجلًا حدوث ذلك، وبكل ما يملك من سلطة، فدفع الناس الذين كان معبودهم كي يجعلوا من جسدي الأخوين الخطوتين اللتين يحتاجهما من أجل الصعود إلى مقعد الستاتهاودير.

وبما أن الوضع كان يغلي، في 20 أغسطس 1672، كما قلنا في بداية هذا الفصل، فقد ركضت المدينة بأكملها صوب بوتنهوف لمشاهدة الإفراج عن كورنيْ دو وايت من السجن، ومغادرته إلى المنفى، وكذلك لمعرفة الآثار التي خلفها التعذيب على الجسد النبيل لهذا الرجل الذي كان يعرف كتابات هوراس حق المعرفة.

دعونا نضيف أن كلّ هذا الجمهور الذي ذهب إلى بوتنهوف لم يذهب إلى هناك بهذه النية البريئة لحضور المشهد، ولكن العديد، بين صفوفه، أرادوا أن يلعبوا دورا، أو بالأحرى مضاعفة

عمل وجدوا أنه نفذ بشكل سيئ.

نحن نتحدث عن وظيفة الجلاد.

صحيح أن هناك آخرين كانوا يتدفقون بنوايا أقل عدوانية. كانوا يرجون فقط الاستمتاع بهذا المشهد، الذي يجذب دائمًا الحشود الغفيرة، ويؤجج الزهو الغريزي، بأن يروا في الحضيض الشخص الذي كان في يوم من الأيام في مرتبة سامية.

هل هذا الكورني دو وايت، هذا الرجل الشجاع، كما قيل، هل كان محبوسا حقًا، ألم يضعفه التعذيب؟ هل سنراه، شاحبًا، داميًا، مخزيًّا؟ أليس ما يحدث انتصار جيد لهذه البرجوازية، الأشد حسدًا من باقي فئات الشعب، وظفر ينبغي أن يشارك فيه كلّ برجوازي جيد في لاهاي؟

وهكذا تهامس المحرضون الأورانجيون، المدسوسون بدهاء بين كلّ هذه الحشود، والذين كانوا يعتزمون استعمال التحريض أداة حادة وقاطعة في الوقت نفسه، ألن يجدوا من بوتنهوف إلى بوابة المدينة، فرصة صغيرة لإلقاء القليل من الطين، وحتى بضع حصوات، على هذا الروارد دو بولتن، الذي لم يمنح أمير أورانج منصب الستاتهاودار إلا مرغما بالقوة، بل وأراد أيضًا اغتياله؟

وإذا أخذنا في الاعتبار أعداء فرنسا الشرسين، وإذا قمنا بعمل جيد وكنا شجعانا في لاهاي، فلن ندع كورني دو وايت يفلت بجلده إلى المنفى، لأنه بمجرد أن يصير خارجًا، فسيعد مؤامراته كلّها مع فرنسا وسيعيش على ذهب الماركيز دو لافوا مع أخيه جان الوغد الكبير.

في مثل هذه الاستعدادات، من الواضح أن المتفرجين يركضون عوض أن يمشوا. وهذا هو السبب في أن سكان لاهاي كانوا يركضون بسرعة في اتجاه بوتنهوف.

من بين أولئك الذين يتهافتون، كان الطبيب تيكيلير، أكثرهم ركضًا، يجيش قلبه غضبًا وبصيرته أشد عماء، محاطًا بالأورانجيين كما لو أنه بطل في النزاهة والشرف الوطني والإحسان المسيحي.

كان هذا الوغد الشجاع يروي، ويزعم بكل ما عنّ له من ضروب الخيال تفاصيلَ المحاولات التي قام بها كورني دو وايت بفضل نفوذه، والمبالغ التي وعده بها والآلية الجهنمية التي أعدها سلفًا لتذليل كلّ الصعوبات التي قد تعترض عملية الاغتيال.

تلقى الجمهور كلّ جملة من خطابه بصرخات الحب الحماسي للأمير غيوم، وهتافات الغضب الأعمى ضد الأخوين وايت.

كان الجمهور يعلن كراهيته للقضاة غير الأكفاء الذين سمحوا بحكمهم المتراخي بأن يهرب بأمان وسلام هذا المجرم كورني البغيض والوغد.

كرر عدد قليل من المحرضين بصوت خافت:

- سيذهب! سيفلت منا!

وردّ آخرون:

- سفينة فرنسية في انتظاره في شيفينينغن.

رآها تيكيلير.

وهتف الحشد بصوت واحد.

- تيكيلير الشجاع! تيكيلير الصادق!

وارتفع صوت قائلًا:

- كما أنه خلال فرار كورني الذي لا يقل خيانة عن أخيه، فإن جان سيهرب أيضًا.

- وسيأكل الوغدان أموالنا في فرنسا؛ أموال سفننا وترساناتنا التي بيعت إلى لُوي الرابع عشر.

صرخ صوت وطني يتقدم الآخرين في الصفوف الأمامية.

- دعونا نمنعهما من المغادرة!

- إلى السجن! إلى السجن! كررت الجوقة.

وبهذه الصرخات، شرع البورجوازيون يركضون بجد أكبر، مُجهَّزين ببندقيّات الموسكات، شاهرين الفؤوس اللامعة، والشرر يتطاير من عيونهم.

ومع ذلك، لم يحدث أي عنف لحد الآن، وظل صف الفرسان الذين يحرسون المناطق المحيطة بالبوتنهوف فاترًا وهادئًا، وصامتًا، وأكثر تهديدًا برباطة جأشه من الحشد البرجوازي الصارخ، والمحرض والمهدد؛ فقد كان الفرسان بلا حراك تحت أنظار رئيسهم، قائد سلاح الفرسان في لاهاي، الذي أخرج سيفه من غمده، لكنه جعله منخفضًا إلى زاوية ركابه. تعتبر هذه القوات، الحصن الوحيد الذي يدافع عن السجن، ويقوم بفرض الانضباط بموقفه هذا، ليس فقط على الجماهير الشعبية المضطربة والصاخبة، ولكن أيضًا على فصيل الحرس البورجوازي، الذي وضع مقابل البوتنهوف للحفاظ على ترتيب نصف العدد مع الفرقة العسكرية، والذين قدموا بصرخاتهم نموذجا في إثارة الفتنة:

- عاش أورانج! يسقط الخونة!

كان حضور تيلي وفرسانه بمثابة مكابح مفيدة لجميع هؤلاء الجنود البرجوازيين. ولكن بعد فترة وجيزة، ازداد غليانهم وصراخاهم، ولأنهم لم يفهموا أن بإمكان المرء أن يكون شجاعًا دون صراخ، عزو صمت الفرسان إلى وجلهم، فشرعوا يتقدمون خطوة خطوة نحو السجن، ثم تدفقت وراءهم الحشود الشعبية.

وعقب ذلك تقدم الكونت دو تيلي وحده أمامهم، مشهرًا سيفه فقط، ومقطبًا حاجبيه:

- مهلًا! أيها الحرس البرجوازي، لماذا تتقدم وماذا تريد؟

لوح البرجوازيون ببنادقهم مكررين صرخاتهم:

- يحيا أورانج! الموت للخونة!

وهنا قال السيد دو تيلي:

- تحيا أورانج! على الرغم من أنني أفضل الشخصيات المبهجة على الوجوه العابسة. الموت للخونة! إذا أردت ذلك، طالما تريد ذلك ولكن بالصراخ فقط. أصرخوا بالقدر الذي تريدون: الموت للخونة! ولكن إذا كان الأمر يعني قتلهم فعليًا، فأنا هنا لمنعكم، وسأمنعكم.

ثم لجأ إلى جنوده وصاح:

- أيها الجنود جهزوا الأسلحة!

أطاع جنود تيلي الأوامر بدقة وهدوء مما أدى على الفور إلى تراجع البرجوازيين والشعب، ودون

ارتباك رافقه ضابط الفرسان، وهو يقول مبتسمًا بنبرة ساخرة:

- أنتم هنا وهناك! اهدؤوا أيها البرجوازيون؛ إن جنودي لن يضيعوا رصاصة واحدة، وأنتم من جانبكم لن تتقدموا خطوة واحدة نحو السجن.

قال قائد البرجوازيين بغضب:

- هل تعلم أيها الضابط أننا نملك بنادق الموسكات؟

قال تيلي:

- أرى ذلك جيدًا، أنتم تملكون بنادق، ولكن لاحظ أيضًا من جانبك أن لدينا مسدسات، وأن المسدس يصيب بشكل رائع على بعد خمسين خطوة، بينما أنتم تقفون في مرمى نيراني على بعد خمسة وعشرين خطوة فقط.

صاح زعيم الفرقة البرجوازية ساخطًا:

- الموت للخونة!

قال الضابط متذمرًا ومتعبًا:

- أف! أنت تقول دائمًا الشيء نفسه!

وعاد إلى مركزه على رأس قواته، فيما تزايدت الضوضاء حول بوتنهوف.

ومع ذلك، لم يعرف الأشخاص الذين يستعرون غضبًا أنه في اللحظة نفسها التي كانوا يتعطشون لسفك دماء أحد ضحاياهم، كان الآخر، كما لو كان في عجلة من أمره لمواجهة مصيره، يمر على بعد مئة خطوة من الساحة خلف المجموعات والفرسان للوصول إلى البوتنهوف.

كان جان دو وايت قد خرج للتو من عربة النقل رفقة خادمه وعبر بهدوء الساحة الخلفية التي تفضي إلى السجن.

ثم قدم نفسه إلى البواب، الذي كان يعرفه مسبقًا قائلًا:

- مرحبا، غريفوس، أنا قادم لإخراج أخي كورني دو وايت، من المدينة، كما تعلم، فقد حكم عليه بالنفي.

استقبله البواب، وكان نوعًا من الدببة المدربة على فتح وإغلاق باب السجن، وأفسح له ليدخل إلى المبنى ثم أغلق البوابة خلفه.

صادف على بعد عشر خطوات، فتاة شابة جميلة تبلغ من العمر حوالي السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، ترتدي زِيّ الفرسان، الذي منحها مهابة ومنظرًا ساحرًا؛ وقال لها وهو يمرر يده تحت ذقنها:

- مرحبا، روزا الطيبة والجميلة. كيف حال أخي؟

ردت الفتاة:

- أوه! لا أخشى عليه من الأذى الذي لحقه، لأن هذا الأذى قد انتهى.

- ماذا تخشين إذن، أيتها الفتاة الجميلة.

- سيدي جان، أخشى مما قد ينتظره من الأذى.

قال دو وايت:

- حسنًا، أنت تقصدين هذا الشعب، أليس كذلك؟

- هل تسمعه؟

- حقا إنه منفعل جدًا؛ ولكن عندما سيرانا، ونحن لم نفعل سوى الأعمال الحسنة، فربما سيهدأ.

- للأسف، هذا ليس سببًا، همست الفتاة الصغيرة وهي تتراجع استجابة لإشارة آمرة من أبيها.

- لا يا بنيتي؛ صحيح ما قلته الآن.

ثم واصل طريقه وهو يهمس قائلًا:

«ها هي فتاة صغيرة ربما لا تعرف القراءة، وبالتالي لم تقرأ أيّ شيء، لكنها لخصت للتو تاريخ العالم بكلمة واحدة»

واصل المتقاعد الأكبر السابق طريقه صوب زنزانة شقيقه، ودائمًا، بالهدوء الشديد نفسه والحزن العميق ذاته.

الفصل الثاني

الأخوان..

كما قالت الجميلة روزا بنوع من التكهن، بينما كان جان دو وايت يصعد الدرج الحجري المفضي إلى زنزانة أخيه كورنيْ، كان البورجوازيون يبذلون قصارى جهدهم كي يبعدوا فرقة دو تيلي عن طريقهم، لأنها كانت تضايقهم، في تنفيذ مآربهم.

كانت الحشود تقدر النوايا الحسنة للميليشيات، لهذا صاحوا بأعلى أصواتهم:

- عاش البرجوازيون!

أما بالنسبة للسيد دو تيلي، الذي كان حذرا مثلما كان حازماً تجاه هذه الشرذمة البرجوازية المحتشدة تحت رحمة مسدسات فرقته المستعدة للمواجهة، فقد كان يحاول أن يشرح لهم أن تعليمات الدولة تأمره بأن يحرس وفرقه الثلاث ساحة السجن ومحيطه.

صرخ أحد الأورانجيين:

- لماذا هذا الأمر؟ لماذا تحرس السجن؟

- حسنًا! أجاب السيد دو تيلي، ها أنت ذا. تطلب مني الآن بأن أخبرك بأكثر مما لا يجدر بك أن تعرفه. قالوا لي: «احرس» وها أنا أحرس. أنتم الذين تعدون جنودًا تقريبًا، أيها السادة، يجب أن تعرفوا أن الأوامر العسكرية لا يمكن مناقشتها.

- ولكن هل أصدروا لك الأوامر كي تسمح للخائنين بأن يغادرا المدينة!

رد تيلي:

- يمكن أن يكون كلامك صحيحًا، لأن الخائنين محكوم عليهما بالنفي.

- ولكن من أعطى هذا الأمر؟

- طبعا، المقاطعات!

- المقاطعات تخون أيضًا.

- بالنسبة لهذا الأمر، فأنا أجهله.

- وأنت تخون نفسك.

- أنا؟

- نعم أنت.

- عجبًا! فلنحاول أن نتفاهم أيها السادة البرجوازيون؟ من سأخون؟ لا يمكنني أن أخون المقاطعات! ما دمت أعمل لصالحها، وأنفذ تعليماتهم بالدقة المطلوبة وفي الوقت المحدد.

كان الكونت محقا تمامًا، بهذا الشأن، لأنه كان من المستحيل مناقشة إجابته، فقد ازداد الصخب وتضاعف التوعد؛ والصيحات والتهديدات المروعة، التي استجاب لها الكونت بكل التحضر والكياسة الممكنتين.

- ولكن أيها السادة البرجوازيون، من فضلكم، انزعوا رصاص بنادقكم، يمكن لإحداها أن تطلق عن طريق الخطأ طلقة واحدة، وإذا أصابت فجأة أحد فرساني، فإننا سنضطر إلى قتل مئتي رجل، وسنكون آسفين للغاية، وأنتم أيضًا، لأن ذلك سيحدث دون قصد منا ومنكم.

صاح البرجوازيون:

- إذا فعلت ذلك، نحن بدورنا سنطلق النار عليكم.

- نعم، ولكن عندما تطلقون النار علينا، ستقتلوننا من الأول إلى الأخير، لكن قبل ذلك سنكون قد قتلنا منكم أكبر عدد ممكن.

- أترك لنا الساحة، وستقوم بفعل وطني صالح.

قال تيلي:

- أولا أنا لست مواطنًا، أنا ضابط، وهذا شيء مختلف، ثم إنني لست هولنديا، أنا فرنسي، وهذا مختلف أيضًا. لا أعترف سوى بالمقاطعات التي تدفع لي أجرًا، آتني بأمر من المقاطعات كي أخلي الساحة، وسأغادر في اللحظة نفسها، أنا فعلًا أشعر، هنا، بملل رهيب.

ارتفع صراخ حوالي مئة حَنجَرة، ثم تضاعف على الفور إلى خمسمئة صوت:

- نعم، نعم! دعونا نذهب إلى بلدية المدينة! دعونا نذهب للعثور على النواب! هدّئ من روعك!

- هذا كلّ شيء.

وهمس تيلي لنفسه، وهو يراقب الغاضبين وهم يرحلون، اذهبوا واطلبوا من بلدية المدينة أن تمنحكم حقارة وانتظروا إذا كنتم ستحصلون عليها، هيا يا أصدقائي، هيا.

كان الضابط الكفؤ يعتمد على شرف القضاة، الذين يعتمدون بدورهم على شرفه كجندي.

قال الملازم الأول في أذن الكونت:

- قل إذن يا كابتن، حتى وإن رفض النواب طلب هؤلاء المجانين، يجب أن يرسلوا لنا القليل من التعزيزات، أعتقد أن هذا لن يكون شيئًا سيّئا.

ومع ذلك، كان جان دو وايت، الذي تركناه يتسلق الدرج الحجري بعد مقابلته للسجان غريفوس وابنته روزا، قد وصل إلى باب الزنزانة حيث كان شقيقه كورنيْ يرقد على الفراش منهكًا، كما قلنا مسبقًا، قد خضع إلى معاناة التعذيب التحضيري.

عندما صدر قرار النفي، صار تطبيق التعذيب الاستثنائي غير ضروري. كان كورني، ممددًا على سريره، معصمه مكسور، وأصابعه مكسورة، لأنه لم يعترف بشيء، عن جريمة لم يرتكبها، تنفس الصعداء في النهاية بعد ثلاثة أيام من المعاناة، عندما علم أن القضاة الذين كان يتوقع منهم أن يحكموا عليه بالإعدام قد ارتأوا نفيه فقط.

سيخيّب هذا الجسم النشيط، وهذه الروح العنيدة، رجاء الأعداء الذين لو استطاعوا الوصول إلى غياهب الظلام حيث زنزانته في البوتنهوف، لرأوا الابتسامة المتألقة على وجه الشهيد الشاحب الذي نسي حمأة الأرض منذ أن رأى روعة السماء.

كان بفضل قوة إرادته، وبدلاً من مساعدة حقيقية، قد استعاد كلّ قوته، وحسب الفترة الزمنية

المتبقية للإجراءات القانونية التي ستبقيه في السجن.

في ذلك الوقت فقط، اشتد صخب الميليشيات البرجوازية، المختلط بصراخ الناس، المناوئ للأخوين، والمهدد للقائد تيلي، الذي كان يمثل بالنسبة لهما متراسا يحميهما. هذا الضجيج، الذي اندلع مثل مد بحري متصاعد عند سفح جدران السجن، كان قد وصل إلى مسامع السجين.

لكن مهما كان التهديد صاخبًا، فإن كورني لم يهتم بالأمر، ولم يكلف نفسه عناء النهوض والنظر من النافذة الضيقة المسيّجة بالقضبان الحديدية، والتي كانت تسمح بدخول الضوء واللغط من الخارج على حد سواء.

كان مخدرًا جدًا بآلامه المتواصلة ولشدة أوجاعها صار معتادًا عليها. وأخيرًا، شعر ببهجة شديدة لأن روحه وعقله أوشكا على تحرير نفسيهما من الاضطراب الجسدي، إذ خيل إليه أن هذه الروح وهذا العقل قد تخلصا بالفعل من عبء المادة، وتحررا حائمين فوق موقدهما الذي يكاد ينطفئ لهبه، ومن ثمة سيغادران إلى السماء.

كان يفكر أيضًا في أخيه.

لا شك أن حدسه المميز، وتُؤَكِدهُ الأسرارُ غير المعروفة التي كشفت عنها الجاذبية الروحية، والتي جعلته يشعر بها أيضًا. تمامًا كما كان جان حاضرًا بقوة في فكر كورنيْ، كان كورني حاضرا بقوة في فكر جان. بحيث ما أن همس كورنيْ اسمه، حتى فتح الباب؛ ودخل جان، وبخطوة متسارعة جاء إلى سرير السجين، الذي مد ذراعيه وكدماته الملفوفة في الكتان إلى ذلك الأخ المجيد الذي نجح في الانتصار، ليس في الخدمات المقدمة إلى البلد، ولكن في مواجهة كراهية الهولنديين.

قبل جان بلطف شقيقه على جبهته ووضع برفق يديه المصابتين فوق المرتبة.

قال كورنيْ:

- أخي المسكين، أنت تتألم كثيرًا أليس كذلك؟

- لم أعد أعاني يا أخي، منذ أن رأيتك.

- آه! يا عزيزي المسكين كورنيْ، إذن، أنا من يتألم لأني وجدتك في هذه الحالة.

- لهذا، كنت أفكر فيك أكثر من نفسي، وبينما هم يعذبونني، فكرت فقط في الشكوى مرة واحدة. ولكن ها أنت ذا، دعنا ننسى كلّ شيء. أنت قادم لإخراجي، أليس كذلك؟

- نعم.

- لقد شفيت؛ ساعدني على النهوض يا أخي وأنت سترى أني سأمشي بشكل جيد.

- لن تضطر إلى المشي طويلاً، يا صديقي، لأن عربتي في بركة السمك خلف الجنود المسلحين التابعين لتيلي.

- مسلحو تيلي؟ لماذا يوجدون خلف بركة السمك؟

قال المتقاعد الأكبر بتلك الابتسامة الحزينة التي كانت ترتسم على وجهه دائمًا:

- حسنًا! أعتقد أن شعب لاهاي يريدك أن ترحل، ونخشى أن تحدث بلبلة.

كرر كورنيْ شاخصًا في وجه أخيه:

- بلبلة؟ هل قلت بلبلة؟

- نعم، يا كورنيْ.

قال السجين وكأنه يحدث نفسه، ثم وجه كلامه لأخيه:

- وإذن هذا ما كنت أسمعه منذ قليل. هل هناك حشد غفير في بوتنهوف، أليس كذلك؟

- نعم يا أخي.

- لكن كيف وصلت إلى هنا ...

- حسنًا

- كيف سمحوا لك بالمرور؟

قال كورنيْ، بمرارة وحزن كبيرين:

- أنت تعلم جيدًا أن محبينا قلائل، لهذا تسللت عبر الأزقة الفرعيّة.

- هل أخفيت نفسك يا جان؟

- كنت أنوي الوصول إليك دون إضاعة الوقت، وقد فعلت ما تفعله في السياسة وفي البحر عندما تكون الرياح ضدك لقد انحرفت عن الطريق قليلًا.

في تلك اللحظة تصاعدت الضوضاء من الساحة إلى السجن. كان تيلي يتحدث إلى الحرس البورجوازي.

- حسنًا! حسنًا! قال كورنيْ، أنت بحار عظيم، يا جان؛ لكنني لا أعرف ما إذا كنت ستخرج أخيك من بوتنهوف، من بين هذه الأمواج الصاخبة والمصادمات الشعبية، لحسن الحظ، أنك قدت أسطول ترومب إلى أنتويرب، وخضت في مياه شيلدت الضحلة.

أجاب جان:

- بعون الربّ، يا كورنيْ، سنحاول على الأقل القيام بذلك، على الأقل. ولكن أولًا أريد أن أقول كلمة.

- قل.

ارتفع صخب المحتجين مرة أخرى.

وتابع كورني:

- عجبًا! عجبًا! يا لغضب هؤلاء الناس! هل هو ضدك أم ضدي؟

- أعتقد أنه ضدنا معا، يا كورنلي. لذلك قلت لك، يا أخي أن الأورانجيون يوبخوننا بافتراءاتهم السخيفة، يقولون إننا تفاوضنا مع فرنسا العدوة.

- نعم، إنهم يستنكرون ذلك.

- يا لهم من حمقى!

- لكن لو كانت هذه المفاوضات ناجحة، لأنقذتهم من هزائم ريس وأورساي وفيسيل وراينبرغ؛ ولتفادوا عبور نهر الراين، وربما ستكون هولندا ما زالت تعتقد أنها بلاد لا تقهر في وسط مستنقعاتها وقنواتها.

- كلّ هذا صحيح يا أخي، ولكن ما هو أكثر حقيقة، أنهم لو وجدوا مراسلاتنا مع السيد دو لافوا في هذه اللحظة، فمهما كنت قائداً جيدًا، لن تنقذ الزورق الضعيف الذي سيحمل آل دو وايت وثروتهم خارج هولندا. سيكون من شأن هذه المراسلات، أن تثبت للناس الشرفاء مدى حبي لبلدي ومقدار التضحيات التي قدمتها شخصيًا من أجل حريته، ومن أجل مجده، لكن هذه المراسلات ستدمرنا إذا وقعت بين يديّ الأورانجيين، المنتصرين علينا. لذا، عزيزي كورنيْ، أريد أن أصدق أنك أحرقتها قبل أن تغادر دوردريخت لتأتي وتنضم إليَّ في لاهاي.

أجاب كورني:

- أخي، إن مراسلاتك مع السيد دو لافوا تثبت أنك كنت في الآونة الأخيرة أعظم وأكرم وأقدر مواطن في المقاطعات المتحدة السبعة. أحب مجد وطني. وأحب مجدك قبل كلّ شيء يا أخي، وقد حرصت على ألا أحرق هذه المراسلات.

قال المتقاعد الأكبر السابق بهدوء وهو يقترب من النافذة:

- إذن فقد ضعنا في هذه الحياة الأرضية.

- لا، بل على العكس تمامًا، يا جان، سننال في الوقت نفسه خلاص الجسد وانبعاثة شعبية.

- إذن ماذا فعلت بهذه الرسائل؟

- عهدت بها إلى كورنيليوس ڤان بيرل، ربيبي، أنت تعرفه، إنه يقيم في دوردريخت.

- يا للولد المسكين! هذا الطفل العزيز والساذج! هذا العالم الذي من النادر أن تجد مثيلا له، يعرف الكثير عن الازهار ولا يفكر إلا بالأزهار التي تحيّي الرب، وبالرب الذي خلق الأزهار! لقد كلفته بهذه الوديعة القاتلة. ولكن يا أخي لقد هلك هذا العزيز المسكين كورنيليوس!

- هل تقول هلك؟

- نعم لأنه سيكون قويًا أو ضعيفًا. إذا كان قوياً (مهما كان غريباً عما يحدث لنا؛ لأنه على الرغم من عزلته في دوردريخت، على الرغم من شرود ذهنه، لابد أن تحدث معجزة! فيعرف في أحد الأيام ما يحدث لنا) إذا كان قويًا سيتفاخر بنا. وإذا كان ضعيفًا، فسيخاف على خصوصيتنا؛ وإن كان قويًا سيكشف السر علانية. إذا كان ضعيفًا، فسوف يترك الأمور تأخذ مجراها. في كلتا الحالتين، فإن كورني، هالك ونحن كذلك. إذن، يا أخي، لنهرب سريعًا، إذا كان لا يزال هناك متسع من الوقت.

نهض كورني من على سريره وأمسك يد أخيه المرتجفة إثر ملامسته للثوب وقال:

- تسألني إن كنت لا أعرف ربيبي؟ أنا علمته وأعرف كلّ فكرة في رأس ڤان بيرل، وكل شعور في روحه؟ تسألني هل هو ضعيف تسألني هل هو قوي؟ إنه ليس كذلك، لكن مهما كان! الشيء المهم أنه سيحافظ على السر، لأنه لا يعرفه أصلا.

استدار جان متفاجئًا.

واستأنف كورني بابتسامته الجميلة:

- عجبًا! إن روارد بولتين سياسي نشأ في مدرسة جان. أكرر لك يا أخي إن ڤان بيرل لا يعرف طبيعة وقيمة الوديعة التي ائتمنته عليها.

هتف جان:

- إذن أسرع! ما زال هناك متسع من الوقت، أطلب منه أن يحرق حزمة الرسائل.

- من سيحمل إليه هذا الطلب؟

- خادمي كريك، ومرافقي الذي دخل معي إلى السجن لمساعدتك على نزول الدرج.

- فكر قبل أن تحرق تلك الألقاب المجيدة، يا جان.

- أفكر يا كورني الشجاع أولاً وقبل كلّ شيء، كيف يجب أن ينقذ الأخوان وايت، حياتهما لإنقاذ أمجادهما. أما ونحن ميتان، فمن سيدافع عنا يا كورني؟ من سيحاول على الأقل أن يفهمنا؟

- هل تعتقد أنهم سيقتلوننا إذا وجدوا هذه الرسائل؟

دون أن يجيب على سؤال أخيه، مد يده نحو بوتنهوف، التي كانت تتصاعد منها صيحات الغلّ العنيف.

فقال كورني:

- نعم، نعم، يمكنني سماع هذا الصخب. لكن ماذا يقولون بهذا الصياح؟

فتح جان النافذة، صرخت الجماهير:

- الموت للخونة!

- هل تسمع الآن يا كورني؟

قال السجين وهو يرفع عينيه ويهز كتفيه بلامبالاة:

- نحن الخونة!

وكرر جان دو وايت:

- إنهم يقصدوننا.

- أين كريك؟

- أفترض أنه عند باب غرفة نومك.

- دعه يدخل إذن.

فتح جان الباب. في الواقع كان العبد الأمين ينتظر أمام العتبة.

- تعال يا كريك، وتذكر ما سيقوله لك أخي.

- حسنًا، لا، لا يكفي أن أوصيه شفهيًا يا جان، يجب أن أكتب، لكن الأمر مؤسف حقا.

- ولماذا؟

- لأن ڤان بيرل لن يعيد هذه الوديعة أو يحرقها دون أمر ملموس.

سأل جان، وهو ينظر إلى تلك الأيدي المسكينة المحترقة والمصابة بالكدمات:

- لكن هل ستتمكن من الكتابة يا صديقي العزيز؟

فقال كورني:

- أوه! سأفعل لو كان معي قلم وحبر!

- على الأقل ها هو قلم رصاص.

- وهل لديك أوراق، لأنه لا يوجد شيء هنا؟

- ها هو الكتاب المقدس، مزق منه الورقة الأولى.

- حسنًا.

- لكن هل سيكون خطك مقروءًا؟

قال كورني ناظراً إلى أخيه، وإلى تلك الأصابع التي قاومت قيود الجلاد، وإلى هذه الإرادة المنتصرة على الألم، رأى كيف ستتحدان بقوة مشتركة:

- إذن هيا! اطمئن يا أخي، سيرسم الخط من دون رجفة واحدة.

وبالفعل، أخذ كورني قلم الرصاص وكتب.

وعقب ذلك، كان بإمكاننا أن نرى قطرات الدم التي اندفعت من الأصابع الجريحة على إثر الضغط على قلم الرصاص، وهي تهوي فوق غطاء السرير الأبيض. بينما تفصد عرق غزير من صدغي المتقاعد الأكبر.

كتب كورني ما يلي:

« ربيبي العزيز»

«احرق الوديعة التي ائتمنتك عليها، احرقها دون النظر إليها، ودون فتحها، حتى تظل مجهولة بالنسبة لك. إن الأسرار التي تحتويها تقتل مؤتمنيها. احرقها، وستنقذ جان وكورني.

«وداعًا واستمر في محبتي.

«20 أغسطس 1672

«كورني دو وايت»

مسح جان والدموع تترقرق من عينيه قطرةً من ذلك الدم النبيل الذي لطخ الورقة، وسلمها لكريك مع توصية أخيرة، وعاد إلى كورنيليوس، الذي وجده ممتقعا من شدة الألم، وكأنه على وشك الإغماء.

وقال:

- الآن، عندما يسمعنا كريك الشجاع صافرته الخاصة برئيس العمال العجوز، سيكون بعيدًا عن الحشود، أي على الجانب الآخر من البركة ... آنذاك سننطلق نحن أيضًا.

لم تمض إلا خمس دقائق، حتى سمعت صافرة طويلة وقوية إخترقت بدورانها البحري قباب أوراق شجر الدردار السوداء مهيمنة بذلك على ضوضاء الحشود الصاخبة القادمة من

بوتنهوف.
رفع جان ذراعيه إلى السماء ليشكرها.
وقال:
- والآن، هيا بنا، نرحل يا كورنيْ.

الفصل الثالث

تلميذ جان دو وايت..

بينما كانت صيحات الجماهير تتعالى في بوتنهوف، متصاعدة بشكل مخيف ضد الأخوين، قرر جان دو وايت أن يعجل بمغادرة شقيقه كورنيْ، وكان مندوبو الطائفة البرجوازية قد ذهبوا -كما قلنا- إلى بلدية المدينة، للمطالبة بطرد فرسان تيلي.

لم تكن بعيدة عن بوتنهوف، فهي توجد في هوجسترات؛ لذلك رأينا شخصًا غريبًا، منذ اللحظة التي بدأ فيها هذا المشهد، كان يتابع التفاصيل بفضول، ثم اتجه مع الآخرين، أو بالأحرى لحق بالآخرين، لمعرفة أخبار ما كان سيحدث هناك.

كان هذا الغريب شابًا حيويًا، لا يكاد يبلغ من العمر اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عامًا، لا يتمتع بقوة جسدية جلية. تسلل واندس حاجبًا-بلا شك لديه أسبابه لإخفاء هويته -وجهه الطويل الشاحب تحت منديل إفريزي ناعم، يستخدمه لمسح جبهته المتعرقة أو شفتيه المحترقتين دون توقف.

عينه ثابتة مثل عين الطائر الجارح، وأنفه معقوف وطويل، وفمه ناعم ومستقيم، مفتوح أو بالأحرى مشقوق مثل حواف جرح، كان هذا الرجل سيعرض على لافاتير، لو عاش لافاتير في هذا العصر، أن يكون موضوع دراساته الفسيولوجية.

ما الفرق بين شخصية الغازي وشخصية القرصان؟، كما قال القدماء. سوى ما نجده من اختلاف بين النسر والعقاب.

الصفاء أو القلق.

كانت هذه السيماء الشاحبة والغامضة، لذلك الجسم النحيف والسقيم، ولتلك المشية القلقة التي تحث الخطا نحو البوتنهوف في هوجسترات وعلى أعقاب صخب كلّ هؤلاء الناس، كان يمثل صورة السيد المشبوه أو اللص القلق، ومن المؤكد أن شرطيًا سيختار هذه الصفة الأخيرة، بسبب العناية الفائقة التي أخذها هذا الشخص على عاتقه كي يخفي معالم هويته.

في الواقع، كان يرتدي ملابس بسيطة، ولا يحمل أسلحة مرئية؛ ولكن ذراعه النحيلة كانت متوترة، يده جافة ولكنها بيضاء، رفيعة، أرستقراطية، لم تكن تستند على ذراع، بل على كتف ضابط كان يمسك سيفًا بقبضته، إلى أن حانت اللحظة التي انطلق فيها رفيقه، فسحبه معه، فشاهد جميع مشاهد بوتنهوف باهتمام من السهل تفهمه.

عندما وصل إلى ساحة هوجسترات، دفع الآخر الواقف تحت سقيفة مصراعا خارجيا مفتوحا وحدق في اتجاه شرفة مجلس المدينة.

وأمام صيحات الناس الغاضبة، فتحت نافذة الهوجسترات وتقدم رجل إلى الأمام لمحاورة الجمهور.

فسأل الشاب الضابط، مشيرًا بطرف عينه فقط إلى الخطيب، الذي بدا متأثرًا جدًا وهو يمسك الدرابزين بدلاً من الانحناء عليه:

- من يظهر هناك في الشرفة؟

أجاب الضابط:

- هذا النائب بولت.

- من هو هذا النائب بولت؟ هل تعرفه؟

- رجل طيب، على الأقل هذا ما أعتقده، يا صاحب السيادة.

سمع الشاب هذا التقييم الذي أدلى به الضابط عن المدعو بولت، فبدرت منه حركة تعبر عن خيبة أمل شديدة الغرابة، واستياء واضحين للغاية، لدرجة أن الضابط لاحظ ذلك وسارع مضيفًا:

- على الأقل هذا ما يقال، يا سيدي. أما بالنسبة لي، لا أستطيع أن أجزم بأي شيء، فأنا لا أعرف السيد بولت شخصياً.

- رجل طيب.

ردد الرجل الذي سميناه صاحب السيادة: «رجل طيب». هل تقصد أن هذا الرجل طيب أم رجل صالح؟

- حسنًا! سيعذرني مولاي. لن أجرؤ على التمييز إزاء رجل، أكرر لسموك، أني لا أعرفه إلا ظاهريًا.

همس الشاب:

- بالمناسبة، فلننتظر وسنرى.

فأومأ الضابط موافقًا وسكت.

وتابع سموه:

- إذا كان بولت رجلاً صالحًا، فسيقبل باستغراب طلب هؤلاء الغاضبين.

وتحركت يده بحركة لا إرادية فوق كتف رفيقه، كما تفعل أصابع عازف آلة فوق مفاتيحها، خانه نفاد صبره الشديد، الذي تمكن من إخفائه في أوقات معينة، وفي هذه اللحظة على وجه الخصوص، وأمام معالم الوجه الجليدي والقاتم، سُمع رئيس النواب البرجوازي وهو يدعو النائب ليخبره بمكان زملائه من النواب الآخرين.

كرر السيد بولت للمرة الثانية:

- أيها السادة، أقول لكم أنني في هذه اللحظة بمفردي مع السيد الأسبيريني، ولا يمكنني اتخاذ قرار بمفردي.

فصاحت آلاف الأصوات:

- الأمر بالتنفيذ! الأمر بالتنفيذ!

أراد السيد بولت التحدث، لكن كلماته لم تُسمع، وشوهدت ذراعاه فقط ترفرفان في إيماءات متعددة ويائسة. ولكن عندما لاحظ أنه لا يمكن سماعه، التفت إلى النافذة المفتوحة ونادى السيد الأسبيريني. ظهر السيد الأسبيريني بدوره على الشرفة، فاستُقبل بصيحات أكثر انفعالا من

تلك التي استقبل بها السيد بولت قبل عشر دقائق. ورغم كلّ شيء، فقد قام بهذه المهمة الصعبة المتمثلة في مخاطبة الجمهور. لكن الجمهور فضل إجبار حرس المقاطعات، الذي لم يبد في الحقيقة أية مقاومة لصد الشعب؛ لهذا لم يتمكن صاحب السيادة، من الاستماع إلى خطبة السيد الأسبيريني.

قال الشاب ببرود بينما كان الناس يندفعون عبر الباب الرئيسي للهوجسترات:

- تعال أيها العقيد، يبدو أن المداولات ستتم في الداخل. دعنا نذهب لمشاهدة.

- حسنًا! مولاي، مولاي، يجب أن تحاذر!

- من ماذا؟

- من بين هؤلاء النواب، هناك الكثير ممن كانوا على اتصال بك، ولا يتطلب الأمر سوى شخص واحد للتعرف على سموك.

قال الشاب وقد تورّد خداه من شدة الحسرة، لما أظهره من التسرع لتحقيق رغباته:

- نعم أنت محق، فأنا متهم بكوني المحرض على كلّ هذا، أنت محق. نعم، أنت محق، دعنا نمكث هنا. من هنا سنراهم يعودون بالإذن أو من دونه، وسوف نحكم على ما إذا كان السيد بولت رجلًا طيبًا أم رجلًا شجاعًا، وهذا ما أريد أن أعرفه.

قال الضابط وهو ينظر بدهشة إلى الشخص الذي يمنحه لقب صاحب السيادة:

- لكن؛ لكن سموك لا يفترض للحظة، كما أفترض، أن النواب سيأمرون الفرسان في تيلي بالتنحي والابتعاد، أليس كذلك؟

سأل الشاب ببرود:

- لماذا؟

- لأنهم إذا أمروا بذلك، فسيكون ذلك ببساطة توقيعًا بحكم الإعدام على م. كورني وجان دو وايت.

أجاب سموه ببرود:

- سنرى. الرب وحده من يستطيع أن يعرف ما يوجد بداخل قلوب الناس.

استرق الضابط نظرة إلى وجه رفيقه الهادئ الأعصاب، فاصفرّ وجهه.

كان هذا الضابط رجلاً شجاعًا ومقداماً. ومن المكان الذي تموقع فيه، استطاع سموه ورفيقه سماع الضوضاء العارمة ودوس الأقدام على درجات دار البلدية.

ثم سمعنا هذا الضجيج يخرج وينتشر فوق الساحة، من خلال النوافذ المفتوحة لهذه القاعة ذات الشرفة التي وقف فيها السيدان بولت والأسبيريني، اللذان عادا إلى الداخل، خائفين بلا شك من أن يدفعهم الناس إلى القفز من فوق الدرابزين.

ثم رأينا الظلال الصاخبة والهائجة تمر أمام هذه النوافذ.

كانت غرفة المداولات ممتلئة لآخرها.

فجأة توقفت الضوضاء. ثم بغتة أخرى تضاعفت حدتها ووصلت إلى درجة من الصخب جعلت

المبنى القديم يرتج حتى آخره.

ثم أخيرًا بدأ السيل العرمرم يتدحرج مرة أخرى عبر الأروقة والسلالم إلى الباب، حيث شوهد تحت القبة يتدفق مثل إعصار مائي.

كان على رأس المجموعة الأولى شخص يطير، بدلاً من الركض، رجل شوهت الفرحة وجهه ببشاعة. كان ذلك الشخص هو الجراح تيكيلر.

صاح ملوحًا بورقة في الهواء.

- حصلنا عليه! حصلنا عليه!

همس الضابط مذهولًا:

- بحوزتهم الأمر بالتنفيذ!

قال سموه بهدوء:

- حسنًا! ها أنذا قد عرفت. ألا تعرف أيها العقيد العزيز ما إذا كان السيد بولت رجلًا صالحًا أم رجلًا شجاعًا. أليس كذلك. إذن اسمع هذا الرجل لا هو هذا ولا هو ذاك.

ثم تابع بعيينه، دون أن يُرفّ له جفن هذا الحشد المتدفق أمامه.

قال:

- تعال أيها العقيد إلى بوتنهوف؛ أعتقد أننا سنرى مشهدًا غريبًا.

أطاع الضابط وتبع سيده دون ردّ. كان الحشد هائلًا في الساحة وحول السجن. لكن فرسان تيلي مازالوا يحتوونهم دائمًا بالبشاشة نفسها، وأيضًا بالحزم نفسه. لكن سرعان ما سمع الكونت ضوضاء متزايدة قادمة من الرجال وهم يقتربون منه، رأى موجاتهم الأولى تتدحرج بسرعة شلال هادر. في الوقت نفسه، رأى الورقة تطفو في الهواء، فوق الأيدي المتشنجة والأسلحة المتلألئة.

قال وهو ينتصب في ركابه منبهًا ملازمه بمقبض سيفه:

- سحقا! أعتقد أن البائسين قد حصلوا على الأمر.

صاح الملازم:

- الأوغاد الجبناء!

حصلت فرقة البرجوازيين على الأمر بالتنفيذ بزئير مفرح، وانطلقت على الفور وسارت بأسلحتها المنخفضة صارخة بصوت عالٍ في وجه فرسان الكونت دو تيلي. لكن الكونت لم يكن ذاك الرجل الذي سيسمح لهم بالاقتراب أكثر من المسافة القانونية.

فصاح بصوت عال:

- قفوا! قفوا! مكانكم وابتعدوا من أمام خيولي وإلا سأصدر أوامري: إلى الأمام!

أجاب مئة صوت وقح:

- معنا الأمر بالتنفيذ!

أمسكه بذهول، وألقى نظرة سريعة عليه، وقال بصوت عالٍ:

- إن الذين وقعوا هذا الأمر هم الجلادون الحقيقيون للسيد كورني دي وايت. بالنسبة لي، لا أرغب في أن تكتب يدي حرفًا واحدًا من هذا الأمر الشائن.

ثم دفع بمقبض سيفه الرجل الذي أراد استعادته وقال:

- لحظة. هذا المكتوب مهم ويجب الاحتفاظ به.

طوى الورقة ووضعها بعناية في جيب قميصه الداخلي، ثم توجه إلى قواته:

- فرسان دو تيلي، اذهبوا إلى اليمين!

ثم بصوت منخفض، ولكن بنبرة سيسمعها الأقرب إليه فقط:

- والآن أيها الجزارون قوموا بعملكم.

ودوت في سماء بوتنهوف صرخة غاضبة تحتوي الكراهية الجشعة كلّها والغبطة الشرسة جميعها، مستقبلة مغادرة الفرسان، فانطلق فرسان الخيالة ببطء، وبقي الكونت في الخلف، مواجهاً حتى اللحظة الأخيرة

الجماهير السكرى التي كانت تسيطر شيئًا فشيئًا على المكان الذي غادره حصان الضابط خاسرًا.

كما نرى، لم يبالغ جان دو وايت في تقدير الخطر عندما حث أخيه على المغادرة، وساعده على النهوض، نزل كورني إذن متكئًا على ذراع المتقاعد الأكبر السابق، الدرج المؤدي إلى الفناء. في أسفل الدرج وجد روزا الجميلة ترتجف وقالت:

- للأسف! يا سيد جان!

سأل دو وايت:

- ما الأمر يا بنيتي؟

- يقال إنهم ذهبوا إلى الهوجسترات للحصول على أمر بإبعاد فرسان الكونت دو تيلي.

- قال جان:

- عجبًا! عجبًا! في الواقع يا بنتي، إذا غادر الفرسان، فإن الوضع سيكون سيئا بالنسبة لنا.

قالت الفتاة الصغيرة، وهي ترتجف ارتجافًا:

- وأيضًا، إذا سمحت لي بنصيحة...

- قولي يا طفلتي. لا عجب إن تجلت فيك الحكمة السماوية.

- حسنًا! سيدي جان، لا تخرج من الشارع الرئيس.

- ولماذا، بما أن فرسان تيلي ما زالوا في مواقعهم؟

- نعم، ولكن حتى يتم إبطال هذا الأمر، سيبقون أمام السجن.

- دون شك.

- هل تعرفين أحدًا يمكنه مرافقتكما خارج المدينة؟

- لا.

- حسنًا! في اللحظة التي ستتجاوزان الفرسان الأوائل، ستقعان في أيدي الشعب.

- لكن ماذا عن الحرس البرجوازي؟

- حسنًا! يبدو الحرس البرجوازي هو الأكثر غضبًا.

- إذن ماذا سنفعل؟

أضافت الفتاة الصغيرة بخجل:

- لو كنت مكانك يا سيد جان، سأخرج من الباب السري المؤدي إلى شارع المهجور، لأن الجميع يوجد في الشارع الرئيس، ينتظرون عند المدخل الرئيس، وسأصل إلى أحد بوابات المدينة التي تريد الخروج منها.

قال جان:

- ولكن أخي لن يكون قادراً على المشي.

أجاب كورني بنبرة تعبر عن حزم رفيع:

- سأحاول.

سألت الفتاة:

- لكن هل لديكم عربة؟

- توجد العربة عند عتبة الباب الرئيس.

أجابت الفتاة الصغيرة:

- لا، اعتقدت أن سائقك كان رجلًا مخلصًا، فقلت له أن يذهب وينتظرك عند الباب السريّ.

نظر الشقيقان إلى بعضهما بعطف، وتركزت نظراتهما المزدوجة المفعمة بكل تعابير الامتنان، على الفتاة الصغيرة. وقال المتقاعد الأكبر:

- الآن، سنرى إذا كان غريفوس سيفتح لنا ذلك الباب.

قالت روزا:

- حسنًا! إنه لن يفعل.

- طيب! وماذا بعد؟

- لذلك توقعت رفضه، فأخذت المفتاح من المجموعة بينما كان يتحدث عبر نافذة السجن مع الجنود المسلحين.

- وهل حصلت على المفتاح؟

- ها هو يا سيد جان.

قال كورني:

- يا طفلتي، ليس لدي ما أقدمه لك مقابل الخدمة التي تقدمينها لي، باستثناء الكتاب المقدس الذي ستجدينه في غرفتي؛ إنه آخر هدية من رجل أمين؛ آمل أن يجلب لك حظًا موفقًا.

ردت الفتاة الصغيرة:

- شكراً لك سيد كورني، لن يفارقني أبدًا.

ثم همست لنفسها متنهدة:

- يا للأسف أنا لا أعرف القراءة!

قال جان:

- ها هو الصياح يتضاعف يا بنتي؛ أعتقد أنه لا ينبغي أن نضيع لحظة واحدة.

قالت الجميلة ذات خصلات الشعر المجعدة:

- تعالا إذن.

وقادت الأخوين عبر ممر داخلي إلى الجانب الآخر من السجن. ونزلوا سلمًا من اثنتي عشرة درجة، تقودهما روزا دائمًا، فعبروا فِناءً صغيرًا به أسوار مزخرفة، ووجدوا أنفسهم على الجانب الآخر من السجن في الشارع المهجور بعد أن انفتح الباب المقنطر أمام العربة المنتظرة.

صاح الحوذي مذعورًا:

- هيا! بسرعة، بسرعة، بسرعة، يا سيداي، هل تسمعانهم؟

ولكن بعد أن جعل كورني يصعد أولًا، التفت المتقاعد الأكبر نحو الفتاة الصغيرة، وقال:

- وداعًا يا بنيتي. إن أي شيء يمكن أن نقوله له لك، لن يعبر عن عظيم امتناننا. ندعو الرب، الذي سيتذكر معروفك، أن تكوني قد أنقذت حياة رجلين.

أخذت روزا يد المتقاعد الأكبر، التي مدت إليها وقبلتها باحترام.

صاحت الفتاة:

- هيا، هيا، أسرعوا، يبدو أنهم يحطمون الباب.

صعد جان دو وايت بسرعة، وأخذ مكانه بالقرب من شقيقه، وأغلق باب العربة، صارخًا:

- إلى تول هيك!

كانت التول هيك البوابة الحديدية التي تغلق الباب المؤدي إلى ميناء تشيفينينجين الصغير، حيث يوجد مركب صغير ينتظر الأخوين. انطلقت العربة يسحبها اثنان من الجياد الفلامانية القوية حاملة الهاربين. تابعتهم روزا حتى استداروا عند الزاوية. فدخلت وأغلقت الباب خلفها وألقت المفتاح في بئر.

كان هذا الضجيج الذي جعل روزا تشك في أن الناس كانوا يكسرون الباب، كان في الواقع صوت الحشود التي اندفعت نحو باب السجن. ورغم أنها كانت قوية، وعلى الرغم من أن السجان غريفوس: يجب أن نعترف له بهذا الموقف. قد رفض بعناد فتح الباب، وشعر أنه لن يقاوم طويلاً؛ فتساءل غريفوس، شاحبًا جدًا، عما إذا كان من الأفضل فتحه بدلاً من أن يحطم، لكنه شعر بأحد يجذبه بلطف من المعطف، فاستدار ورأى روزا.

وقال:

- هل تسمعين المسعورين؟

- يمكنني سماعهم جيدًا، يا أبي، لو كنت مكانك ...

- ستفتحينه، أليس كذلك؟

- لا، سأدعهم يكسرون الباب.

- لكنهم سيقتلونني.

- نعم، إذا رأوك.

- كيف تريدينهم ألا يرونني؟

- اختبئ.

- أين؟

- في الزنزانة السرية.

- وأنت يا بينتي؟

- أنا، يا أبي، سأنزل معك إلى هناك. سنغلق الباب علينا وعندما يغادرون السجن! سنخرج من مخبئنا.

صرخ غريفوس:

- طبعا، أنت محقة.

وأضاف:

- إنه لأمر مدهش، أن يكون في ذلك الرأس الصغير هذا المقدار من الحكمة.

عندما انكسر الباب عمّ الحشود فرح عظيم.

قالت روزا وهي تفتح بابًا صغيرًا:

- تعال، تعال يا أبي.

قال غريفوس:

- لكن ماذا عن سجنائنا؟

قالت الفتاة الصغيرة:

فليحرسهم الرب يا أبي. اسمح لي أن أعتني بك.

تبع غريفوس ابنته، وفي الوقت نفسه سقطت البوابة المكسورة مفسحة الطريق أمام الغوغاء.

إلى جانب ذلك، كانت هذه الزنزانة حيث أنزلت روزا والدها، والتي تسمى الزنزانة السرية، تمنح للشخصيتين اللتين سنضطر لتركهما للحظة، ملجأً آمنًا، لا تعرفه إلا السلطات، التي في بعض الأحيان تسجن بداخلها أحد أولئك المذنبين الكبار الذين يُخشى تمردهم أو اختطافهم.

اندفعت الحشود إلى داخل السجن وهم يصرخون:

- الموت للخونة! المقصلة لكورني دو وايت! المقصلة حتى الموت! حتى الموت!

الفصل الرابع

السفّاحون..

مازال الشاب متخفيًا تحت قبعته الكبيرة، يستند إلى ذراع الضابط، وبين الفينة والأخرى يمسح جبهته وشفتيه بمنديله، وحده يحدق في ركن من أركان بوتنهوف، شاردًا تحت ظل إفريز مائل من متجر مغلق. كان المشهد الذي قدمه له هؤلاء الغوغاء الغاضبون، بدا وكأنه يشرف على نهايته.

قال للضابط:

- أعتقد أنك كنت محقا، يا فان ديكن، وأن الأمر الذي وقّع عليه السادة النواب هو تنفيذ لإعدام حقيقي للسيد كورني. هل تسمع هؤلاء الناس؟ هذا بالتأكيد غضب عارم ضد السيدين دو وايت؟

قال الضابط:

- في الحقيقة، لم أسمع من قبل صخبًا مماثلًا.

- يبدو أنهم وجدوا أين سُجن صاحبنا. آه! انظر هناك، أليست هذه نافذة الغرفة، حيث كان السيد كورني مسجونًا؟

وبالفعل، كان هناك رجل يمسك بكلتا يديه القضبان الحديدية التي تغلق نافذة زنزانة كورني ويهزها بعنف، ولكن كورني غادرها منذ فترة لا تزيد عن عشر دقائق.

صرخ هذا الرجل:

- أيها الناس! أيها الناس!، لقد رحل!

سأل أولئك الذين وصلوا إلى الشارع متأخرين، فلم يتمكنوا من الدخول لأن السجن كان مكتظًا:

- ماذا، ألا يوجد هناك؟

- لا! لا! كرر الرجل الغاضب، لم يعد هناك، لابد أنه هرب.

سأل صاحب السمو شاحب الوجه:

- ماذا يقول هذا الرجل؟

- أوه يا مولاي، إنه يقول خبرًا سيكون مبهجًا جدًا إذا كان صحيحًا.

قال الشاب:

- نعم، بلا شك ستكون أنباء مباركة إذا كانت صحيحة. للأسف لا يمكن أن تكون كذلك.

قال الضابط:

- ومع ذلك، انظر ...

في الواقع، ظهرت وجوه أخرى غاضبة، حانقة، من النوافذ، وهي تصرخ:

-أفلت من العقاب! لقد فرّ! لقد هرّبوه.

أمّا الناس الذين مكثوا في الشارع، فشرعوا يرددون عبارات مرعبة:

- نجا! هرب! دعونا نلاحقه، دعونا نطارده!

قال الضابط:

- مولاي، يبدو أن السيد كورني دو وايت قد نجا بالفعل.

أجاب الأخير:

- نعم، ربما من السجن، لكن ليس من المدينة؛ سترى، يا فان ديكن، أن الرجل المسكين سيتفاجأ عندما يصل إلى الباب الذي يعتقد أنه مفتوح.

- هل صدر الأمر بإغلاق أبواب المدينة، يا مولاي؟

- لا، لا أعتقد ذلك، من سيصدر هذا الأمر؟

- حسنًا! ما الذي جعلك تفترض؟

أجاب سموه بلامبالاة:

- هناك أقدار محتومة، وأحيانًا يقع أعظم الرجال ضحايا، لتلك الأقدار.

شعر الضابط بقشعريرة تسري في عروقه عقب هذه الكلمات، لأنه أدرك أن السجين سيهلك بطريقة أو بأخرى.

في هذه اللحظة انفجر هدير الحشد مثل الرعد، لأنه تأكد جيدًا أن كورنيليوس دو وايت لم يعد في السجن.

وبالفعل، فإن كورني وجان، وبعد التفافهما حول بركة السمك، سلكا الشارع الرئيس المؤدي إلى تول هيك، بينما نصح الحوذي بإبطاء وتيرة خيوله حتى لا يثير مرور عربتهما أي شك. ولكن عندما وصلوا إلى منتصف هذا الشارع، رأى البوابة من بعيد، وشعر أنه يخلف وراءه السجن والموت، وأن أمامه الحياة والحرية، أهمل السائق كلّ الاحتياطات، فأطلق العنان للعربة لتركض بأقصى سرعة.

فجأة توقف.

سأل جان وهو يخرج رأسه عبر الباب:

- ماذا تفعل؟

صرخ الحوذي: هناك ... وخنق الرعب صوت الرجل الطيب:

- أوه! يا سيدي.

قال المتقاعد الأكبر:

- هيا، واصل.

- البوابة مغلقة.

- ماذا البوابة مغلقة؟ ليس من المعتاد إغلاق البوابة خلال النهار.

- الأولى أن تنظر.

اشرأب جان دو وايت من العربة ورأى البوابة مغلقة.

فقال جان:

- واصل التقدم، معي أمر بالتبديل، سيفتح البواب.

استأنفت العربة سيرها، لكن صار ملموسًا أن الحوذي لم يعد يدفع جياده بالثقة نفسها.

وبينما كان يتطلع من الباب شوهد جان دو وايت من قبل صانع الجعة، فتعرف عليه، فسارع هذا الأخير، الذي كان متأخرًا عن رفاقه، إلى إغلاق بابه على عجل للانضمام إليهم في بوتنهوف.

أطلق هذا الأخير صرخته متفاجئًا، وركض خلف رجلين آخرين أمامه.

بعد مئة خطوة انضم وتحدث إليهما؛ توقف الرجال الثلاثة، وهم يشاهدون العربة وهي تبتعد، لكنهم ما زالوا غير متأكدين مِن هوية مَن بداخلها.

في غضون ذلك، كانت العربة قد وصلت إلى تول هيك.

صاح الحوذي:

- افتح!

قال حارس البوابة الواقف على عتبة بيته:

- أفتح، وبماذا سأفتح؟

قال الحوذي:

- بالمفتاح طبعًا!

- بالمفتاح، نعم؛ ولكن سيكون من الضروري الحصول عليه.

سأل الحوذي:

- كيف! ليس بحوزتك مفتاح الباب؟

- لا.

- وماذا فعلت به؟

- جاء سيد! وأخذه مني.

- من هو؟

- شخص ربما لا يريد أن يغادر المدينة أحد.

قال المتقاعد الأكبر، وهو يخرج رأسه من العربة مخاطرًا بكل شيء من أجل كلّ شيء:

- صديقي، يا صديقي، سيفتح الباب من أجلي أنا جان دو وايت وأخي كورني، الذي سيغادر إلى المنفى.

قال حارس البوابة وهو يهرول نحو العربة:

- عجبًا! السيد دو وايت، إنني في حالة من اليأس، ولكن أقسم بشرفي أن المفتاح قد أُخِذ مني.

- متى؟

- هذا الصباح.

- ومن أخذه؟

- شاب في الثانية والعشرين، شاحب ونحيل.

- ولماذا أعطيته إياه؟

- لأنه كان يحمل أمرًا موقعًا ومختومًا.

- ممن؟

- من طرف السادة في مجلس البلدية.

قال كورني بهدوء:

- هيا، يبدو أننا هلكنا حتمًا.

- هل تعلم إن اتخذت الاحترازات نفسها في كلّ مكان؟

- لا أدري.

قال جان مخاطبًا الحوذي:

- هيا، الرب يأمر الإنسان أن يفعل كلّ ما في وسعه للحفاظ على حياته؛ انطلق إلى باب آخر.

وبينما كان الحوذي يدير العربة، قال جان لحارس البوابة:

- أشكرك على حسن نيتك يا صديقي. النية مقرونة بالعمل؛ وأنت قصدت أن تخلصنا وبالنسبة للرب، كأنك نجحت في ذلك.

قال البواب:

- حسنًا انظر هناك.

صرخ جان مخاطبًا الحوذي:

- اخترق بسرعة هذه المجموعة، ثم انعطف إلى الشارع على اليسار؛ هذا هو أملنا الوحيد.

كانت نواة المجموعة التي تحدث عنها جان تتكون من الأشخاص الثلاثة الذين رأيناهم يلاحقون العربة بأعينهم، والذين ازداد عددهم منذ ذلك الوقت، وبينما كان جان يتجاذب مع البواب أطراف الحوار، تحول إلى سبعة أو ثمانية أفراد جدد. من الواضح أن هؤلاء القادمين الجدد يملكون نوايا معادية تجاه العربة.

فلما رأوا الخيول تجري في اتجاههم وقفوا بجانب الشارع يلوحون بأيديهم المسلحة بالعصي وهم يصرخون:

- توقف! توقف!

من جهته مال الحوذي في اتجاههم وجلدهم بسوطه، فاصطدمت العربة والرجال أخيرًا. لم يتمكن الأخوان وايت من رؤية أي شيء، وهما محبوسان في العربة. لكنهما شعرا أن الخيول تحرن، ثم شعرا برجة عنيفة. عمت لحظة من التردد والارتجاف في جميع أنحاء العربة

المتدحرجة، التي انطلقت بعيدًا مرة أخرى، لكنها مرت فوق شيء دائري ومرن، بدا وكأنه جسد رجل مقلوب، وابتعدت وسط الشتائم واللعنات.

قال كورني:

- تبا! أخشى أن نكون قد فعلنا شيئًا سيئًا.

صاح جان:

- اركض! اركض!

لكن على الرغم من إصداره هذا الأمر، فقد توقف السائق فجأة.

سأل جان:

- ماذا دهاك؟

قال الحوذي:

- ألا ترى؟

ألقى جان نظرة، فلمح حشود بوتنهوف كلّها في نهاية الشارع الذي كان من المقرر أن تمرّ منه العربة، رآهم يتقدمون مسرعين صارخين وكأنهم إعصار قادم.

قال جان للحوذي:

- توقف وأنقذ نفسك. لا حاجة للذهاب أبعد من ذلك؛ لقد ضعنا.

- ها هما! ها هما! صاح خمسمئة صوت معًا.

- نعم، ها هما الخائنان! القاتلان! المجرمان!

أجاب الذين جاءوا من مقدمة العربة، والذين كانوا يركضون وراءها، حاملين بين أذرعهم جثة من أراد إمساك لجام الخيول فدهسته العربة.

توقف الحوذي. لكن على الرغم من التوسلات التي قدمها له سيده، فإنه لم يرغب في الهروب.

في لمح البصر، وجدت العربة نفسها عالقة بين أولئك الذين ركضوا وراءها وأولئك الذين قدموا من أمامها.

وفي هذه اللحظة سيطر عليها الحشد المضطرب الذي كان يشبه جزيرة عائمة.

فجأة توقفت الجزيرة العائمة. فقد ضرب مارشال بمطرقة ضربة قوية، أحد الحصانين، فخرّ على الأرض صريعًا.

في هذه اللحظة انفتح مصراع النافذة، وشوهد وجه الشاب الشاحب وعيناه الداكنتان تحدقان في المشهد الذي كان يجري التحضير له.

وظهر من خلفه وجه الضابط شاحبًا وأكثر امتقاعًا من وجهه.

همس الضابط:

- أوه! يا إلهي! يا إلهي! ماذا سيحدث يا مولاي؟

أجاب هذا الأخير:

- أكيد، شيء رهيب.

- أوه! كما ترى، يا مولاي، لقد سحبوا المتقاعد الأكبر من العربة، وقاموا بسحله، وتمزيقه.

في الحقيقة، يجب أن يكون هؤلاء الناس مترعين بالسخط العنيف، قال الشاب بالنبرة الهادئة نفسها التي ظل يحافظ عليها حتى ذلك الحين.

- وها هو كورني، يسحبونه بدوره من داخل العربة، كورني محطم بالكامل، ومشوه كله بالتعذيب سلفًا. أوه! انظر الآن، انظر الآن.

- نعم، إنه كورني حقا.

أطلق الضابط صرخة واهنة وأشاح ببصره. لأن الروارد ما إن وضع قدمه على الدرجة الأخيرة للعربة وحتى قبل أن يلمس الأرض، تلقى ضربة من قضيب حديدي حطم رأسه. ومع ذلك، قام، لكنه سقط على الفور. ثم أمسكه بعض الرجال من قدميه، وجذبوه إلى الحشد، حيث تمكنوا في وسطه من تتبع المسار الدموي هناك اذ سرعان ما انغلقت خلفه المنافذ تحت صياح صاخب مترع بالبهجة.

ازداد لون الشاب شحوبًا، وهو ما كان يظنه المرء مستحيلًا، وغامت عيناه تحت جفنيه للحظة.

رأى الضابط علامات الشفقة هذه، وهي الشعور الأول الذي سمح رفيقه بإظهاره، فأراد أن يستغل رقة روحه فقال:

- تعال، تعال، يا مولاي، لأن هنا أيضًا سيقتل المتقاعد الأكبر، لكن الشاب فتح عينيه على اتساعهما وقال:

- في الحقيقة! هؤلاء الناس عنيدون بلا هوادة. ومن المستحسن ألا تخونهم.

- قال الضابط:

- مولاي، ألا نستطيع إنقاذ هذا الرجل المسكين الذي ربى سموك؟ إذا كانت هناك طريقة، قلها، وحتى لو فقدت حياتي في سبيلها ...

لحظتها تجهم وجه غيوم الاورانج، وقطب جبينه بشكل شرير، وأطفأ وميض غضبه المظلم الذي يتطاير شرره من عينيه وأجاب:

- العقيد فان ديكن، اذهب، من فضلك، وأحضر قواتي، فليحملوا السلاح ويتأهبوا لأي حدث متوقع.

- ولكن هل سأترك مولاي وحده هنا في مواجهة هؤلاء القتلة؟»

قال الأمير بحدة:

- لا تقلق علي أكثر، مما أنا قلق على نفسي. هيا اذهب.

غادر الضابط بسرعة لا تشهد على طاعته بقدر ما تشهد على بهجته لتفاديه مشاهدة جريمة القتل البشعة للأخ الثاني. لم يكن قد أغلق باب العربة عندما ترنح جان، الذي وصل بجهد كبير إلى درجات منزل مقابل حيث كان تلميذه مختبئًا، وتحت الصدمات التي تلقاها على جانبيه

صاح:

- -أخي أين أخي؟ ألقى أحد هؤلاء الأشخاص الغاضبين قبعته بلكمة. وأظهر له آخر الدم الذي لطخ يديه، وكان هذا الدم بفعل تحطيم كورني، وركض حتى لا يفقد الفرصة لفعل الشيء نفسه مع المتقاعد الأكبر، وبينما كانوا يسحبون جسده إلى المشنقة، كان قد مات فعلًا.

أطلق جان أنينًا مؤسفًا ووضع إحدى يديه على عينيه.

وقال أحد جنود الحرس البرجوازي:

- حسنًا! أنت تغمض عينيك! سأفقؤهما لك!

وخزه برأس سيفه في وجهه، فنز منه الدم سائلا.

وصرخ دو وايت:

- أخي!

وحاول أن يرى ما حدث لكورنيليوس، من خلال فيض الدم الذي أعماه:

- أخي!

صرخ قاتل آخر واضعًا بندقيته على صدغه وأطلق الزناد:

- اذهب وانضم إليه!

لكن الرصاصة، لم تنطلق.

ثم أدار القاتل سلاحه، وأمسكه بكلتا يديه من ماسورته، وضرب جان دو وايت ضربة بعقبها. فترنح وسقط عند قدميه. لكنه فورًا، نهض بجهد خارق:

- أخي!

صرخ بصوت بائس لدرجة أن الشاب المتلصص سحب مصراعي النافذة ليغلقها. بالإضافة إلى ذلك، لم يتبق سوى القليل لرؤيته، حيث أطلق قاتل ثالث النار عليه من مسافة قريبة، فانفجر رأسه هذه المرة.

سقط جان دو وايت صريعًا.

حينئذ أراد كلّ فرد من هؤلاء البائسين، الذين شجعهم هذا السقوط، أن يفرغ سلاحه في الجثة.

أراد كلّ منهم أن يضرب بمطرقة ثقيلة أو سيف أو سكين، وأراد كلّ منهم أن يسحب قطرة دم، ويمزق قطعة من ملابسه.

ثم عندما تعرض كلاهما للفتك الشديد، ومزقا جسديهما جيدًا، وجُرِّدا من ملابسهما، جرجرهما الناس عراة ومضرجين بالدماء إلى مشنقة مرتجلة، حيث علّقهما جلادون هواة من أقدامهما.

ثم جاء الأكثر جبنا، من الذين لم يجرؤوا على ضرب الجسد الحي، فقطعوا اللحم الميت إلى مزق، ثم ذهبوا لبيع قطع صغيرة من لحم جان وكورنيليوس عبر المدينة بعشر فلوس للقطعة.

لا نستطع أن نزعم ما إذا كان الشاب قد رأى نهاية هذا المشهد الرهيب من خلال الفتحة الضيقة للمصراع، لكنه في اللحظة نفسها التي كان فيها الشهيدان يعلقان على حبل المشنقة،

كان هو يمر عبر الحشد الذي كان مشغولاً جدًا بالمهمة المرحة التي ينفذها لذلك لم ينتبهوا لمروره وتوجه إلى التول هيك الذي كان ما يزال مغلقًا.

صاح حارس البوابة:

- آه! سيدي، هل جلبت لي المفتاح؟

أجاب الشاب:

- نعم يا صديقي، ها هو.

قال البواب متنهدا:

- أوه! إنه لأمر مؤسف أنك لم تجلب لي هذا المفتاح منذ نصف ساعة فقط.

سأل الشاب:

- ولماذا؟

- لأنه كان بإمكاني فتح الباب للسيدين وايت، لكنهما وجدا الباب مغلقًا، فأجبرا على العودة، وبذلك سقطوا في قبضة الأشخاص الذين كانوا يلاحقونهما.

صاح صوت لشخص بدا مستعجلًا:

- الباب! الباب!

استدار الأمير وتعرف على العقيد فان ديكن.

فقال:

- هل هذا أنت أيها العقيد؟ ألم تغادر لاهاي بعد؟ هذا تأخر في تنفيذ أوامري.

أجاب العقيد:

- مولاي، هذا هو الباب الثالث الذي أذهب إليه، وجدت البابين الآخرين مغلقين.

- حسنًا! هذا الرجل الطيب سيفتح لنا هذا الباب. افتحه، يا صديقي. قال الأمير لحارس البوابة، الذي ظل مندهشًا تمامًا من لقب المونسينور الذي منحه العقيد فان ديكن لهذا الشاب الباهت الذي تحدث إليه بألفة كبيرة. لهذا أراد تصحيح خطئه، فسارع إلى فتح تول هيك، التي تدحرجت مفصلاتها محدثة صريرًا عاليًا.

سأل العقيد غيوم:

- هل يريد مولاي حصاني؟

- شكرا لك أيها العقيد، يجب أن يكون حصان في انتظاري على بعد أمتار قليلة. وأخذ صافرة ذهبية من جيبه، وسحب من هذه الآلة -والتي كانت تستخدم في ذلك الوقت لمناداة الخدم- صوتًا صاخبًا وطويل الأمد، فسمع الصدى سائس قدم راكضًا على صهوة حصان وممسكًا بحصان آخر في يده.

قفز غيوم على الحصان دون استخدام الرِكاب، ولكزه على جانبيه، فشق طريقه إلى ليدي. عندما وصل إلى هناك، استدار، فلاحظ أن العقيد يتبعه على مسافة حصان، فأشار إليه الأمير أن

يخبّ بجانبه.

وقال دون توقف:

- هل تعلم أن هؤلاء الأوغاد قتلوا السيد جان دو وايت كما قتلوا للتو كورني؟

قال العقيد بحزن:

- آه، يا سيدي، مولاي!، أرجو بالنسبة لك أن تكون هاتان الصعوبتان المتبقيتان من أجل أن تكون بحكم الأمر الواقع حامل اللقب ستاتهاودر في هولندا

قال الشاب:

- بالتأكيد كان من الأفضل أن ما حدث ألاّ يحدث أبدًا. لكن بعد كلّ ما حدث، لسنا السبب فيه. لنضاعف السرعة، أيها العقيد، حتى نتمكن من الوصول إلى ألفين قبل الرسالة التي بالتأكيد ستبعثها لي المقاطعات إلى المخيم.

انحنى العقيد طائعًا، وترك أميره يمر أمامه، وأخذ مكانه في أعقابه قبل أن يخاطبه.

غمغم غيوم الأورانج بسوء نية، عابسًا، وهو يزم شفتيه بينما كان يضغط بنتوء حذائه على بطن حصانه:

- آه! أريد، أريد أن أرى وجه لوي لوسولي (الشمس) وما سيصنعه، عندما يعرف كيف تعامل الشعب مع أصدقائه الحميمين السيدين دو وايت! أوه! سوليْ، سوليْ، ولأن اسمي غيوم الصامت؛ حذار يا سوليْ من أن تحرقك أشعتك!

وركض بسرعة على متن حصانه الجيد، هذا الأمير الشاب، المنافس الشرس للملك العظيم، هذا الستاتهاودار الهش والقوى حتى يوم أمس من استحواذه على سلطته الجديدة، التي تمكنت بورجوازية لاهاي من تعبيد طريقها له على جثتي جان وكورني، الأميرين النبيلين أمام الناس وأيضًا أمام الرب.

الفصل الخامس

عاشق الزنابق وجاره..

وبينما قام برجوازيو لاهاي بتمزيق جثثي جان وكورني إلى أشلاء، كان غيوم أورانج قد شرع بعد تأكده من أن خصميه قد قتلا بالفعل؛ بالركض على الطريق متوجها إلى ليدن في حين كان العقيد فان ديكن يتعقبه، وقد وجده غيوم متعاطفًا قليلًا مع غريميه كي يستمر في منحه الثقة التي كان يحظى بها حتى ذلك الحين.

في الوقت نفسه كان كريك، الخادم الأمين، يمتطي صهوة حصان جيد، لا يساوره الشك في أسباب ونتائج الحوادث الرهيبة التي وقعت، منذ مغادرته لمسرح الجريمة، وهكذا ركض على طول الأرصفة التي تصطف على جنباتها الأشجار إلى أن غادر المدينة والقرى المجاورة. وبمجرد وصوله إلى مكان آمن، وحتى لا يثير الشك، ترك حصانه في إسطبل وواصل بهدوء رحلته على متن القوارب التي نقلته عن طريق التناوب إلى دوردريخت، وبراعة مرّ بأقصر مسارات هذه الأذرع المتعرجة للنهر، الذي يحتضن بمداعباته الرطبة هذه الجزر الساحرة التي تظللها أشجار الصفصاف، ونباتات المستنقعات والأعشاب المزهرة، وحيث الخرفان السمينة المتلألئة ترعى تحت أشعة الشمس بلا مبالاة. تعرف كريك من بعيد على دوردريخت، المدينة الضاحكة، الكائنة في أسفل تلها المليء بالطواحين.

لقد رأى البيوت الحمراء الجميلة ذات الخطوط البيضاء، وأقدامها المبنية من الطوب تسبح في الماء، جاعلة سجادها الحريري وهو أحد أعاجيب الهند والصين يخفق بالأزهار الذهبية على الشرفات المفتوحة على النهر، وبالقرب من هذه السجاجيد، توجد هذه الخطوط العريضة، المعدة كمصائد دائمة للقبض على الثعابين الشرهة التي تجذبها النفايات اليومية حول المنازل، ترميها المطابخ في الماء عبر نوافذها. كان باستطاعة كريك، من على سطح القارب، ومن خلال هذه الطواحين كلّها ذوات الأجنحة الدوارة، رؤية المنزل الأبيض والوردي على منحدر التل، مقصده ومرام مهمته.

كان المنزل يتوارى سطحه الناتئ بين أوراق الشجر المصفرة خلف ستارة من أشجار الحور كما برزت منه خلفية داكنة لشجرة دردار ضخمة. كان يقع في مكان تجعله الشمس المنعكسة يبدو وكأنه بقمع عملاق، بأشعتها يجفّ ويَدفَأ ويخصب حتى آخر طلعات الضباب الذي لم يستطع الحاجز الأخضر منع رياح النهر القادمة من أن تهبّ كلّ صباح ومساء.

نزل وسط الجلبة العادية للمدينة، وشق طريقه على الفور إلى المنزل، الذي سنقدم لقرائنا وصفًا له لا غنى عنه. فهو أبيض، نظيف، لامع، مغسول بنظافة عالية، وملمع بعناية في الأماكن المخفية أكثر مما هو عليه في الأماكن المرئية، هذا المنزل يقطنه الكائن الفاني والسعيد. هذا الفاني السعيد، والاستثنائي الوجود، كما يقول جوفينال ، كان يدعى الدكتور ڤان بيرل، ربيب كورني.

كان يعيش في المنزل الذي وصفناه للتو منذ طفولته؛ لأنه كان فيه مسقط رأس والده وجده، وهما التاجران النبيلان السابقان في مدينة دوردريخت الشهمة.

كان الأب ڤان بيرل قد جمع من تجارته الهندية ما بين ثلاثمئة إلى أربعمئة ألف غيلدر وجدها

ابنه السيد ڤان بيرل تحت تصرفه، في عام 1668، عند وفاة والديه الطيبين، على الرغم من أن هذه الغيلدرات قد ضربت في العصور القديمة، بعضها يعود إلى عام 1640، والبعض الآخر إلى عام 1610؛ مما يثبت أن هناك غيلدرات من الأب فان بارلي وغيلدرات من الجد فان بارلي؛ هذه الأربعمئة ألف غيلدر، دعنا نسارع لنقولها، لم تكن سوى نقود زهيدة، ومصروف جيب بالنسبة لكورنيليوس ڤان بيرل، بطل هذه القصة، لأن ممتلكاته في المقاطعة تدر عليه دخلاً يبلغ حوالي عشرة آلاف غيلدر.

عندما كان المواطن الوقور، والد كورنيليوس، قد انتقل من الحياة إلى الموت، بعد ثلاثة أشهر من جنازة زوجته، التي بدت وكأنها قد رحلت أولا لتجعل طريقه إلى الموت سهلًا، تمامًا كما ييسر الأب لابنه طريق الحياة، حينما أخبره وهو يحضنه للمرة الأخيرة:

- اشرب وتناول الطعام وأنفق إذا كنت تريد أن تعيش حقيقة، لأن العيش ليس هو العمل طوال اليوم على كرسي خشبي أو على أريكة جلدية، في مختبر أو في متجر. سوف تموت بدورك، وإذا لم تكن محظوظًا بما يكفي ليكون لديك ابن، فستترك اسمنا يزول، وستجد غيلدراتي المذهلة لنفسها سيدًا مجهولًا، وتلك الغيلدرات الجديدة التي لم يزنها أحد من قبل. غير أبي وأنا والسباك. لا تقلد، على الخصوص عرابك، كورنيليوس دو وايت، الذي ألقى بنفسه في السياسة، وهي أكثر المهن جحودًا، ونهايتها أكثر سوءًا.

ثم فارق الحياة، ذلك السيد ڤان بيرل المحترم، تاركًا ابنه كورنيليوس في حالة من الحزن الشديد، كان الفتى لا يحب المال كثيرًا، لكنه يحب أباه حبًا كبيرًا. لذلك بقي كورنيليوس وحده في البيت الكبير. وعبثا عرض عليه عرّابه كورني وظيفة في الخدمة العامة؛ وبلا جدوى، حاول أن يمنحه فرصة لاستطعام حلاوة المجد، وعندما ركب كورنيليوس، إرضاء لعرابه، على متن سفينة المقاطعات السبع رفقة دو رويتر ، الذي كان يتحكم في قيادة السفن المئة والتسع والثلاثين التي كان الأميرال اللامع يقودها بنفسه. هذه السفن التي توازي وحدها ثروات فرنسا وإنجلترا معًا.

عندما وصلت، بقيادة القبطان ليجر، على مسافة قريبة من سفينة الأمير التي يوجد عليها دوق يورك، شقيق ملك إنجلترا، وقع هجوم رويتر، بشكل مفاجئ وبمهارة عالية لدرجة أن دوق يورك، بعد أن شعر بأن سفينته على وشك الانقضاض عليها، لم يتبق له وقت سوى الانسحاب على متن سفينة سان ميشيل؛ حينها رأى السان ميشيل، تتحطم، وتسحق تحت قذائف المدفعية الهولندية، خرج من الخط؛ عندما رأى الكونت ساندويك يقفز من السفينة ويهلك بين الأمواج أو في النار رفقة أربعمئة بحار؛ وعندما رأى في النهاية، وبعد تحطم عشرين سفينة، وبعد مقتل ثلاثة آلاف، وبعد جرح خمسة آلاف، أن الأمر لم يحسم لصالح أحد ولا ضد أحد، وأن كلّ طرف يدعي النصر، كان لابد من البدء من جديد، وأن اسمًا فقط سيضاف، إلى سجل المعارك؛ إنها معركة ساوثوود باي.

عندما قدر كورنيليوس الوقت الضائع وهو يغطي عينيه ويسد أذنيه في الوقت الذي كان يطمح أن يعمل تفكيره في أمور مهمة، وحتى عندما كان زملاؤه يقذفون بعضهم بعضاً بالمدافع، قال كورنيليوس وداعًا لرويتر، ولروارد بولتن وللمجد، وبعدما قبل ركبتي المتقاعد الأكبر، الذي كان يكن له تبجيلًا عميقًا، عاد إلى منزله في دوردريخت، غنيًا بالسكينة المكتسبة، وعمره ثمانية وعشرون عامًا، وبصحة حديدية، وبرؤية ثاقبة وبحوزته زيادة عن أربعمئة ألف غيلدر من رأس المال وعشرة آلاف غيلدر من العائدات السنوية. ورغم ذلك فقد كان مقتنعًا بأن الرجل يحصل دائمًا من السماء على الكثير من السعادة، بما يكفي لعدم تحقيقها. نتيجة لذلك، ولإسعاد نفسه

على طريقته الخاصة، بدأ كورنيليوس في دراسة النباتات والحشرات، وجمع وتصنيف كلّ نباتات الجزر، والتقط جميع حشرات مقاطعته، حيث قام بتأليف مخطوط أطروحة مدعمة بلوحات مرسومة بيده، وأخيراً، لم يكن يعرف ماذا يفعل بوقته وماله خاصة وأنه يزداد ثراء بطريقة مخيفة، اختار من بين كلّ حماقات بلده وزمنه تلك الأكثر أناقة والأغلى تكلفة. اختار أن يعشق الزنابق.

حدث ذلك في العصر، كما نعلم، الذي شرع فيه الفلامانيون والبرتغاليون باستغلال، كيفما شاءوا هذا النوع من البستنة، وقد وصلوا إلى درجة تأليه الزنبقة وفعلوا بهذه الزهرة المستجلبة من الشرق ما لم يتجرأ على فعله عالم الطبيعيات، خوفا من أن تغار السماء.

وسرعان ما انتشرت زنابق السيد ڤان بيرل من دودريخت إلى مونس؛ بمشاتلها، وأحواضها، وغرف تجفيفها، وسجلاتها المصنوعة من القماش، كما كان يُفعل في الأيام الخوالي عندما يزور الرحالة الرومان اللامعون صالات العرض والمكتبات في الإسكندرية.

شرع ڤان بيرل بإنفاق مداخيله السنوية على إنشاء مجموعته، ثم سخّر ثروته الجديدة لإتقانها؛ لذلك حصل على مكافأة لعمله إثر توصله إلى نتيجة رائعة؛ فقد اكتشف خمسة أنواع مختلفة من الزنابق أطلق عليها اسم جين، تيمنا باسم أمه، وبيرل، على اسم أبيه، وكورني، تقديرا لعرابه؛ أما الاسمين الآخرين، فقد سقطا من الذاكرة، لكن الهواة سيتمكنون بالتأكيد من العثور عليهما في سجلات ذلك الزمن.

في عام 1672، مع بداية العام، جاء كورني دو وايت إلى دوردريخت ليعيش هناك طيلة ثلاثة أشهر في منزل عائلته القديم؛ لأننا نعلم أن كورني لم يولد في دوردريخت فحسب، ولكن عائلة دو وايت تنتمي في الأصل إلى تلك المدينة.

بدأ كورنيْ منذ ذلك الحين، كما قال غيوم أورانج، يتمتع بقدر كبير من الكراهية الشعبية. ومع ذلك، بالنسبة لمواطنيه، سكان دوردريخت الطيبين، لم يكن مجرمًا بعد لكي يشنق، حتى وإن كانوا غير راضين عن جمهوريته النقية إلى حد ما، ولكنهم فخورون بقيمته الشخصية، كانوا على استعداد ليقدموا له نبيذ المدينة عندما دخل. بعدما شكر مواطنيه، ذهب كورنيْ لرؤية منزل والده العجوز، وأمر ببعض الإصلاحات قبل أن تأتي زوجته السيدة دو وايت لتستقر مع أطفالها، ثم ذهب الروارد إلى منزل ربيبه، الذي ربما كان وحده في دوردريخت من لا يعلم بوجود الروارد في مسقط رأسه.

بقدر ما كان كورنيْ دو وايت يثير من الكراهية من خلال تعامله مع تلك البذور الشريرة التي تسمى الميول السياسية، فإن ڤان بيرل قد حشد الكثير من التعاطف من خلال إهماله التام لثقافة السياسة، واستغراقه الكلي في ثقافة زراعة أزهار الزنابق.

لذلك كان ڤان بيرل محبوبًا من قبل خدمه وعماله، كما أنه لا يستطيع في يوم من الأيام أن يفترض وجود رجل يريد إيذاء رجل آخر في هذا العالم.

ومع ذلك، فإن ما سيحدث يمكن اعتباره عارًا على الإنسانية، فقد كان لكورنيليوس ڤان بيرل، دون أن يعرف ذلك، عدوًا أكثر شراسة ومرارة، وأكثر صعوبةً وتناقضًا، ولا تشمل حتى الآن الروارد وأخيه من بين أورانج الأكثر عداء لتلك الأخوة الرائعة التي كانت دون غيوم خلال الحياة، امتدت بتفان إلى ما بعد الموت.

في الوقت الذي طفق فيه كورنيليوس في الانهماك كليًا بزراعة أزهار الزنابق، وتخصيص دخله السنوي من غيلدرات أبيه، كان يعيش في دوردريخت ويقيم بجواره، برجوازي يُدعى إسحاق بوكستيل، والذي منذ اليوم الذي بلغ فيه سن المعرفة، سلك الميل نفسه وأنغمس في عالم الزنابق، وهو ما يؤكده لنا، بائع الأزهار الفرنسي، أي المؤرخ الأكثر علمًا، أن هذه الزهرة، هي الكلمة الأولى التي استُخدمت بلغة التشينغولي للإشارة إلى هذه التحفة من الإبداع والخلق، التي تسمى الزنبقة.

لم يكن بوكستيل ينعم بحياة ثرية مثل ڤان بيرل لذلك فقد وجد صعوبة كبيرة، وبقدر كبير من العناية والصبر، جهز في منزله في دوردريخت حديقة مناسبة للزراعة؛ لقد أعدّ الأرض وفقًا للوصفات المطلوبة وعلى الخصوص منح طبقاتها قدرًا من الدفء والنضارة أي كلّ ما يسمح به خبراء البستنة. وعند الجزء العشرين من الدرجة، عرف إسحاق درجة حرارة هياكله. كان يعرف ثقل الريح، فيخففه بدفيئات لتلائم اهتزاز سيقان أزهاره. لذلك بدأت منتجاته تحظى بالجاذبية. كانت جميلة، إلى درجة أن العديد من الهواة قدموا لزيارة زنابق بوكستيل.

وفي النهاية وبعدما أطلق بوكستيل اسمه على إحدى زنبقاته، انضم إلى عالم مسميات عالمي النباتات ليني وتورنفور

كان هذا الزنبق قد شق طريقه، وعبر فرنسا، ودخل إسبانيا، وتوغل حتى البرتغال، وكان الملك دون ألفونسو السادس، الذي طُرد من لشبونة، وانسحب إلى جزيرة تيرسيير، يقضي سحابات يومه مستمتعًا ليس مثل كوندي العظيم، بسقي أزهار القرنفل، ولكن بزراعة أزهار الزنبق، كان يقول: «ليس سيئًا» خلال تأمله زهرة البوكستيل المذكورة آنفا.

فجأة، بعد كلّ الدراسات التي منحها لنفسه، غزا شغفُ الزنابق كورنيليوس ڤان بيرل، فقام الأخير بإدخال تعديلات على منزله في دوردريخت، والذي كما قلنا، كان بيته مجاورًا لمنزل بوكستيل وكان له طابق واحد يشرف على فِنائه، لكن هذا الارتفاع، أزال حوالي نصف درجة من الحرارة، وفي المقابل، أعاد نصف درجة من البرودة إلى حديقة بوكستيل، دون أن نأخذ بعين الاعتبار منعه للريح وبذلك أزعج كلّ حسابات وكل اقتصاد البستنة التي خطط لها جاره.

بعد كلّ شيء، كان الأمر بالنسبة لجاره لا يعدو أن يكون سوء حظ. لم يكن ڤان بيرل سوى رسام، أيْ نوعٌ من المجانين الذين يحاولون إعادة إنتاج عجائب الطبيعة على القماش بعد تحريف أشكالها. كان الرسام الذي رفع مرسمه طابقًا واحًدا للحصول على إضاءة أفضل وهذا من حقه. كان ڤان بيرل رسامًا كما كان السيد بوكستيل مزارعًا مهتمًا بأزهار الزنبق؛ أراد الشمس من أجل لوحاته، فأخذ نصف درجة من زنابق السيد بوكستيل.

كان القانون بالنسبة للسيد ڤان بيرل أمر جيد.

بالإضافة إلى ذلك، اكتشف بوكستيل أن التعرض لأشعة الشمس الزائدة يضر بالزنابق، وأن الزهرة تنمو بشكل أفضل، وبتنوع أحسن مع شمس الصباح أو المساء الدافئة أكثر من شمس الظهيرة الحارقة.

لذلك كان ممتنًا تقريبًا لكورنيليوس ڤان بيرل لأنه شيّد من أجله مظلة مجانية.

ربما لم يكن هذا صحيحًا تمامًا، وما قاله بوكستيل لجاره ڤان بيرل لم يكن تعبيرًا حقيقيًا عما يفكر به صراحة. لكن النفوس العظيمة تجد في ظل الكوارث العظيمة موارد مذهلة في الفلسفة.

ولكن للأسف! ما حدث لهذا البوكستيل الفقير عندما رأى نوافذ الطابق المشيد حديثًا مليئا ببصيلات القرنفل والزنبق مزروعة في مختلف الأصص، باختصار كلّ ما يتعلق بمهنة مهووس بالزنابق! كانت ثمة حزمات من الملصقات، وأيضًا رفوف وصناديق ذات مقصورات وشبكات حديدية مخصصة لإغلاق هذه الصناديق، وتجديد هوائها دون السماح بأن تصل الفئران إليها، وخنافس الحبوب، والسناجب، وفئران الزرع والجرذان، بالنسبة لعشاق الزنبق الفضوليين فإنهم يقدمون ألفي فرنك للبصيلة.

اندهش بوكستيل عندما رأى كلّ هذه المُعدّات، لكنه لم يفهم بعد مدى سوء حظه. عرفنا أن ڤان بيرل صديق كلّ ما يرضي العين. لقد درس الطبيعة بدقة من أجل لوحاته، وانتهى إلى مثل ما رسمه معلمه جيرار داو، وصديقه ميريس. هل من الممكن أن يجبره رسم الجزء الداخلي من شجرة الزنبق، إلى جمع كلّ الملحقات الزخرفية في مرسمه الجديد؟

ومع ذلك، وعلى الرغم من أنه حاول تهدئة نفسه بهذه الفكرة المخيبة للآمال، فإن بوكستيل لم يستطع مقاومة الفضول المثير الذي شرع يلتهمه.

في المساء، وضع سلمًا على الجدار الفاصل بينه وبين جاره، ونظر إلى داخل منزل ڤان بيرل، فحاول إقناع نفسه أن الأرض الشاسعة كانت مأهولة سابقًا بنباتات مختلفة، وقد قلّبت ورتبت في أحواض من التربة الممزوجة بطين النهر، وهو مزيج يتناسب بشكل أساسي مع أزهار الزنبق، يُدعَم هذا كله بواسطة حدود عشبية لمنع انهيارات التربة.

بالإضافة إلى ذلك، هناك شروق الشمس، وغروبها، والظل المخصص لغربلة شمس الظهيرة؛ والمياه بوفرة في متناول اليد، ومواجهتها لجهة الجنوب الغربي، وأخيرًا ثمة ظروف متكاملة، ليس فقط للنجاح، ولكن للازدهار. لا شك أن ڤان بيرل قد تحول إلى مزارع للزنابق.

قام بوكستيل على الفور بتمثل هذا الرجل المتعلم والمستند إلى رأسمال أربعمئة ألف غيلدر، وعشرة آلاف غيلدر دخلًا سنويًا، مستخدمًا موارده المعنوية والمادية لزراعة أزهار الزنبق على نطاق واسع. لقد تخيل نجاحه في مستقبل غامض ولكنه قريب، وتوقع، مسبقًا، شعورًا بألم شديد نتيجة هذا النجاح، ونظرًا لاستغراقه في الخيالات تراخت يداه، وانهارت ركبتاه، فتدحرج بشدة ساقطًا من على سلمه.

وإذا لم يكن من أجل رسم أزهار الزنبق، ولكن من أجل زراعة الزنبق الحقيقي، كان ڤان بيرل يسلبه نصف درجة من الحرارة. لذلك كان ڤان بيرل يحظى بأفضل قسط من الشمس. بالإضافة إلى غرفة كبيرة حيث يحتفظ بالبصيلات والفصوص: غرفة مضاءة وجيدة التهوية، هذا الثراء محروم منه بوكستيل، لهذا اضطر لتخصيص غرفة نومه لهذا الاستخدام، حتى لا يصيب فصوصه ودرناته ضرر من الحيوانات الليلية، بينما هو ينام في العلية.

وهكذا، من حائط إلى حائط، راح بوكستيل يتلصص على جاره، الذي بات منافسًا له، وربما منتصرًا عليه، هذا المنافس، بدلاً من أن يكون بستانيًا غامضًا وغير معروف، كان ربيب السيد كورنيل دو وايت، وهذا يعني أنه أحد المشاهير!

بوكستيل، كما نرى، كان تفكيره أقل جودة من بوروس، الذي راح يواسي نفسه بعد هزيمته على يد الإسكندر بسبب شهرة الذي انتصر عليه.

في الواقع، ماذا سيحدث لو اخترع ڤان بيرل زنبقة جديدة وأطلق عليها اسم جان دو وايت، بعد

أن يطلق على واحدة أخرى اسم كورني؟ فسيختنق من الغضب.

وهكذا، في أعماقه الحسودة، خمن بوكستيل الشقاء المنتظر فيما سيحدث.

وعقب هذا الاكتشاف الذي توصل إليه، أمضى بوكستيل أشد الليالي التي يمكننا تخيلها فزعًا وذعرًا.

الفصل السادس

كراهية مزارع الزنابق..

منذ تلك اللحظة، بدلا من القلق، شعر بوكستيل بالخوف. وهذا منح جهودَه الجسدية والذهنية نشاطًا ونبلًا قويين، لبلورة فكرة مفضلة، تتمثل فيما يتوقعه بوكستيل من الضرر الذي قد يسببه له الجار.

وكما قد يتصور المرء، فإن ڤان بيرل منذ اللحظة التي شرع بتنفيذ ما وهبته الطبيعة من ذكاء، فقد نجح في تنمية أجمل أزهار الزنبق. أفضل من أي شخص آخر في هارلم ولايدن، المدينتين اللتين تتوفران على أفضل التربة وأكثر المناخات صحة، وبذلك نجح كورنيليوس في تغيير الألوان، وفي تبديل الأشكال، والزيادة في الأنواع.

كان ينتمي إلى تلك المدرسة العبقرية والساذجة التي اتخذت شعارها، في وقت مبكر من القرن السابع، من الحكمة التي طورها أحد أتباعها في عام 1653 التي تقول: «إن احتقار الأزهار، بمثابة إهانة للرب»

فرضية قامت عليها مدرسة مزارعي الزنابق، وهي أكثر المدارس تميزًا، بصياغة هذه الأقوال المنطقية التالية في عام 1653:

«إن احتقار الأزهار إهانة للسماء»

«وكلما كانت الزهرة أجمل، كلما إزداد حبنا لخالقها.»

«الزنبقة هي أجمل الأزهار»

«من يحتقر الزنبق، يفرط في إهانة الرب»

هذا المنطق يساعدنا على تبيّن سوء نية أربعة أو خمسة آلاف مزارع للزنابق في هولندا وفرنسا والبرتغال، لأنه لا يتحدث عن تلك الموجودة في سيلان والهند والصين، كان من الممكن أن يجعل الكون خارج القانون، ويعلن أن المنشقين والزنادقة يستحقون الموت مئات الملايين من المرات، لأنهم بلا إحساس، وعاطفتهم باردة نحو الزنابق.

لا شك أن بوكستيل في مثل هذه القضية، وعلى الرغم من أنه عدو ڤان بيرل اللدود، لم يكن ليختلف معه حول مبادئ مزارعي الزنابق الأوروبيين.

إذن حقق ڤان بيرل العديد من النجاحات وجعل الناس يتحدثون عنه، بحيث اختفى بوكستيل وإلى الأبد من قائمة مزارعي الزنابق البارزين في هولندا، كما أصبح ڤان بيرل كورنيليوس، العالم المتواضع والمسالم ممثلًا لمزارعي الزنابق في دوردريخت.

ونتيجة لذلك كانت تنبثق من الفروع الأكثر تواضعًا براعم أكثر فخرًا، وتنمو من الورود ذات البتلات الأربع العديمة اللون الوردة العملاقة والعطرية. وبذلك نشأت في بعض الأحيان سلالة ملكية داخل كوخ حطاب أو في كوخ أحد الصيادين.

كرس ڤان بيرل نفسه بالكامل لعمله حول البذور والغرس والجَنْي، لم يكن ڤان بيرل الذي داعبه كلّ مزارعي الزنابق في أوروبا، يشك لحظة أن بجواره يقيم شخص تعس، يعتبر نفسه مسلوبًا

وأن ڤان بيرل غاصبه. واصل تجاربه، وبالتالي انتصاراته، وفي غضون عامين غطى أسرة الأزهار الخاصة به بأنواع رائعة لم يخلقها أحد، بعد الرب، باستثناء شكسبير وروبنس. لذلك كان من الضروري أخذ فكرة عن الرجل الملعون، الذي نسيه دانتي في كتابه، ورؤية حالة بوكستيل خلال هذا الوقت، بينما يقوم ڤان بيرل بإزالة الأعشاب الضارة وتعديل التربة وترطيبها، راكعًا على منحدر المشتل، يتفحص ويحلل كلّ عرق من أزهار الزنبق المزهرة ويفكر في التعديلات التي يمكن إجراؤها، ومجموعات الألوان التي يمكن صنعها وتجريبها. كان بوكستيل، مختبئًا خلف شجيرات الجميز التي زرعها على طول الجدار، وجعل منها ستارة واقية، يقبع وراءها، متورم العينين، مزبد الفم، يترصد كلّ خطوة، وكل إيماءة لجاره، وعندما يظن أنه لاحظة في حالة فرح، والابتسامة على شفتيه، والسعادة تومض من عينيه، يرسل له الكثير من اللعنات، والعديد من تهديدات الغضب، بحيث لا يستطيع المرء إلا أن يتصور كيف أن هذه الأنفاس الموبوءة بالحسد والغضب لا يمكنها التسلل إلى سيقان الأزهار حاملة معها أسّ الخراب وجراثيم الموت.

وقريبًا، سيشرع الشر العارم، الذي كان ذات يوم سيد الروح الإنسانية، بإحراز تقدم سريع، إذ لم يعد بوكستيل مكتفيًا برؤية ڤان بيرل، بل أراد أن يرى أزهاره عن قرب، لقد كان بستانيًا فنانًا في أعماقه، وصارت تحفة منافسه تستحوذ فؤاده.

اشترى منظارًا، يمكنه بواسطته متابعة كلّ تطور للزهرة، منذ اللحظة التي ينمو فيها برعمها الباهت، في السنة الأولى، ويندفع من الأرض، إلى المرحلة التي تكمل فيها فترة خمس سنوات، فتقوم بتدوير أسطوانتها النبيلة والرشيقة التي يظهر عليها الظل غير المؤكد للونها، فتنمو بتلات الزهرة، حينها فقط تكشف الكنوز السرية لكأسها.

يا للعجب! كم مرة رأى الرجل الغيور التعيس، الجاثم على سلمه، ڤان بيرل بين أحواض أزهار الزنبق، التي أعمته بجمالها، وخنقته بكمالها!

ثم بعد فترة من الإعجاب التي لم يستطع دحرها، أصيب بحمى الحسد، ذلك الشر الذي يقضم الصدر ويحول القلب إلى عدد لا يحصى من الثعابين الصغيرة التي تلتهم بعضها بعضاً، إنه مصدر دنيء لآلام رهيبة.

كم مرة، في خضم عذاباته، التي لا يمكن لأي وصف أن يصورها لنا، استحوذت على بوكستيل فكرة أن يقفز إلى داخل الحديقة ليلاً، لإتلاف النباتات هناك، والتهام البصل بأسنانه، ثم قتل المالك نفسه إذا تجرأ على الدفاع عن زنابقه.

لكن قتل زنبقة، في نظر عالم بستنة حقيقي، جريمة مروعة!

أما قتل رجل فهذا شيء وارد.

ومع ذلك، بفضل التقدم اليومي الذي كان يحققه ڤان بيرل في العلم الذي بدا أنه يخمنه بالفطرة، داهمت بوكستيل نوبة من الغضب لدرجة أنه فكر في إلقاء الحجارة والعصي على ألواح الزنابق لدى جاره.

لكنه عندما فكر أنه في اليوم التالي، سيرى ڤان بيرل الأضرار، سيعرف مقترفها، لأنه سيلاحظ أن الشارع كان بعيدًا، وأن الحجارة والعصي لم تعد تسقط من السماء في القرن السابع عشر كما في زمن العمالقة، وأن مقترف الجريمة، على الرغم من أنه قام بفعلته ليلًا، فسيتم اكتشافه ومعاقبته ليس فقط بموجب القانون، ولكن أيضًا بموجب أعراف مزارعي الزنابق في أوروبا،

وبذلك سيلحقه العار وإلى الأبد، لهذا شحذ بوكستيل الكراهية بالمكر وقرر استعمال وسيلة لا تورطه.

لقد بحث لفترة طويلة، هذا صحيح، لكنه وجدها في النهاية.

في إحدى الأمسيات، ربط قطتين من قدميهما الخلفيّتين بخيط طوله عشرة أقدام، وألقى بهما، من أعلى الجدار، في منتصف المشتل الرئيس للأزهار الأميرية، والملكية، الذي لا يحتوي فقط على زهرة كورني دو وايت، ولكن أيضًا على أزهار البربونسون ذات البياض الحليبي والأرجواني والأحمر، والرخامي، والكتاني الرمادي المتموج، والأحمر والزهريّ اللامع، وتحفة الهارليم الرائعة؛ الزنبقة البنفسجية الداكنة والزنبقة البنفسجية الكامدة اللون.

اندفع الحيوانان المذعوران اللذان سقطا من الأعلى إلى أسفل الجدار أولاً نحو مشتل الأزهار، محاولًا كلّ منها الفرار بمفرده، لكن الخيط الذي كان يربطهما معًا منعهما، حينذاك شعرا باستحالة الذهاب إلى أبعد من ذلك، فركضا هنا وهناك وهما يموءان مواء مخيفًا، ويجزان بحبلهما الأزهار محاولين التخلص منه؛ أخيرًا وبعد ربع ساعة من النضال المرير نجحا في قطع الخيط الذي ربطهما، واختفيا.

قبع بوكستيل مختبئا خلف شجرة الجميز لا يرى شيئًا بسبب ظلام الليل. ولكن عند صيحات القطتين الغاضبتين خمّن كلّ شيء، فاستفرغ قلبه من حقده، وأفعم بالبهجة.

كانت الرغبة في التأكد من الضرر الذي وقع كبيرة جدًا في قلب بوكستيل، لدرجة أنه بقي حتى سطوع ضوء النهار ليمتع نظره، بوضعية المشاتل وما لحقها من ضرر لقاء صراع القطتين.

كان جسمه متجمدًا بفعل ضباب الصباح. لكنه لم يشعر بالبرد، لأنه متدفئ بالأمل في الانتقام.

كان ألم منافسه يعوضه عن أحزانه كلّها.

مع بريق أشعة الشمس الأولى، انفتح باب البيت المطلي بالأبيض الناصع، فظهر ڤان بيرل واقترب من مشتله، مبتسمًا مثل رجل قضى الليل في سريره مترعًا بأحلام جميلة.

وفجأة رأى الأخاديد والتربة المحدبة التي كانت في اليوم السابق أكثر استواءً من المرآة؛ وفجأة رأى الصفوف المتناظرة من أزهار الأقحوان غير مرتبة، كانت مثل صفوف كتيبة سقطت في وسطها قنبلة.

فركض نحوها شاحبًا.

ارتعش بوكستيل فرحًا. خمس عشرة أو عشرين زهرة زنبق، ممزقة، منزوعة الأحشاء، منحنية على بعضها، والبعض الآخر مكسور تمامًا وذابل بالفعل؛ يتدفق النسغ من جروحها. النسغ؛ ذلك الدم الثمين الذي أراد ڤان بيرل أن يدفع من دمه مقابلًا له.

لكن يا للمفاجأة! ويا لفرحة ڤان بيرل! ويا لألم بوكستيل المتعذر على الوصف! لم تصب أية زهرة من أزهار الزنبق الأربعة المهددة بالهجوم الأخير. لقد سمقت بكبرياء برؤوسها النبيلة فوق جثث رفيقاتها. كان ذلك كافياً لمواساة ڤان بيرل، وكان كافيًا لأن يميت القاتل حنقًا، والذي نتف شعره وهو يرى أن جريمته التي ارتكبها كانت بلا جدوى.

بينما كان ڤان بيرل يندب البلاء الذي أصابه، لكن بفضل الرب، كان أقل مما كان يمكن توقعه، لم يستطع ڤان بيرل تخمين السبب. سأل فقط، وعلم أن الليل كله شابه مواء رهيب. علاوة على

ذلك، فقد تعرف على آثار مرور القطتين اللتين خلفتا آثار مخالبهما، والزغب الذي تركته في ساحة المعركة، يرتجف فوقه قطرات الندى اللامبالية كما تفعل فوق أوراق زهرة مكسورة، ولكي يمنع في المستقبل حدوث مثل هذه الفاجعة مرة أخرى، أمر بستانيًا صبيًا أن ينام كلّ ليلة في الحديقة، تحت مظلة الحراسة، بالقرب من مشاتل الأزهار.

استمع بوكستيل إلى الأمر، ورأى مظلة الحراسة ترتفع في اليوم نفسه، وكان سعيدًا جدًا بعدم الاشتباه به، وأكثر حماسة من أي وقت مضى ضد البستاني السعيد، منتظرا فرصة أفضل.

في هذا الوقت تقريبًا، اقترحت شركة مزارعي الزنابق في هارلم جائزة للاكتشاف، ولا نجرؤ على القول لاختراع الزنبقة السوداء الكبيرة الخالصة السواد، وهي مشكلة لم يحلها أحد وتعتبر غير قابلة للحل، إذا اعتبرنا أنه في ذلك الوقت لم تكن الأنواع الموجودة حتى في الطبيعة ذات لون بنيّ.

وهذا الأمر دفع الجميع ليقولوا إن مؤسسي الجائزة كان بإمكانهم وضع مليونين ومئة ألف جنيه مكافأة، لأن الأمر مستحيل بالمرة.

لم يكن عالم زراعة الزنابق أقل تأثرًا وانفعالًا من قاعدته إلى قمته إزاء الجائزة.

أخذ عدد قليل من الهواة بزمام الفكرة، لكن دون أن يؤمنوا بتطبيقها؛ لكن هنا تكمن القوة الخيالية لعلماء البستنة، على الرغم من اعتبار تكهناتهم فاشلة مسبقًا، لم يعودوا يفكرون في البداية في أي شيء سوى تلك الزنبقة السوداء الكبيرة، المشهورة بسحرها الخيالي مثل البجعة السوداء لهوراس، مثل الشحرور الأبيض في التقاليد الفرنسية.

كان بيرل واحدًا من هواة الزنبق الذين استهوتهم الفكرة. كما كان بوكستيل من بين الذين فكروا في المغامرة. منذ اللحظة التي دسّ فيها ڤان بيرل هذه المهمة داخل رأسه الثاقب والبارع، بدأ ببطء في الزراعة والعمليات اللازمة لجلب أزهار الزنبق من الأحمر إلى البني، ومن البني الفاتح إلى البني الداكن، التي كان يزرعها حتى ذلك الحين.

في العام التالي، حصل على محصول بني مثالي، ورآها بوكستيل من مرصده، بينما هو لم يتوصل إلا إلى اللون البني الفاتح فقط.

ربما سيكون من المهم أن نشرح للقراء النظريات الجميلة لإثبات أن الزنبق يستعير ألوانه من العناصر؛ وربما نكون ممتنين لإثبات أن لا شيء يمكن أن يكون مستحيلا أمام البستانيّ الذي يستخدم صبره وعبقريته، وحرارة الشمس، وطهارة الماء، وخلاصة التراب، وأنفاس الهواء، لكن هذه ليست أطروحة عن الزنابق بشكل عام، بل قصة زنبقة بعينها، قررنا كتابتها؛ لهذا سوف نقتصر عليها، مهما كانت جاذبية طُعم الموضوع الذي يجاور موضوعنا.

بوكستيل، الذي هُزم مرة أخرى إزاء تفوق خصمه، أصبح مشمئزًا من الثقافة، وشبه مجنون، فكرس نفسه بالكامل للمراقبة.

وكان منزل منافسه على مرأى العين. حديقة مفتوحة للشمس، غرف زجاجية مرئية، رفوف وأدراج وملصقات يسهل ملاحظتها بالمنظار؛ لهذا ترك بوكستيل بُصيلاته على طبقاتها تتعفن، وتجف قشرتها في أكواخها، والزنابق تموت في مشاتلها، وشرع من الآن فصاعدًا في قضاء سحابات نهاره بمراقبة جاره، لم يعد يهتم إلا بما يحدث لدى ڤان بيرل؛ كمن يتنفس هواءه من سيقان زنابقه، ويروي عطشه بماء سُقياها، ويشفي غليله بالتربة الناعمة الرقيقة التي يرشها

الجار على بصيلاته العزيزة.

لكن الأعمال الأكثر إثارة للفضول لم تكن تحدث في الحديقة، بل عند الساعة الواحدة ليلًا، حينما كان ڤان بيرل يصعد إلى مختبره الزجاجي، الذي يمكن لتلسكوب بوكستيل أن يخترقه جيدًا، وهناك، بمجرد أن تضاء أنوار العالِم، معوضة أشعة النهار، مضيئة الجدران والنوافذ، يشرع بوكستيل بمراقبة عبقرية منافسه الخلاقة وهي تشتغل.

فيشاهده يفرز بذوره ويرشها بمواد هدفُها تعديلُها أو تلوينُها، كان يخمن أن ڤان بيرل عندما يسخّن بعض هذه البذور، ويرطبها، ثم يدمجها مع بعضها بنوع من التطعيم، وهي عملية دقيقة وحاذقة بشكل يثير الإعجاب، فإنه يحبس في الظلام تلك التي كان من المفترض أن تعطي اللون الأسود، أو يعرضها تحت أشعة الشمس، أو تحت ضوء المصباح، فإنها بلا ريب ستعطي اللون الأحمر، وتلك التي تتألق في انعكاس أبدي للماء يجب أن تكون بيضاء، ونتيجة لتمثيل محكم وصريح للعنصر الرطب.

كان هذا السحر البريء، ثمرة التحام الخيال الطفولي والعبقرية الرجولية، هذا العمل الصبور والأبدي، الذي أدرك بوكستيل أنه غير قادر على تحقيقه، كان يبدد في منظار الحسود حياته كلّها، وأفكاره ذاتها وأمله جميعه.

شيء غريب! رغم الاهتمام الفائق والاحترام والحب الخالص للفن، لم ينطفئ حسد إسحاق العنيف وتعطشه للانتقام. في بعض الأحيان، ينظر إلى ڤان بيرل في منظاره، ويتظاهر بأنه يوجه بندقيته، ويضغط على الزناد ويطلق النيران التي يجب أن ترديه قتيلًا؛ ولكن حان الوقت لنربط بين هذا الزمن وأعمال أحدهم وتجسس الآخر، وبين الزيارة التي كان يقوم بها كورنيليوس دو وايت، روارد دو بولتين، إلى مسقط رأسه.

الفصل السابع

الرجل السعيد يواجه الشقاء..

بعد أن أنهى الأعمال التي تخص عائلته، قدم كورني لزيارة ربيبه، كورنيليوس ڤان بيرل، حدث ذلك في شهر يناير، عام 1672.

كان الليل قد أرخى ظلامه.

على الرغم من أن كورنيْ ليس ملمًا كثيرًا بالبستنة، ومع أنه ليس ملمًا بالفن إلا قليلًا، فقد زار كورنيْ المنزل كله، من المشغل إلى الدفيئات، ومن اللوحات إلى أزهار الزنبق. وشكر ابن أخيه على وضعه على ظهر سفينة القيادة للمقاطعات السبع خلال معركة ساوثوود باي، وعلى إطلاق اسمه على زنبقة رائعة، وكل ذلك بلطف وحفاوة أب بابنه، وبينما كان يتفقد كنوز ڤان بيرل، وقف الحشد بفضول، وباحترام أيضًا، أمام باب الرجل السعيد.

أثار هذا الضجيج كله انتباه بوكستيل، الذي كان يتناول وجبة خفيفة قرب مدفأته.

استفسر عنها، فعرف ما يحدث، آنذاك صعد إلى مختبره.

ومن هناك، على الرغم من البرد، استقر أمام منظاره وشرع يراقب ما يجري.

لم يكن هذا المنظار ذا فائدة كبيرة له منذ خريف 1671. لأن الزنابق، مثل جميلات الشرق الحقيقيات، لا تزرع في الأرض شتاء، إنها بحاجة إلى مكان داخل المنزل، وسرير دافئ ومريح بأدراج ومداعبات لطيفة قرب المدفأة. لذلك قضى كورنيليوس الشتاء كله في مختبره، وسط كتبه ولوحاته. كان نادراً ما يذهب إلى غرفة البصيلات، إلا إذا أراد أن يسمح بدخول بعض أشعة الشمس المفاجئة من السماء، والتي يجبرها، بعدما يفتح فتحة زجاجية، على السقوط طوعًا أو كرهًا إلى داخل المنزل.

في هذا المساء الذي نتحدث عنه، وبعد أن زار كورني وكورنيليوس المنزل كله، يتعقبهما بعض الخدم:

قال كورني بصوت خافت لڤان بيرل:

- يا بني، أبعد خدمك وحاول إبقاءنا لوحدنا بضع لحظات.

انحنى كورنيليوس مستجيبًا. ثم قال بصوت عالٍ:

- سيدي، والآن هل تحب زيارة مجفف الزنابق؟

كان المجفف بمثابة بونديمونيوم للزنابق، هذا المسكن، هذا الحرم المقدس، ومثل دلفي القديمة، ممنوعة على الناس العاديين.

لا يوجد خادم يجرؤ على وضع قدمه بداخله، كما قال راسين العظيم، الذي ازدهر في ذلك الوقت. لا يسمح كورنيليوس بالدخول إلا للمكنسة المسالمة لخادمته فريزيان العجوز، ومربيته، التي لم تعد تجرؤ منذ أن كرس كورنيليوس نفسه لعبادة الزنابق، على وضع البصل في اليخنة، خوفًا من أن تقشر وتبل قلب رضيعها.

ما أن سمع الخدم كلمة المجفف، حتى انسحبوا باحترام حاملين المشاعل. أخذ كورنيليوس الشموع من يد الرجل الأول الذي سبق عرّابه إلى الغرفة المعنية.

وبالإضافة إلى ما قلناه الآن فإن المجفف كان الغرفة الزجاجية نفسها التي ظل بوكستيل يسلط عليها منظاره.

كان الحسود يترصد في مكانه أكثر من أي وقت مضى.

في البداية رأى الجدران والنوافذ تضاء.

ثم ظهر ظلّان.

جلس الطويل، والمهيب، والصارم، بالقرب من الطاولة حيث وضع كورنيليوس الشعلة.

في ذلك الظل، تعرف بوكستيل على الوجه الشاحب لكورني دو وايت، الذي كان شعره الأسود الطويل المنفصل عند جبهته ينسدل على كتفيه.

بعد أن قال الروارد دو بولتن بضع كلمات لكورنيليوس، لم يستطع الرجل الحسود من حركة شفتيه فهم معناها، لكنه سحب من صدره رزمة بيضاء مختومة بعناية وسلمها له، افترض بوكستيل، من طريقة تعامل كورنيليوس مع الرزمة، وطريقة تسلمها ووضعها في خزانة أن تكون أوراقًا ذات أهمية قصوى.

في البداية كان يعتقد أن هذه الرزمة الثمينة تحتوي على بعض الفصوص التي وصلت حديثًا من البنغال أو سيلان. لكنه سرعان ما أدرك أن كورني نادرًا ما كان يزرع الزنابق، ولا يهتم إلا بالبشر، وهو نبات سيئ لا يسرّ الناظر وفوق ذلك كله يصعب أن تجعله يزهر.

لذا عاد إلى فكرة أن هذه الحزمة تحتوي بشكل خالص وبسيط على أوراق وأن هذه الأوراق تتعلق بالسياسة.

لكن لماذا الأوراق التي تحتوي على السياسة توضع عند كورنيليوس، الذي لم يكن يتفاخر بكونه غريبًا تمامًا عن هذا العلم، بل أكثر غموضًا، في رأيه، من الكيمياء وحتى الخيمياء؟

لم يكن هناك شك في أن كورني، الذي كان مهددًا بالفعل بسبب نقص الشعبية والإجلال من طرف مواطنيه، قد وضع الوديعة لدى ربيبه ڤان بيرل، وهذا يعتبر أكثر مهارة من جانب الروارد، لأنه لا أحد بالتأكيد سيشك بكورنيليوس، البعيد كلّ البعد عن المؤامرات، وبذلك لن يأت أحد للتفتيش عن هذه الوديعة.

علاوة على ذلك، إذا كانت الرزمة تحتوي على فصوص، فإن بوكستيل يعرف جاره؛ لم يكن كورنيليوس ليصبر على ذلك، فسيفك الرزمة على الفور، لتفحصها كهاوٍ، ومعبرًا عن تقديره للهديّة التي حصل عليها.

على العكس من ذلك، استلم كورنيليوس الوديعة من يدي الروارد بكل احترام، وكذلك وضعها في الدرج باحترام، وقام بدفعها إلى الخلف، بلا شك أولاً حتى لا تُرى، وحتى لا يمكن رؤيتها. ولا تشغل الكثير من المساحة المخصصة لبصيلاته.

وما أن وضعت الحزمة في الدرج، حتى وقف كورني دو وايت، وصافح يد ربيبه، ثم توجه نحو الباب.

سرعان ما تناول كورنيليوس الشعلة واندفع إلى الأمام ليكون في المقدمة ويتسنى له إضاءة الطريق لضيفه بشكل لائق.

ثم خفت الضوء رويدًا رويدًا في الغرفة الزجاجية وعادا إلى الظهور على الدرج، ثم تحت الدهليز وأخيرًا في الشارع الذي مازال مزدحمًا بالأشخاص الذين أرادوا رؤية الروارد وهو يركب عربته.

لم يكن الرجل الحسود يجانب الصواب في افتراضاته. لإن وديعة الروارد لدى ربيبه المحتفظ بها بعناية كانت عبارة عن مراسلات بين جان والسيد دو لافوا.

لكن هذه الوديعة عُهد بها، كما قال كورني لأخيه، دون أن يسمح كورني لربيبه بأن يشك في أهميتها السياسية.

كانت التوصية الوحيدة التي أوصاه بها ألا يسلم هذه الوديعة لأي أحد سواه، بناءً على كلمة منه، وأياً كان من يأتي للمطالبة بها.

كان كورنيليوس، كما رأينا قد أغلق خزانة الفصوص والبذور النادرة.

بعد ذلك، رحل الروارد، فانطفأت الضوضاء والأضواء، لم يعد يفكر صاحبنا في هذه الحزمة، لكن بوكستيل، على العكس من ذلك، كان يفكر فيها بقوة، ومثل ربّان ماهر، رأى في هذه الحزمة الغمامة البعيدة والوشيكة التي ستنمو قادمة وفي طياتها تكمن العاصفة.

والآن، ها كم جميع معالم حكايتنا التي زرعت في هذه التربة الخصبة الممتدة من دوردريخت إلى لاهاي. فليتبع مآل الفصول التالية من يريد؛ أما بالنسبة لنا، فقد حافظنا على وعدنا، أثبتنا أنه لم يكن لكورني ولا جان دو وايت أعداء شرسون في كلّ هولندا مثل عدو ڤان بيرل المتجسد في جاره السيد إسحاق بوكستيل.

ومع ذلك، استمر ڤان بيرل في جهله، يشق طريقه نحو الهدف الذي اقترحته هيئة هارلم؛ لقد انتقل من الزنبق البني إلى اللون الشبيه بالبن المحروق. حصل ذلك في اليوم نفسه الذي وقع فيه الحدث الجلل الكبير الذي تحدثنا عنه في لاهاي، سنجده في حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، يزيل من على رفوف مشتله البصيلات، التي لم تثمر بعد بذرة زنبق تشبه البن المحروق، هذه الزنبقة التي تأجل إزهارها حتى ذلك الحين؛ إلى ربيع عام 1673، والتي لا يمكن أن تفشل في إعطاء الزنبقة السوداء الكبيرة المطلوبة من هيئة هارلم.

في 20 أغسطس 1672، وفي تمام الساعة الواحدة بعد الظهر، كان كورنيليوس إذن في غرفة التجفيف، وقدماه على قضيب طاولته، ومرفقاه على السجادة، واضعًا بسعادة ثلاثة فصوص كان قد فصلها للتو عن البصيلة: فصوص نقية، كاملة، وسليمة، عناصر لا تقدر بثمن لواحد من أروع منتجات العلم والطبيعة، وقد اتحدا في هذا المزيج الذي كان نجاحه سيخلد اسم كورنيليوس ڤان بيرل إلى الأبد.

قال كورنيليوس في نفسه وهو يفكك تشابك الفصوص عن بعضها:

- سأجد الزنبقة السوداء العظيمة، وسأحصل على مئة ألف غيلدر المعروضة. سأوزعهم على فقراء دوردريخت. بهذه الطريقة ستهدأ الكراهية التي يزرعها كلّ رجل غني في الحروب الأهلية، وسأكون قادرًا، دون خوف من الجمهوريين أو الأورانج، على الاستمرار في الحفاظ على أحواض أزهاري في حالة جيدة. لن أخشى أيضًا من أن يأتي أصحاب الدكاكين في دوردريخت وبحارة الميناء في يوم من أيام الشغب لنزع بصيلاتي لإطعام عائلاتهم، كما يحدث حينما يهددونني

بصوت منخفض أحيانًا، عندما يسمعون أني اشتري بصيلة بمئتين أو ثلاثمئة غيلدر. انتهى المشكل، سأمنح الفقراء مئة ألف غيلدر من جائزة هارلم. على أية حال...

وعلى الرغم من ذلك، توقف كورنيليوس ڤان بيرل وتنهد.

وأردف:

- رغم أني كنت أرغب بإنفاق مئة ألف غيلدر على توسيع المشتل أو القيام برحلة إلى الشرق، موطن الأزهار الجميلة، هذا سيكلفني الكثير من المال. ولكن للأسف! يجب ألا نفكر بعد الآن في هذا كله؛ لأن البنادق والأعلام والطبول والتصريحات، باتت تسيطر على الوضع في الوقت الحالي.

رفع ڤان بيرل عينيه وتنهد. ثم عاد ببصره إلى بصيلاته التي مرت بذهنه قبل وقت طويل من تلك البنادق والطبول والأعلام والتصريحات، وكلها كانت صالحة فقط لإزعاج عقل رجل شريف:

قال لنفسه:

- ومع ذلك هاهي بعض البصيلات الجميلة جدًا. كم هي ملساء، وما أجود تكوينها، وكم هي حزينة وموعودة زنبقتي بلون كحليّ يشبه خشب الأبنوس الأسود! فوق جلدتها تنتشر عروق لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة. يا للروعة! بالتأكيد، لن تفسد وصمة ثوب الزهرة الحِداديّ الذي تدين لي به اليوم ... ماذا سنسمي فتاة سهري وعملي وتفكيري؟ زنبقة نيغرا بيرلنسيس.

«نعم، بيرلنسيس؛ اسم جميل. كلّ أزهار الزنبق في أوروبا، أي أوروبا الذكية كلّها، سترتعد عندما ينتشر هذا الخبر مع الرياح إلى النقاط الأساسية الأربع في الكرة الأرضية: عثر على الزنبقة السوداء العظيمة! – ما اسمها؟ سوف يسأل الهواة. - زنبقة نيغرا بيرلنسيس. - لماذا بيرلنسيس؟ سيجيبون: -نسبة إلى مخترعها ڤان بيرل – من يكون هذا الڤان بيرل؟ - إنه الشخص الذي اخترع سابقًا خمسة أنواع جديدة وهي: جان، وجان دو وايت، وكورني، إلخ. حسنًا، هذا هو طموحي الشخصي. لن يكلف أحدًا ذرف أية دموع. وسيستمر الحديث عن زنبقة نيغرا بيرلنسيس، ربما عندما لن يكون عرابي، هذا السياسي الراقي، معروفًا بعد الآن إلا من خلال الزنبقة التي منحتها اسمه.

«ياللبراعم الساحرة!» ...

وأردف كورنيليوس: «عندما تزهر زنبقتي، أتمنى أن يعود السلام إلى هولندا، لأعطي الفقراء خمسين ألف غيلدر فقط؛ في النهاية، هذا كثير بالفعل بالنسبة لرجل لا يدين لأي أحد بأي شيء على الإطلاق. بعد ذلك بخمسين ألف غيلدر الأخرى، سأقوم بالتجارب. بهذه الخمسين ألف غيلدر، أريد أن أتمكن من تعطير الزنبق. يا للروعة! لو كان بإمكاني أن أجعل رائحة الزنبق مثل رائحة الوردة أو القرنفل، أو حتى رائحة جديدة تمامًا، فسيكون ذلك أفضل؛ إذا أعطيت إلى ملكة الأزهار هذه العطر الطبيعي الأصلي الذي فقدته خلال انتقالها من عرشها في الشرق إلى عرشها الأوروبي، العطر الذي تمتلكه قطعًا في شبه جزيرة الهند، في جاوا، في بومباي، في مدراس، وخاصة في هذه الجزيرة التي كانت في السابق، كما يقال الجنة الأرضية والتي يطلق عليها سيلان، حسنًا! يا له من مجد! سأحب كثيرًا، أقول، سأحب أن أكون كورنيليوس ڤان بيرل على أن أكون ألكساندر أو قيصر أو ماكسيميليان.

«يا لروعة البراعم! ... »

انبهر كورنيليوس بتأمله، فانغمس في أحلى الأحلام.

فجأة رنّ جرس باب غرفته الزجاجية بحدة أكثر من المعتاد.

ارتجف كورنيليوس، ومدّ يده إلى براعمه واستدار متسائلًا:

- من هناك؟

أجاب الخادم:

- يا سيدي، جاء مبعوث من لاهاي.

- مبعوث من لاهاي .. ماذا يريد؟

- سيدي، هذا كريك.

- كريك، خادم السيد جان دو وايت الموثوق به؟ جيد! دعه ينتظر.

قال صوت في الممر:

- لن أطيق الانتظار.

وفي الوقت نفسه، هرع كريك إلى غرفة المجفف رافضًا الانتظار. كان هذا الظهور شبه العنيف انتهاكًا للعادات المعمول بها في منزل كورنيليوس ڤان بيرل، حيث أن هذا الأخير، ما إن رأى كريك يندفع إلى المجفف، حتى قام بحركة متشنجة تقريبًا فغطى بيده البراعم، مما تسبب في سقوط ودحرجة اثنين من براعمه الثمينة، أحدهما تحت المنضدة بجانب الطاولة الكبيرة والآخر في اتجاه المدفأة.

قال كورنيليوس وهو يسرع في البحث عن برعميه:

- الى الجحيم! ماذا لديك يا كريك؟

قال كريك وهو يضع الورقة على الطاولة الكبيرة حيث كانت البصيلة الثالثة ملقاة:

- هناك يا سيدي؛ أنت مدعو لقراءة هذه الورقة دون إضاعة لحظة واحدة.

ولأن كريك يعتقد أنه لاحظ أعراض بلبلة في شوارع دوردريخت مثل تلك التي تركها وراءه في لاهاي، فرّ دون أن يلتفت وراءه.

قال كورنيليوس وهو، يمدّ ذراعه تحت الطاولة ليبحث عن البصيلة الثمينة:

- هذا جيد! هذا جيد! يا عزيزي كريك؛ سوف نقرأ ورقتكم. ثم التقط البرعم الذي وضعه في راحة يده ليتفحصه.

وأردف قائلًا:

- حسنًا! هناك بالفعل واحدة سليمة. يا له من شيطان! كريك يقتحم غرفة المجفف التي تخصني بهذه الطريقة! والآن لنعاين الآخر.

ودون أن يترك البصيلة الهاربة، تقدم ڤان بيرل باتجاه المدفأة، يمشي على ركبتيه، وعلى أطراف أصابعه، شعر بالرماد الذي كان لحسن الحظ باردًا. وبعد لحظة، لمس الثاني.

فقال ناظرا إليه باهتمام أبويّ تقريبًا:

- حسنًا، ها هو، سليم مثل الأول.

في اللحظة نفسها، وبينما كان كورنيليوس لا يزال جاثيا على ركبتيه يفحص البرعم الثاني، اهتز باب المجفف بشدة وانفتح بطريقة مفاجئة نتيجة هذا الاهتزاز لدرجة أن كورنيليوس شعر بالرجّة على خديه، وبحرارة الغضب تصعد إلى أذنيه.

وصاح متسائلًا:

- ماذا هناك مجددًا؟ أوه هذا! هل سنصاب بالجنون هنا؟

صرخ خادم وهو يندفع إلى المجفف شاحب الوجه وبسيماء أكثر حيرة من كريك:

- سيدي! سيدي!

سأل كورنيليوس، مستشعرا نذير شؤم في هذا الانتهاك المزدوج لجميع القواعد.

- وماذا أيضًا؟

صرخ الخادم:

- آه! يا سيدي، اهرب، اهرب بسرعة!

- ولماذا، سأهرب؟

- سيدي، المنزل مليء بحرس المقاطعات.

- ماذا يريدون؟

- إنهم يبحثون عنك.

- لماذا؟

- لاعتقالك.

- لاعتقالي، أنا؟

- نعم يا سيدي، ويتقدمهم قاض.

سأله ڤان بيرل وهو يضغط في يده على البرعمين ويحدق في اتجاه الدرج خائفًا.

- ماذا يعني ذلك؟

صرخ الخادم:

- إنهم يصعدون، يصعدون!

صرخت المربية وهي تشق طريقها بدورها إلى غرفة المجفف:

- آه! يا طفلي العزيز، يا سيدي الجليل، خذ ذهبك ومجوهراتك واهرب بعيدًا!

سأل فان بايرل:

- ولكن من أين تريدينني أن أهرب، أيتها المربية؟

- اقفز من النافذة.

- خمسة وعشرون قدمًا.

- سوف تسقط على ستة أقدام من الطمي.

- نعم، لكنني سأسقط فوق الزنابق.

- لا يهم، اقفز.

أخذ كورنيليوس البصيلات الثلاث، واقترب من النافذة، وفتحها، ولكن نظرًا للضرر الذي كان سيحدثه في أحواض الأزهار الخاصة به، بالإضافة إلى المسافة التي يجدر به قطعها قال وهو يتراجع إلى الوراء:

- أبدًا.

في هذه اللحظة، كان بإمكاننا رؤية رماح الجنود وهي ترتفع عبر قضبان المنحدر. رفعت المربية ذراعيها إلى السماء.

أما بالنسبة إلى كورنيليوس ڤان بيرل، فيجب أن نثني، ليس على الإنسان، ولكن على مزارع الزنبق، إذ كان همه الوحيد أن يحافظ على براعمه الثمينة. نظر حوله بحثًا عن قطعة من الورق ليغلفها بها، فرأى ورقة الكتاب المقدس التي وضعها كريك على المجفف، وأخذها دون أن يتذكر في خضم حيرته العارمة، من أين أتت هذه الورقة، ولف البراعم الثلاثة داخلها، وأخفاها في صدره وانتظر. في اللحظة نفسها دخل الجنود يتقدمهم قاض، وقال سائلًا رغم أنه يعرف الشاب جيدًا؛ لكن هذا يتوافق مع قواعد العدالة، والتي كما سنرى، ستعطي للمسألة جدية كبيرة:

- هل أنت الدكتور كورنيليوس ڤان بيرل؟

أجاب كورنيليوس محييًا بوقار قاضيه:

- نعم، أنا هو، يا سيد فان سبينين، وأنت تعرف ذلك جيدًا.

- إذن! سلمنا الأوراق التحريضية التي تخفيها في المنزل.

صرخ كورنيليوس، مذهولاً من التهمة.

- أوراق تحريضية؟

- حسنًا! لا تدعي التعجب.

قال كورنيليوس:

- أقسم لك يا سيد فان سبينين، أجهل تمامًا ما ترمي إليه.

قال القاضي:

- إذن سأوضح لك الأمور يا دكتور. سلمنا الأوراق التي تركها الخائن كورني دو وايت لديك في يناير الماضي.

لحظتها ومض برق في ذهن كورنيليوس.

قال فان سبينين:

- عجبًا! عجبًا! الآن بدأت تتذكر، أليس كذلك؟

- دون شك؛ لكنك كنت تتحدث عن أوراق تحرض على الفتنة، وأنا لا أملك مثل هذه الأوراق.

- حسنًا! هل تنكر؟

- من المؤكد.

التفت القاضي لإلقاء نظرة على الغرفة بكاملها.

سأل القاضي:

- أين هي الغرفة التي تسمى المجفف في منزلك؟

- هي المكان الذي نحن فيه بالضبط، سيد فان سبينين.

نظر القاضي إلى ملاحظة صغيرة في الصف الأول من أوراقه.

قال كرجل متأكد من معلوماته:

- هذا جيد.

ثم التفت نحو كورنيليوس وسأل:

- هلا أعطيتني هذه الأوراق؟

- لكن لا أستطيع، يا سيد فان سبينين. هذه الأوراق ليست لي، لقد وضعت عندي وديعة، والأمانة مقدسة.

وقال القاضي:

- دكتور كورنيليوس، باسم المقاطعات، آمرك بفتح هذا الدرج وإعطائي الأوراق التي توجد بداخله.

وأشار القاضي إلى الدرج الثالث من خزانة موضوعة بالقرب من المدفأة. في الواقع، في هذا الدرج الثالث توجد الأوراق التي قدمها روارد بولتن إلى ربيبه، وهو دليل على أن الشرطة قد وصلتها معلومات دقيقة تمامًا.

قال فان سبينن وهو يرى أن كورنيليوس قد تجمد من شدة الدهشة:

- حسنًا! ألا تريد؟ حسنًا سأفتحها بنفسي.

فتح الدرج بالكامل، فاكتشف القاضي أولاً حوالي عشرين بصيلة، مرتبة بعناية وعليها بطاقات تعريفية، ثم رزمة الأوراق في الحالة نفسها التي كانت عليها يوم تسلمها من التعس كورني دو وايت. كسر القاضي الشمع، مزق الظرف، وألقى نظرة شغوفة على الصفحات الأولى التي وقعت عليها عينه، وصرخ بصوت رهيب:

- حسنًا! إذن لم تتلق العدالة، إشعارًا كاذبًا!

قال كورنيليوس:

- كيف! ومن هو؟

أجاب القاضي:

- حسنًا! لا تدعي الجهل بعد الآن، يا سيد ڤان بيرل، واتبعنا.

صرخ الدكتور:

- لماذا سأتبعك؟

- نعم، لأنني باسم المقاطعات نعتقلك. ولم نعتقلك بعد باسم غيوم أورانج.

صرخ كورنيليوس:

- تعتقلني! ولكن ماذا فعلت؟

- هذا لا يعنيني يا دكتور، سوف تشرح ذلك لقضاتك.

- أين؟

- في لاهاي.

قبل كورنيليوس مذهولًا مربيته التي فقدت وعيها، وسلم على خدمه، الذين انفجروا بالبكاء، وتبع القاضي الذي قيده إلى كرسيه مثل سجين دولة، وساقوه بسرعة هائلة إلى لاهاي.

الفصل الثامن

الاقتحام..

يمكن أن نتصور أنّ ما حدث للتو هو عمل شيطاني مدبر من طرف السيد إسحاق بوكستيل الشرير.

نتذكر أنه بمساعدة منظاره، لم يضيع أي جزء من تفاصيل هذه المقابلة بين كورني دو وايت وربيبه.

نتذكر أنه لم يسمع شيئًا، لكنه رأى كلّ شيء.

نتذكر أنه قد خمّن أهمية الأوراق التي عهد بها الروارد دو بولتن إلى ربيبه، حيث رأى الأخير يتناول بعناية الرزمة المسلمة إليه ويضعها في الدرج حيث كان يحتفظ بأثمن بصيلاته.

وترتب عن ذلك أنه عندما علم بوكستيل، الذي كان يهتم بالسياسة اهتمامًا أكبر بكثير من جاره كورنيليوس، أن كورنيليوس دو وايت اعتقل بتهمة الخيانة العظمى للولايات، وبذلك فكر أنه تكفيه كلمة واحدة ليقولها، كي يلقى القبض على الربيب وعرابه في الوقت نفسه.

ومع ذلك، وحتى إن غمرت الفكرة قلب بوكستيل سعادة، فقد ارتجف في البداية عند فكرة إدانة رجل بتهمة قد تقوده إلى المقصلة.

لكن الشيء الفظيع في الأفكار السيئة أن الأرواح الشريرة تتأقلم معها شيئًا فشيئًا.

علاوة على ذلك، شجع السيد إسحاق بوكستيل نفسه بهذه المغالطة:

« كورنيْ دو وايت مواطن سيئ، مادام متهما بالخيانة العظمى واعتقل مسبقًا»

«أنا مواطن صالح، لأنني لست متهمًا بأي شيء في العالم وأنا حر مثل الهواء»

«الآن، إذا كان كورنيْ دو وايت مواطنًا سيئًا، وهذا أمر مؤكد، ونظرًا لأنه متهم بالخيانة العظمى وتم اعتقاله، فإن شريكه كورنيليوس ڤان بيرل ليس أقل سوءًا منه»

«إذن، أنا مواطن صالح، ومثلي من واجبه كالمواطنين الصالحين أن يبلغوا عن المواطنين السيئين، ومن واجبي، أنا إسحاق بوكستيل، أن أبلغ عن كورنيليوس ڤان بيرل.»

لكن هذا المنطق لم يكن ليأخذ استحواذًا كبيرًا على بوكستيل، وربما لم يكن الحسود قد استسلم لرغبة الانتقام البسيطة التي قضمت قلبه، إذا لم يحدث اتحاد علني بين شيطان الحسد وشيطان الجشع.

لا يجهل بوكستيل المرحلة التي وصل إليها ڤان بيرل في بحثه عن الزنبقة السوداء العظيمة.

وبقدر تواضع الدكتور كورنيليوس، لم يستطع أن يخفيَ عن أكثر أصدقائه حميمية أنه كان على يقين من الفوز في عام 1673 بجائزة المئة آلاف غيلدر التي ستقدمها هيئة هارلم للبستنة.

وبينما كان هذا يقين شبه مؤكد بالنسبة لكورنيليوس ڤان بيرل كان بمثابة حمى تنهش فؤاد إسحاق بوكستيل.

كان القبض على كورنيليوس، قد تسبب في بلبلة كبيرة في المنزل. في الليلة التي أعقبت الاعتقال، لهذا لم يفكر أحد في السهر على مراقبة أزهار الزنبق في الحديقة.

لكن في تلك الليلة، كان بوكستيل سيتجاوز الحائط، ومادام يعلم أين البصيلات التي كان من المفترض أن تمهد لظهور الزنبقة السوداء العظيمة، فإنه سيختلسها؛ وبدلاً من أن تتفتح لدى كورنيليوس، سوف تزهر الزنبقة السوداء في بستانه، وبذلك سيحصل على جائزة المئة ألف غيلدر، بدلاً من أن يأخذها كورنيليوس، دون احتساب هذا الشرف الأسمى لتسمية الزهرة الجديدة بزنبقة نيغرا بوكستينيليس، وهي النتيجة التي لن تشفي غليله من الانتقام فحسب، بل وجشعه أيضًا.

قضى الليلة ساهرًا، لا يفكر إلا في الزنبقة السوداء العظيمة؛ ونائمًا، لا يحلم إلا بها.

أخيرًا، في 19 أغسطس، حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، كان الإغراء قويًا لدرجة أن السيد إسحاق لم يستطع مقاومته طويلًا.

ونتيجة لذلك، قام بكتابة وشاية دقيقة الأدلة من مجهول، وأرسل هذا التبليغ بواسطة البريد.

كان لهذه الورقة المسمومة تأثير عاجل ورهيب.

في المساء نفسه ما إن تلقى القاضي الرئيس الرسالة؛ حتى عجّل باستدعاء زملائه، لعقد اجتماع في صباح اليوم التالي. وهكذا اجتمعوا وقرروا الاعتقال وسلموا الأمر، ليتم تنفيذه، إلى السيد فان سبينين، الذي كان قد قام، كما رأينا، بهذا الواجب باعتباره هولنديًا قديرًا، فاعتقل كورنيليوس ڤان بيرل بينما كان أورانجيو لاهاي يشوون قطعًا من جثثي كورني وجان دو وايت.

ولكن، سواء كان خجلاً أم ضعفًا في تنفيذ الجريمة، لم يكن لدى إسحاق بوكستيل الشجاعة لتوجيه منظاره في ذلك اليوم، لا إلى الحديقة ولا إلى المشغل ولا إلى المجفف.

كان يعلم جيدًا ما سيحدث في منزل الدكتور المسكين كورنيليوس ولا يحتاج إلى رؤيته. لم ينهض حتى عندما دخل غرفته خادمه الوحيد، الذي كان يحسد بدوره قدر خدم كورنيليوس، وليس أقل مرارة من بوكستيل الذي يحسد سيدهم. قال بوكستيل لخادمه:

- لن أستيقظ اليوم، أنا مريض.

حوالي الساعة التاسعة صباحًا سمع ضجة كبيرة في الشارع فارتجف من هذه الضوضاء. وفي هذه اللحظة أصبح أكثر شحوبًا من مريض حقيقي، وأكثر رجفة من مصاب بالحمى. دخل خادمه، فاختبأ بوكستيل تحت بطانيته.

صاح خادمه دون أن يرتاب لحظة أن ما سيعلنه عن كارثة ڤان بيرل، سيكون بمثابة خبر سعيد بالنسبة لسيده:

- آه! آه! يا سيدي، أنت لا تعرف ما الذي يحدث الآن؟

أجاب بوكستيل بصوت مبهم:

- كيف تريدُني أن أعرف؟

- حسنًا! في هذه اللحظة، سيدي بوكستيل، جارك كورنيليوس ڤان بيرل يلقى عليه القبض بتهمة الخيانة العظمى.

همس بصوت ضعيف:

- عجبًا! هذا مستحيل!

- أجل! على الأقل هذا ما يقولونه. علاوة على ذلك، رأيت للتو القاضي فان سبينين وجنود الرماة يدخلون منزله.

قال بوكستيل:

- حسنًا! إذا كنت قد رأيت فهذا شيء آخر.

قال الخادم:

- في كلتا الحالتين، سأكتشف ذلك مرة أخرى، ولا تقلق، سيدي، سأبقيك على اطلاع.

اكتفى بوكستيل بإيماءة تشجيع لحماسة خادمه. خرج هذا الأخير وعاد بعد ربع ساعة.

وقال:

- حسنًا! يا سيدي، كلّ ما قلته لك كان حقيقة خالصة.

- كيف ذلك؟

- لقد اعتقل السيد ڤان بيرل، ووضع في عربة وأرسل للتو إلى لاهاي.

- إلى لاهاي!

- نعم، إذا كان ما يقولونه صحيحًا، سيكون هناك في وضع سيئ.

سأل بوكستيل:

- وماذا يقولون؟

- أجل! يا سيدي، كما يقولون، لكن هذا غير مؤكد تمامًا، فهم يقولون إن البرجوازيين يجب أن يكونوا في هذه الساعة قد قتلوا السيد كورني دو وايت وجان دو وايت.

تمتم بوكستيل، أو بالأحرى تذمر، وأغمض عينيه حتى لا يرى الصورة الرهيبة التي لا شك أنها تجلت أمام عينيه.

- سحقًا!

قال الخادم وهو يخرج:

- اللعنة! كان يجب أن يسقط إسحاق بوكستيل مريضًا كي لا يقفز من السرير عند سماعه مثل هذه الأخبار.

كان إسحاق بوكستيل بالفعل مريضًا جدًا، مَرَضَ من قتل للتو رجلاً آخر. لكنه قتل ذلك الرجل لغرض مزدوج. أُنجز الغرض الأول، وبقي الغرض الثاني، يجب إنجازه. حلّ الليل، هذه هي الليلة التي طالما انتظرها.

ما أن خيم الليل، حتى انتصب بوكستيل واقفًا.

ثم صعد إلى شجرة الجميز الخاصة به. لقد حسب كلّ شيء بشكل جيد.

لن يفكر أحد في حراسة الحديقة. المنزل في هرج ومرج والخدم مبلبلون.

عندما سمع على التوالي دقات الساعة العاشرة والحادية عشرة ومنتصف الليل.

في منتصف الليل، وثب قلبه، وارتعشت يداه، وشحب وجهه، وهو ينزل من شجرته، إلى سلم، متكئ على الحائط، ثم صعد إلى الدرجة ما قبل الأخيرة، واسترق السمع.

كان كلّ شيء هادئًا. لا صوت يزعج صمت الليل.

كان ثمة ضوء واحد يحرس المنزل كله.

كان ضوء غرفة المربية.

هذا الصمت والظلام المخيم شجعا بوكستيل.

صعد الحائط، توقف للحظة، وهو متأكد تمامًا من أنه ليس لديه ما يخشاه، صعد السلم من حديقته إلى حديقة كورنيليوس ونزل إلى الأسفل.

ومادام يعرف بالتحديد المكان الذي دُفنت فيه فصوص الزنبقة السوداء المستقبلية، هرع في اتجاهها، مقتفيا المسارات حتى لا تخدعه آثار خطاه، ووصل إلى المكان المحدد، بغبطة نمر متحفز، دس يديه في الأرض الرطبة.

لم يجد شيئًا فاعتقد أنه كان مخطئًا.

بينما العرق يجري بشكل غريزي على جبهته.

بحث في مكان قريب، لا شيء.

بحث يمينًا، وبحث يسارًا، لا شيء.

فتش أمامه وخلفه، لا شيء.

كاد أن يصاب بالجنون، لأنه أدرك أخيرًا أن الأرض قد قلبت في ذلك الصباح.

بالفعل، بينما كان بوكستيل في سريره، نزل كورنيليوس إلى حديقته، واستخرج البصيلات، كما رأينا، وقسمها إلى ثلاثة فصوص.

لم يستطع بوكستيل أن يقرر مغادرة المكان. لقد قلب بيديه مساحة عشرة أقدام مربعة.

أخيرًا، لم يعد هناك أي شك بشأن شقائه.

عاد ثملاً من شدة الغضب، عاد إلى سلمه، وصعد الحائط، وأحضر السلم من منزل كورنيليوس، وألقى به في حديقته وقفز وراءه.

فجأة راوده أمل أخير.

كان ذلك بسبب اعتقاده بأن البصيلات موجودة في المجفف.

ولا يحتاج الأمر إلا إلى دخول المجفف في الحديقة.

هناك سيجدها.

إلى جانب ذلك، ليس الأمر غاية في الصعوبة.

لأن نوافذ المجفف مرفوعة مثل نوافذ الدفيئة.

كان كورنيليوس ڤان بيرل قد فتحها في ذلك الصباح ولم يفكر أحد في إغلاقها.

كان يكفيه الحصول على سلم طويل إلى حد ما، سلم طوله عشرين قدمًا بدلاً من اثني عشر.

كان بوكستيل قد لاحظ في الشارع منزلًا قيد الإصلاح؛ وعلى طول هذا المنزل يوجد سلم عملاق.

كان هذا السلم بالنسبة لبوكستيل سيفي بالغرض، إذا لم يأخذه العمال معهم.

ركض إلى المنزل، فعثر على السلم هناك.

أخذ بوكستيل السلم وجلبه بصعوبة بالغة إلى حديقته؛ وبصعوبة أكبر رفعه على حائط منزل كورنيليوس.

وصل السلم إلى المنور.

وضع بوكستيل فانوسًا أصم مضاءً في جيبه، وصعد السلم، ودخل المجفف.

عندما وصل إلى عين المكان توقف متكئًا على المائدة. كادت ساقاه تخذلانه، وكان قلبه ينبض بقوة.

هناك، كان أسوأ بكثير مما كان عليه في الحديقة، يبدو أن الهواء النقي يسلب الممتلكات جانبها المحترم؛ مثل من يقفز فوق سياج أو يتسلق جدارًا، ويتوقف عند باب أو نافذة غرفة نوم.

في الحديقة، كان بوكستيل مجرد نهّاب، أما في الغرفة فبوكستيل لص.

ومع ذلك، استعاد شجاعته: لم يتكبد هذه المشقة ليعود إلى منزله خاوي الوفاض.

ولكن عبثًا بحث داخل كلّ الأدراج التي فتحها وأغلقها، وحتى الدرج المميز حيث كانت الوديعة التي كانت قدرا قاتلا لكورنيليوس؛ وجد بصيلات مختلفة ومن بينها البنية والشبيهة بالبن المحروق المصنفة كما في الحديقة؛ لكن الزنبقة السوداء، أو بالأحرى فصوصها، التي ماتزال راقدة ومخبأة في عالم ما قبل الإزهار، لم يجد لها أثرًا مطلقًا.

ومع ذلك، وجد في سجل البذور والفصوص الذي يدون عليه ڤان بيرل بعناية ودقة أكبر من السجل التجاري لمؤسسات أمستردام الكبرى، قرأ بوكستيل هذه السطور:

«اليوم 20 أغسطس 1672، قمت باستخراج بصيلة الزنبقة السوداء العظيمة وفصلتها إلى ثلاثة فصوص كاملة»

صرخ بوكستيل، وهو يخرب كلّ ما يوجد في المجفف.

- هي الفصوص! هي الفصوص! أين يمكن أن يخفيهم؟

ثم فجأة ضرب جبهته حتى ارتج دماغه.

وصاح:

- سحقا! يا لي من بائس! يا لخسارتك يا بوكستيل، هل يمكن أن يتخلى المرء عن فصوصه؟ هل نتركها في دوردريخت عندما نغادر إلى لاهاي؟ هل يمكننا أن نعيش دون فصوص عندما توجد بداخلها الزنبقة السوداء العظيمة؟ السافل سيكون لديه الوقت لأخذها! لقد أخذها معه إلى

لاهاي.

لقد كان الاكتشاف صاعقة أبانت لبوكستيل جحيم جريمة غير ضرورية.

سقط بوكستيل مصدومًا فوق الطاولة نفسها، وفي المكان نفسه الذي كان يقف فيه بيرل التعس طويلاً قبل ساعات قليلة معجبًا ومنتشيًا بفصوص زنبقته السوداء.

قال الرجل الحسود وهو يرفع رأسه الغاضب:

- حسنًا! بعد كلّ شيء، إذا كانت بحوزته، يمكنه الاحتفاظ بها فقط مادام على قيد الحياة، وإذا...

أما بقية فكرته الشنيعة فقد امتصتها ابتسامته البشعة.

قال:

- توجد الفصوص في لاهاي، لذلك لن أواصل العيش في دوردريخت. يجب أن أذهب إلى لاهاي! من أجل الفصوص!

ودون أن ينتبه بوكستيل للثروة الهائلة التي سيتخلى عنها، لأنه مفتون جدًا بثروة أخرى لا تقدر بثمن، خرج بوكستيل من المنور، وترك نفسه ينزلق على السلم، وحمل وسيلة السرقة ووضعها حيث أخذها. ثم مثل حيوان مفترس، عاد مزمجرًا إلى منزله.

الفصل التاسع

زنزانة عائلية..

كانت الساعة حوالي منتصف الليل عندما سُجن ڤان بيرل المسكين في حبس بوتنهوف.

حدث ما توقعته روزا فعلًا. عندما وجد الغاضبون غرفة كورنيليوس فارغة، أصبح غضب الناس عظيمًا، ولو كان الأب غريفوس موجودًا بين أيدي هؤلاء الناس المسعورين، لدفع بالتأكيد ثمنًا باهظًا بدل سجينه.

لكن هذا الغضب وجدوا له متنفسا كبيرًا حينما أدرك القتلة الشقيقين، وبمساعدة الاحتياطات التي اتخذها غيوم، رجل الاحترازات، عندما أفلح في إغلاق أبواب المدينة.

كان قد وصل إذن في وقت كان فيه السجن قد أفرغ وأعقب الصمت الرعد الرهيب للصراخ الذي كان يملأ الأدراج.

استغلت روزا هذه اللحظة وخرجت من مخبئها وأخرجت والدها.

كان السجن فارغا تمامًا. ما فائدة البقاء في السجن بينما يذبح الأخوين في تول هيك؟

خرج غريفوس مرتجفًا خلف روزا الشجاعة. وذهبا لإغلاق الباب الرئيس باذلين جهدًا كبيرًا، نقول قدر المستطاع، لأن الباب نصفه مكسور. نرى بوضوح آثار مرور السيل العارم للغاضبين.

في حدود الساعة الرابعة صباحًا، سمع رجع الصوت، لكن بالنسبة لغريفوس وابنته لم يكن هناك ما يستدعي القلق. كان هذا الصوت هو صوت الجثتين المجرجرتين حيث عادوا لأخذهما من ساحة الإعدام المعتادة.

اختبأت روزا مرة أخرى، لكن هذه المرة لكيلا ترى المشهد الرهيب.

في منتصف الليل، سمع طرق على باب بوتنهوف، أو بالأحرى على الحاجز الذي حل محل الباب.

كان كورنيليوس ڤان بيرل قد جلب إلى السجن. عندما استقبل السجان غريفوس الضيف الجديد، ورأى من خلال رسالة تسليمه؛ مكانة هذا السجين.

همس غريفوس مبتسما ابتسامة السجان:

- ربيب كورني دو وايت، حسنًا، أيها الشاب، توجد لدينا غرفة للعائلة؛ سنقدمها لك.

مغمورا بسعادة مصدرها المزحة التي قالها للتو، أخذ الأورانج الشرس فانوسه ومفاتيحه لكي يقود كورنيليوس إلى الزنزانة التي غادرها كورني دو وايت في ذلك الصباح إلى المنفى الذي كان يدعيه، في وقت ثورة هؤلاء الأخلاقيين العظماء كبديهية للسياسة العليا:

- الموتى وحدهم من لا يرجعون.

لذلك استعد غريفوس ليقود الربيب إلى غرفة عرابه. خلال الطريق إلى هذه الغرفة، لم يسمع مزارع الأزهار اليائس شيئًا سوى نباح كلب، ولم ير سوى وجه شابة.

خرج الكلب من مَزجَره المحفور في الحائط، يهز سلسلة ثقيلة، وقام بتشمم كورنيليوس حتى يتعرف عليه عندما يُؤمر بافتراسه.

عندما استند السجين على درابزين الدرج أصدر صريرا تحت يده الثقيلة، ففتحت بوابة غرفة في سمك هذا الدرج نفسه؛ وظهرت الفتاة حاملة في يدها اليمنى فانوسًا، أضاء وجهها الوردي الساحر المحاط بشعر أشقر مثير للإعجاب ذي جدائل كثيفة، بينما من اليسار برز صدرها في ثوب النوم الأبيض، لأنها استيقظت من بداية نومها إثر وصول كورنيليوس المفاجئ.

لقد كان المشهد صورة جميلة جدًا تستحق أن ترسم من طرف المعلم رامبرانت وكذلك هذا اللولب الأسود للدرج المضاء بفانوس غريفوس الضارب إلى الحمرة مع ظل السجان المعتم؛ وفي الأعلى، وجه كورنيليوس الحزين المنحني فوق الدرابزين ناظرًا إلى أسفله، حيث وجه روزا الجميل محاطًا بهالة مضيئة، وتعلو محياها إيماءة متواضعة، وربما منزعجة قليلاً من علو موقع كورنيليوس، على هذه الدرجات حيث تداعب نظراته الغامضة والحزينة كتفي الفتاة البيضاوين والمكتنزين.

في الطابق السفلي، تمامًا داخل عتمة الظلال، في تلك البقعة على الدرج حيث الظلام يمحو التفاصيل، كانت عينا الكلب العملاق كالجمرتين وهو يهز سلسلته ذات الحلقات التي ينعكس عليها الضوء المزدوج لمصباح روزا وفانوس غريفوس بريقًا لامعًا.

ولكن ما لن يستطيع نقله المعلم الرفيع في رسوماته هو ذلك التعبير المؤلم الذي ظهر على وجه روزا عندما رأت هذا الشاب الوسيم الشاحب يتسلق السلم ببطء وكان بمقدورها أن تعيد على مسامعه الكلمات الشريرة التي قالها أبوها: «ستحصل على غرفة الأسرة».

دام هذا المشهد لفترة أقل بكثير مما استغرق وصفه. ثم واصل غريفوس طريقه، فاضطر كورنيليوس إلى اللحاق به، وبعد خمس دقائق دخل الزنزانة، ولا داعي لوصفها، لأن القارئ يعرفها سابقًا.

بعدما دلّ غريفوس السجين بإصبعه على السرير حيث عانى الشهيد معاناة حقيقية، والذي أسلم روحه إلى الرب في ذلك اليوم بالذات، التقط فانوسه وغادر.

أما كورنيليوس فبقي وحده، فألقى بنفسه فوق هذا السرير، لكنه لم ينم قط، إذ ركز نظرته بإلحاح صوب النافذة الصغيرة ذات الشباك الحديدية، التي تسلط الضوء على ما وراء الأشجار؛ بهذه الطريقة رأى أن أول شعاع من الضوء تتركه السماء يسقط على الأرض يشبه معطفًا أبيض.

هنا وهناك، خلال الليل، خبّ عدد قليل من الجياد السريعة في بوتنهوف، وقد اصطدمت خطوات الدوريات الثقيلة بالحصى الصغير للميدان، فأضيئت فتائل البنادق مع الرياح الغربية فبدت مشعة بومضات كالبرق المتقطع إلى نافذة لسجن.

ولكن عندما طلع الفجر الفضي وكسا أسقف المنازل بلونه، اقترب كورنيليوس، الذي كان حريصًا على معرفة ما إذا كان هناك أي شيء حي حوله، اقترب من النافذة وترك نظراته الحزينة تطوف في الأرجاء.

في الطرف البعيد من الساحة، ارتفعت كتلة سوداء، مخضبة باللون الأزرق الداكن الناتج عن غيوم الصباح، التي تغشى بخطوطها المتفاوتة المنازل الشاحبة.

لقد تعرف كورنيليوس على المشنقة.

على هذه المشنقة علقت قطعتان بلا شكل، ليستا أكثر من هياكل عظمية ما تزالان تنزفان.

لقد مزق أهل لاهاي الطيبون جسدي ضحيتهم، لكنهم عادوا بأمانة إلى المشنقة بحجة نقش مزدوج مرسوم على لافتة ضخمة.

على هذه اللافتة، وبعيني شاب في الثمانية والعشرين عامًا، تمكن كورنيليوس من قراءة الأسطر التالية التي رسمتها الفرشاة السميكة لرسام مبتدئ:

«هنا شنق المجرم الكبير المسمى جان دو وايت وشقيقه النذل الصغير كورني دو وايت، عدوا الشعب، لكنهما صديقا ملك فرنسا الحميمان»

أطلق كورنيليوس صرخة من شدة الرعب، وخلال تحوله من حالة الرعب إلى حالة الهذيان، صفق بقدميه ويديه على باب زنزانته، بخشونة وبتسرع لدرجة أن غريفوس جاء راكضًا في غضب، ملوحًا بمجموعة مفاتيحه الهائلة في يده.

فتح الباب، وتفوه بشتائم فظيعة في وجه السجين الذي أزعجه في وقت لم يعتد فيه على المضايقة.

صاح السجان:

- حسنًا، ولكن! هل هو مجنون، هذا الوايت الآخر! لكن هل يسكن الشيطان أجساد عائلة وايت!

قال كورنيليوس وهو يمسك ذراع السجان ويجره إلى النافذة:

- سيدي، سيدي؛ سيدي هل ما قرأته هناك صحيح؟

- أين هناك؟

أجاب السجين، مرتجفًا شاحبًا ولاهثًا، ومشيرًا إلى نهاية المربع، حيث المشنقة تعلوها الكتابة الساخرة.

- على تلك اللافتة.

ضحك غريفوس وردّ:

- حسنًا! حسنًا! نعم، هل قرأتها ... وإذن! سيدي العزيز، هذا هو المكان الذي تؤول إليه عندما يكون لديك علاقة مع أعداء السيد أمير أورانج.

تمتم كورنيليوس، وجبهته تتفصد عرقًا منهارا على سريره، بينما ذراعاه متداعيتان وعيناه مغمضتان:

- هل قُتل السيدان دو ويت!

قال غريفوس:

- السيدان دو وايت خضعا لعدالة الشعب؛ هل أنت تسميها قتلا؟ أنا أقول: إعداما.

وعندما رأى أن السجين لم يهدأ فحسب، وإنما تحطم كليًا، خرج من الزنزانة وسحب الباب بعنف وأدار الأقفال بصخب.

عندما استعاد وعيه، وجد كورنيليوس نفسه وحيدًا وتعرف على الغرفة التي يوجد فيها، غرفة

العائلة، كما أطلق عليها غريفوس، باعتبارها الممر الحتمي الذي كان سينتهي بموته الحزين.

ولأنه كان حكيمًا، ولأنه كان قبل كلّ شيء مسيحيًا، فقد بدأ بالصلاة من أجل روح عرابه، ثم من أجل روح المتقاعد الأكبر، ثم استسلم أخيرا لكل الشرور التي تريد المشيئة أن ترسلها عليه.

ثم بعد أن نزل من السماء إلى الأرض، وعاد من الأرض إلى زنزانته، وتأكد أنه كان وحيدًا في هذه الزنزانة، سحب من صدره الفصوص الثلاثة للزنبقة السوداء وأخفاها وراء حجر رمليّ توضع عليه جرة قديمة، وفي الركن الأشد عتمة من أركان السجن.

لا جدوى من سنوات الزراعة العديدة! لقد تحطمت هذه الآمال الجميلة! لذلك فإن اكتشافه سينتهي إلى العدم كما سينتهي بدوره إلى الموت! في هذا السجن، لا نبتة من العشب، ولا ذرة من الأرض، ولا شعاع من أشعة الشمس.

عقب هذه الخواطر، سقط كورنيليوس في يأس كئيب لم يخرج منه إلا في ظل ظرف استثنائي.

ما هو هذا الظرف؟

هذا ما سنرويه لكم في الفصل التالي.

الفصل العاشر

ابنة السجّان..

في المساء نفسه، عندما أحضر غريفوس الطعام الزهيد للسجين، فتح باب السجن، فانزلق على الحجر الرطب وسقط، لكن وهو يحاول تفادي ذلك وقع على يده، فكسر معصمه.

حينذاك هرع كورنيليوس نحو السجان، ولكن بما أنه لم يكن مقدرّا حجم خطورة الحادث، فقد قال لغريفوس:

- لا بأس، لا تتحرك من مكانك.

وأراد النهوض، متكئًا على ذراعه، لكن العظم انثنى؛ عندها فقط شعر غريفوس بالألم، فصرخ صرخة حادة. لقد أدرك أخيرًا أن ذراعه مكسورة، ففقد هذا الرجل، الذي كان قاسياً على الآخرين، وعيه على عتبة الباب، حيث ظل خاملاً وباردًا، مثل رجل ميت. في هذه الأثناء، كان باب السجن مفتوحًا، فوجد كورنيليوس نفسه حراً تقريبًا. لكن لم يخطر بباله أن يستفيد من هذا الحادث مطلقًا؛ كان قد رأى، طريقة ثني الذراع، من خلال الصوت الذي أحدثه هذا الانثناء، فأدرك أن ثمة كسر، وألم. لم يفكر في أي شيء آخر سوى تقديم المساعدة للرجل المصاب، على الرغم أن السجان تعامل معه منذ الوهلة الأولى بشكل سيئ.

على إثر صوت ارتطام غريفوس، والصرخة التي أطلقها، سمع خطوة مستعجلة على الدرج، وعند الظهور الذي أعقب صوت تلك الخطوة مباشرة، صرخ كورنيليوس صرخة صغيرة ردت عليها صرخة فتاة.

كانت الجميلة ذات الشعر المجعد من ردت على صرخة كورنيليوس، عندما رأت والدها ممدودًا على الأرض والسجين ينحني عليه، فاعتقدت في البداية أن غريفوس، الذي كانت تعرف وحشيته، قد سقط بعد صراع بينه وبين السجين.

أدرك كورنيليوس ما يخالج قلب الفتاة، في البرهة نفسها التي ساورتها الشكوك.

لكنها فطنت من النظرة الأولى إلى الحقيقة، وخجلت من ظنونها المريبة، رفعت عينيها الجميلتين المغرورقتين إلى الشاب وقالت:

- آسفة وشكرًا لك يا سيدي. آسفة على ما كنت أفكر فيه، وأشكرك على ما تفعله.

شعر كورنيليوس بالخجل وقال:

- إنني أقوم بواجبي كمسيحي، فقط وهو مساعدة أمثالي.

- نعم، وبإنقاذه الليلة، نسيت الإهانات التي قالها لك هذا الصباح. سيدي، هذا أكثر من الإنسانية، إنه أكثر من المسيحية.

رفع كورنيليوس عينيه نحو الفتاة الجميلة، مندهشًا لسماعها تتفوه بكلمة أكثر نبلًا وأشد رحمة.

لكن لم يكن لديه الوقت للتعبير عن دهشته، إذ استعاد غريفوس وعيه، وفتح عينيه، وعادت

إليه وحشيته المعتادة مصحوبة بالحياة وقال:

- آه! قال هذا ما يحدث، نسارع لإحضار عشاء السجين، نسرع فنسقط، ونكسر ذراعنا، ونُترك ساقطين على الأرض.

قالت روزا:

- أصمت يا أبي، أنت غير عادل مع الشاب، لأني وجدته مشغولاً بمساعدتك.

قال غريفوس مرتابًا:

- هذا؟

- هذا صحيح، يا سيدي، أنا مستعد تمامًا لمساعدتك مرة أخرى.

قال غريفوس:

- أنت؟ إذن أنت طبيب؟

قال السجين:

- هذه أول حالة أعالجها.

- وهل ستتمكن من علاج ذراعي؟

- تماما.

- حسنًا وماذا تحتاج لذلك؟

- قضيبان من الخشب وشرائط من الكتان.

قال غريفوس:

- هل تسمعين، يا روزا، السجين سيعالج ذراعي؛ نوع من الاقتصاد في المصاريف، هيا، ساعديني على النهوض، يتعذر عليّ ذلك.

أسندت روزا الرجل المصاب إلى كتفها، فقام وهو يلف ذراعه السليمة حول رقبة الفتاة الصغيرة، باذلًا جهدًا، ليقف على ساقيه، بينما قام كورنيليوس، ليفسح الطريق، ثم دحرج كرسيا بذراعيه نحوه.

جلس غريفوس على الكرسي، ثم التفت نحو ابنته.

- حسنًا! ألم تسمعي ما قاله، ابحثي عن المطلوب.

نزلت روزا إلى الطابق السفلي وعادت بعد لحظة حاملة ضلعي برميل وشريطًا كبيرًا من الكتان.

انهمك كورنيليوس ذلك الوقت في خلع سترة السجان وتشمير أكمامه.

- هل هذا ما تريده يا سيدي؟ سألت روزا.

قال كورنيليوس، وهو ينظر إلى الأشياء التي أحضرتها:

- نعم، آنستي. هذه هي. والآن ادفعي هذه الطاولة بينما سأدعم ذراع والدك.

دفعت روزا الطاولة. ووضع كورنيليوس الذراع المكسورة عليها بحيث مددها بشكل مسطح،

وبمهارة ممتازة قام بتقويم الكسر، وتركيب القضيبين وشد الأربطة.

عندما ربط كورنيليوس آخر دبوس، فقد السجان وعيه مرة أخرى.

فقال كورنيليوس:

- آنستي اذهبي وأحضري قليلًا من الخل، سنقوم بفركه على صدغيه.

عادت، ولكن بدلاً من تنفيذ المطلوب، تأكدت روزا من أن والدها كان بالفعل فاقدًا للوعي، فتقدمت نحو كورنيليوس وقالت:

- سيدي، خدمة مقابل خدمة.

سأل كورنيليوس:

- ماذا يعني ذلك يا طفلتي الجميلة؟

- هذا يعني، سيدي، أن القاضي الذي سيستجوبك غدًا قد حضر اليوم للاستفسار عن الغرفة التي وُضعت فيها؛ قيل له إنك توجد في غرفة السيد كورني دو وايت، وعلى إثر تلك الإجابة ضحك بطريقة مشؤومة مما جعلني أعتقد أن ما ينتظرك ليس حسنًا.

سأل كورنيليوس:

- لكن، ماذا يمكنهم أن يفعلوا بي؟

- انظر من هنا إلى تلك المشنقة.

قال كورنيليوس:

- لكنني لست مذنباً.

- ها هما، هناك، مشنوقان، ومشوهان، وممزقان؟

قال كورنيليوس ممتقع الوجه:

- هذا صحيح.

وأردفت روزا:

- علاوة على ذلك، يريدك الرأي العام أن تكون مذنبًا. ولكن على أية حال، سواء كنت مذنبًا أم لا، ستبدأ محاكمتك غدًا. وبعد غد سيكون مصيرك الهلاك، تسير الأمور بسرعة مع مجريات الحوادث.

- حسنًا! وماذا نستنتج من كلّ هذا يا آنستي؟

- أستنتج أنني وحدي، وأنني ضعيفة، وأن أبي فقد وعيه، وأن الكلب مكمّم، ولا شيء يمنعك من إنقاذ نفسك. أنقذ نفسك، هذا ما أستنتجه.

- ماذا تقولين؟

- أقول إنني لم أستطع للأسف! إنقاذ السيد كورني أو السيد جان دو وايت، وأريد أن أنقذك لكن كن سريعًا. ها هو تنفس أبي يعود، وفي غضون دقيقة ربما يفتح عينيه، وسيكون الأوان قد فات. هل أنت متردد؟

في الواقع، ظل كورنيليوس ساكنًا، ناظرًا إلى روزا، ولكن كما لو كان ينظر إليها دون أن يسمعها.
قالت الفتاة بعد أن نفذ صبرها.

- ألا تفهم؟

قال كورنيليوس:

- نعم، أفهم، ولكن...

- لكن؟

- أنا أرفض. ستكونين متهمة.

قالت روزا خجلة:

- لا يهم؟

أجاب كورنيليوس:

- شكرا لك ابنتي، لكنني سأبقى.

- هل ستبقى! يا إلهي! يا إلهي! ألم تفهم بعد أنك ستدان ... أنت محكوم عليك بالإعدام، وستُعدم على مقصلة، وربما ستقتل، وتمزق إلى أشلاء كما قتلوا السيد جان والسيد كورني ومزقوهما إلى أشلاء؟ باسم الرب، لا تقلق عليّ واهرب من زنزانتك. كن حذرًا، إنها تجلب الشؤم إلى عائلة دو وايت.

صاح السجان وهو يستيقظ:

- ماذا! من يتحدث عن هؤلاء الأوغاد، هؤلاء البؤساء، هؤلاء المجرمين من أسرة دو وايت؟

قال كورنيليوس بابتسامته الرقيقة:

- لا تنفعل كثيرًا أيها الرجل الطيب إن أسوأ ما في الكسور هو ارتفاع حرارة الدم.

ثم همس لروزا:

- طفلتي، أنا غير مذنب، سأنتظر قضائي بسلام وهدوء بريء.

قالت روزا:

- اصمت.

- ولماذا سأصمت؟

- يجب ألا يشك أبي في أننا تحدثنا معًا.

- أين الضرر؟

- أين السوء في ذلك؟

قالت الفتاة:

- سيمنعني من العودة إلى هنا.

- تلقى كورنيليوس هذه الثقة الساذجة بابتسامة؛ كأن قليلًا من السعادة بدأت تشرق فوق نكبته.

قال غريفوس وهو يقف ويدعم ذراعه اليمنى بذراعه اليسرى.

- حسنًا! بماذا تغمغمان كلاكما؟

أجابت روزا:

- لا شيء، يصف السيد النظام الغذائي الذي يجب عليك اتباعه.

- النظام الغذائي الذي يجب أن أتبعه! النظام الغذائي الذي يجب أن أتبعه! أنت أيضًا لديك واحد يجب أن تتبعيه، يا جميلة!

- أيهما يا أبي؟

- لا يجب أن تأتي إلى غرفة السجين، أو عندما تفعلين ذلك، يجب أن تخرجي بأسرع ما يمكن؛ لذا امش أمامي، وبسرعة!

تبادلت روزا وكورنيليوس نظرة وكأن روزا تريد أن تقول:

- ها أنت ترى جيدًا.

أما كورنيليوس فأومأ وكأنه يقول:

- فليفعل الرب ما يشاء!

الفصل الحادي عشر

وصية كورنيليوس ڤان بيرل..

لم تكن روزا مخطئة. جاء القضاة في اليوم التالي إلى بوتنهوف فاستجوبوا كورنيليوس ڤان بيرل. الى جانب ذلك، لم يكن الاستجواب طويلًا. لأنه ثبت أن كورنيليوس احتفظ في المنزل بهذه المراسلات القاتلة بين دو وايت وفرنسا.

لم ينكر ذلك.

كان الأمر المشكوك فيه فقط في نظر القضاة أن تكون هذه المراسلات قد سلمها له عرابه، كورني دو وايت بنفسه.

ولكن مع وفاة الشهيدين، لم يكن لدى كورنيليوس ڤان بيرل أي شيء آخر ليداريه، لم ينكر فقط أن كورني أودعه الوديعة، بل روى أيضًا كيف وبأي طريقة وفي ظل أي ظروف تسلم الوديعة.

جعل هذا الاعتراف الربيب متورطًا في جريمة عرابه.

كان هناك تواطؤ واضح بين كورني وكورنيليوس.

لم يقتصر كورنيليوس على هذا الاعتراف؛ لقد قال الحقيقة الكاملة بخصوص تعاطفه، وعاداته، ومألوفه. تحدث عن لا مبالاته بالسياسة وحبه للدراسة والفنون والعلوم والأزهار. وروى أنه منذ اليوم الذي قدم فيه كورني إلى دوردريخت وأوكل إليه هذه الوديعة، لم يلمس الوديعة مطلقا ولا حتى اطلع عليها.

كذبوه أيضًا لأنه من المستحيل أن يقول الحقيقة، مادامت الأوراق المغلفة بدقة توجد في خزانته بين يديه وأمام عينيه كلّ يوم.

أجاب كورنيليوس أن ذلك صحيح. لكنه يتفقد الدرج فقط للتأكد من جفاف البصيلات، وينظر إلى داخله، للتأكد فقط من أن البصيلات قد بدأت تنبت.

كما آخذوه لأنه ادعى اللامبالاة إزاء الوديعة واعتبروا أن ذلك لم يكن منطقيًا، لأن من المستحيل أن يتلقى مثل هذه الوديعة من يد عرّابه، ولا يعرف أهميتها.

أجاب: إن عرّابه كورني كان يحبه كثيرًا، وفوق كلّ شيء كان رجلاً حكيمًا جدًا لدرجة أنه لم يخبره بأي شيء عن محتوى هذه الأوراق، لأن هذه الثقة كانت ستجعل المُؤتَمن يعيش حياة مضطربة.

لكنهم ردوا عليه بأن دو وايت إذا كان قد تصرف بهذه الطريقة، فلا بد أن يرفق بالحزمة، في حالة وقوع حادث، شهادة تفيد بأن ربيبه لا علاقة له بتاتا بهذه المراسلات، أو تحسبًا لإدانته، سيكتب بعض الرسائل التي يمكن أن تبرئه.

أجاب كورنيليوس أن عرّابه بلا شك لم يكن يفكر أن وديعته ستكون مصدر خطر، بحيث كانت مخبأة في خزانة شبه مقدسة ككنز في منزل ڤان بيرل كله؛ وبالتالي اعتبر الشهادة غير ضرورية؛ وفيما يتعلق بالرسالة، فإنه يتذكر قبل لحظة من اعتقاله، وبينما كان منغمسًا في التفكير في

واحدة من أندر البصيلات، دخل خادم السيد جان دو وايت إلى مجففه وسلمه ورقة ولكن ما بقي من الذكرى شبيه برؤية عابرة. كما أن الخادم اختفى، وأما الورقة، فربما نجدها إذا بحثنا عنها.

أما بالنسبة لكريك، فمن المستحيل العثور عليه لأنه غادر هولندا.

أما بالنسبة للورقة، فمن غير المرجح أن يتم العثور عليها، ولن يتكبد أحد عناء البحث عنها.

كورنيليوس نفسه لم يلح كثيرًا على هذه النقطة، لأنه حتى ولو افترضنا العثور على هذه الورقة، فقد لا تكون لها أية علاقة له بالمراسلات التي تشكل جوهر الإدانة.

أراد القضاة أن يظهروا بأنهم يدفعون كورنيليوس للدفاع عن نفسه أفضل مما يفعل؛ لقد أبدوا ذلك الصبر الحميد الذي يدل إما على أن القاضي مهتم بالمتهم، أو ذلك المنتصر الذي تغلب على خصمه، وأصبح مهيمنا عليه، ولا يحتاج إلى اضطهاده كي يخسر.

لم يقبل كورنيليوس هذه الحماية المنافقة، وفي إجابة أخيرة قدمها بنبل شهيد وهدوء عادل:

قال: «أيها السادة، أنتم تسألونني عن أشياء لا أملك سوى أن أجيب عنها بالحقيقة الجليّة. الآن وقد دخلت الحزمة إلى منزلي بالطريقة التي قلت لكم؛ أؤكد أمام الرب أنني لا أعرف وما زلت لا أعرف محتواها. يوم اعتقالي فقط، عرفت أن هذه الوديعة كانت عبارة عن مراسلات بين المتقاعد الأكبر والماركيز دو لافوا. وأؤكد أخيرًا أنني لا أعرف كيف شاع أن هذه الحزمة كانت بحوزتي، وكيف يمكنني أن أكون مذنبًا خصوصًا وأنا أحتفظ بوديعة عرابي اللامع والتعس.

كان هذا مجمل مرافعة كورنيليوس، وعلى إثرها لجأ القضاة إلى المداولة.

لقد اعتبر القضاة أن أي ذرية من نسل الحرب الأهلية ستكون كارثية، بحيث أن بقاءها سينعش الحرب التي من مصلحة الجميع إنهاؤها.

أثبت أحدهم، وهو رجل يبدو محافظًا شديدًا، أن هذا الشاب، اللامبالي في المظهر، لا بد أن يكون غاية في الخطورة في الواقع، ولا بد أنه يخفي تحت عباءة برودة الأعصاب رغبة قوية في الانتقام لقريبيه السيدين دو وايت.

لاحظ آخر أن حب الزنابق يتحالف تمامًا مع السياسة، وأنه ثبت تاريخيًا أن العديد من الرجال الخطرين جدًا انشغلوا بالبستنة أكثر أو أقل حتى وإن لم تكن عملهم الحقيقي، على الرغم من أنهم في أعماقهم كانوا مشغولين بشيء آخر مثال على ذلك تارك وينوس الأكبر ، الذي كان يزرع الخشخاش في جابي، وكوندي العظيم ، الذي كان يسقى قرنفله في حصن فينسينز، وكان هذا يحدث في الوقت الذي كان فيه الأول يفكر في العودة إلى روما، والثاني في الخروج من السجن.

ثم خلص القضاة إلى صياغة هذه المعضلة:

إما أن السيد كورنيليوس ڤان بيرل مغرم جدًا بالزنابق، أو أنه مغرم جدًا بالسياسة؛ في كلتا الحالتين، فهو يكذب علينا. أولاً لأنه ثبت أنه منخرط في السياسة وذلك من خلال الرسائل التي وجدناها في منزله؛ وثانياً لأنه ثبت أنه يعتني بأزهار الزنبق. الفصوص هنا لإثبات ذلك. أخيرًا – وهنا مكمن الفظاعة -مادام كورنيليوس ڤان بيرل مهتم بكل من الزنابق والسياسة، فإن المتهم ذو طبيعة هجينة، وينتمي إلى تنظيم مزدوج الطبيعة، يعمل بحماسة متساوية على السياسة والزنابق، وهذا من شأنه أن يمنحه جميع خصائص الرجال الأكثر خطورة على المجتمع، ونوعًا

من التشابه أو المماثلة الكاملة بالعقول العظيمة لكل من تاركوينوس الأكبر وكوندي العظيم اللذين ذكرناهما آنفا.

كانت نتيجة كلّ هذه الحجج أن السيد أمير هولندا الستاتهاودر سيكون بلا شك ممتنًا أيما امتنان لقضاة لاهاي، لتسهيل حكمه للمقاطعات السبع من خلال تدمير أدنى بذور التآمر ضد سلطته.

تفوقت هذه الحجة على جميع الحجج الأخرى، ولتدمير جرثومة المؤامرات بشكل فعال، أعلنوا عقوبة الإعدام بالإجماع ضد السيد كورنيليوس ڤان بيرل، المذنب والمقتنع بأنه تحت المظهر البريء لمحب الزنابق، شارك في المؤامرات البغيضة والدسائس الشنيعة التي سعى إليها الأخوان دو وايت ضد الوطن الهولندي من خلال علاقاتهم السرية مع العدو الفرنسي.

كان منطوق الحكم أن كورنيليوس ڤان بيرل سيُخرج من سجن بوتنهوف ليُنقل إلى المقصلة التي أقيمت في الساحة التي تحمل الاسم نفسه، حيث سيقطع رأسه.

وبما أن هذه المداولة كانت جادة، فقد استمرت نصف ساعة، وخلال تلك نصف الساعة أعيد السجين إلى سجنه.

وهناك جاء كاتب المحكمة ليتلو عليه الحكم.

أما السيد غريفوس فقد ألزمته الحمى فراشه، تلك الحمى التي كان سببها كسر ذراعه، فتسلم مفاتيحه عامل مؤقت، وجاءت روزا الجميلة تهرول خلف العامل، الذي كان يمشي وراء كاتب المحكمة، وقفت روزا الجميلة في زاوية الباب، وهي تضع منديلًا فوق فمها لتخنق تنهداتها وعبراتها.

سمع كورنيليوس منطوق الحكم باندهاش عارم وبحزن يسير.

سأله الكاتب إن كان لديه أي شيء ليقوله.

فأجاب كورنيليوس:

- في الواقع، لا. إني أعترف أنه من بين جميع أسباب الموت التي يمكن لرجل محاذر أن يتنبأ بها لكي يتفاداها، لم تساورني الظنون أبدًا، أن يكون هذا هو سبب موتي.

وعقب هذا الجواب ودع كاتب المحكمة كورنيليوس ڤان بيرل بكل الاحترام الذي يوليه هذا النوع من المسؤولين للمجرمين الخطرين بكل أصنافهم. وبينما كان على وَشْك الانصراف قال كورنيليوس:

- بالمناسبة، يا سيد كاتب المحكمة، من فضلك ما هو يوم التنفيذ؟

أجاب الكاتب، محرجًا قليلًا من هدوء المدان:

- اليوم.

ارتفع صوت بكاء خلف الباب. انحنى كورنيليوس إلى الأمام ليرى من ينتحب، لكن روزا خمنت حركته، فتوارت إلى الوراء.

وأضاف كورنيليوس:

- ما وقت الإعدام؟

- ظهرًا، يا سيدي.

قال كورنيليوس:

- تبا! سمعت دقات الساعة العاشرة منذ عشرين دقيقة على الأقل. لا وقت لأضيعه.

قال كاتب المحكمة وهو ينحني كثيرًا محييًّا:

- لكي تغفر لك السماء، نعم يا سيدي، ويمكنك أن تطلب أي كاهن.

قال هذه الكلمات، وخرج متراجعًا إلى الوراء، كان السجان البديل على وشك أن يتبعه، وليغلق باب كورنيليوس حينما جاءت ذراع بيضاء مرتعشة لتحول بين الرجل والباب الثقيل.

لم يلمح كورنيليوس سوى الشعر الذهبي ذي أذنيْ الدانتيل الأبيض، وتسريحة شعر الجميلة ذات الجدائل المجعدة؛ وسمع همسًا في أذن الموظف. لكن هذا الأخير أعاد مفاتيحه الثقيلة إلى اليد البيضاء الممدودة إليه، ونزل بضع درجات، وجلس في منتصف الدرج، وبذلك صار يحرس السجين من الطابق العلوي، بينما الكلب يحرس في الأسفل.

استدار إكليل الشعر الذهبي فتعرف كورنيليوس على الوجه المنتحب وعيني روزا الزرقاوين الواسعتين والجميلتين.

دنت الفتاة من كورنيليوس ضامة يديها إلى صدرها المحطم وقالت:

-وا حسرتاه! يا سيدي!

لكن العبرات خنقتها.

أجاب كورنيليوس متأثرًا:

- ابنتي الجميلة، ماذا تريدين مني؟ أنبهك، أنا الآن ليس لدي الكثير من الطاقة لفعل أي شيء، أحذرك.

قالت روزا وهي رافعة يديها إلى كورنيليوس وفي ذات الوقت إلى السماء:

- سيدي، جئت أطلب منك معروفًا.

قال السجين:

- لا تبكي بهذه الطريقة يا روزا، لأن دموعك تكسرني أكثر من موتي الوشيك. وكما تعلمين، فكلما كان السجين بريئًا، وجب أن يموت بهدوء أكبر وفرح أكثر، لأنه سيموت شهيدًا. تعالي، لا تبكي بعد الآن وأخبريني برغبتك يا روزا الجميلة. انزلقت الفتاة الصغيرة جلست على ركبتيها.

وقالت:

- سامح أبي.

قال كورنيليوس مندهشًا:

- أسامح أباك!

- نعم، كان قاسيًا جدًا معك! ولكنه هكذا بطبيعته، فهو يقسو على الجميع، ولم تكن أنت بالتحديد من تعرض للقسوة فحسب.

- لقد عوقب يا عزيزتي روزا أكثر من أي عقاب بالحادث الذي وقع له وأنا أسامحه.

قالت روزا:

- شكرا لك! والآن قل لي، هل يمكنني بدوري أن أفعل شيئًا من أجلك؟

- يمكنك تجفيف عينيك الجميلتين، طفلتي العزيزة، أجاب كورنيليوس بابتسامته اللطيفة.

- لكن من أجلك ... من أجلك فقط ...

- من كانت لديه ساعة فقط ليعيشها فهو مترف عظيم، إذا كان بحاجة إلى أي شيء، عزيزتي روزا.

- هل تريد الكاهن الذي عرض عليك ...؟

- لقد عبدت الرب طوال حياتي يا روزا، لقد عبدته في أعماله وحمدته في إرادته. لست مذنبا أبدا ولا مخطئا. لذا لن أطلب الكاهن. آخر فكرة تشغلني، يا روزا، تتعلق بتمجيد الرب. وأرجو أن تساعديني يا عزيزتي في تحقيق هذه الفكرة الأخيرة.

هتفت الفتاة دامعة.

- آه! سيدي كورنيليوس، تكلم، تكلم!

- أعطني يدك الجميلة، وعديني ألا تضحكي يا طفلتي.

صاحت روزا يائسة:

- أضحك! أضحك الآن! وكأنك غير مطلع على حالتي، يا سيد كورنيليوس؟

- نظرت إليك يا روزا بعينيّ الجسد وعيني الروح. لم تتح لي أبدًا فرصة رؤية امرأة أجمل منك، ولا روحًا أنقى منك؛ وإذا كنت لن أنظر إليك من الآن فصاعدًا، فسامحيني، لأنني سأغادر هذه الحياة، كنت أفضل ألاّ يكون لدي أي شيء أندم عليه.

ارتجفت روزا. وعقب قول السجين هذه الكلمات، رنت الساعة الحادية عشرة في برج بيتينهوف، فانتبه كورنيليوس وقال:

- نعم، نعم، دعينا نسرع، أنت محقة، يا روزا.

عندئذ سحبها من صدره، حيث أخفاها مرة أخرى بعدما لم يعد خائفًا من التفتيش، وأخرج الورقة التي كانت تغلف الفصوص الثلاثة وقال:

- صديقتي الجميلة، لقد أحببت الأزهار كثيرًا. حدث هذا في الوقت الذي لم أكن أعرف فيه أن بإمكاننا أن نحب شيئًا آخر. حسنًا! لا تخجلي، لا تتبرمي يا روزا، حتى لو أعلنت لك حبك. فهذا يا طفلتي المسكينة لن تكون له عواقب؛ لأن هناك فولاذ في بوتنهوف سيقضي بعد ستين دقيقة على جرأتي. إني أحب الأزهار، يا روزا، وأظن أنني وجدت سر الزنبقة السوداء العظيم الذي يُعتقد أنه اكتشاف مستحيل، وسواء كنت تعرفين أم لا، فهو موضوع جائزة بمئة ألف غيلدر ستقدمها هيئة هارلم للبستنة. هذه المئات من الغيلدر -والله يعلم أنني لست نادمًا -هذه مئات الآلاف من الغيلدر التي أضعها في هذه الورقة؛ ستظفر بها هذه الفصوص الثلاثة، ويمكنك أن تأخذيها يا روزا، لأنني أهبها لك.

- سيدي كورنيليوس!

- حسنًا! يمكنك أن تأخذيهم يا روزا، لن تلحقي الضرر بأي أحد يا طفلتي. أنا وحيد في العالم. أبي وأمي ماتا. وليس لدي أخت أو أخ. لم أفكر أبدًا في حب أي شخص حبًا حقيقيًا، وإذا كان أحد قد فكر أن يحبني، فأنا لم أعرف أبدًا. يمكنك أن ترى جيدًا يا روزا -أنني وحيد، لأنك في هذه الساعة وحدك في زنزانتي، وتواسيني وتساعديني.

- لكن يا سيدي، مئة ألف غيلدر ...

قال كورنيليوس:

- حسنًا! دعينا نكون جادين، أيها الطفلة العزيزة. مئة ألف غيلدر ستكون مهرًا جميلا يليق بجمالك؛ ستحصلين على مئة ألف غيلدر، لأني متأكد من فصوصي. لذلك ستحصلين عليها يا عزيزتي روزا، وأنا أطلب مقابل ذلك وعدا بالزواج من فتى شجاع، شاب، ستحبينه، ويحبك بقدر ما أحببتُ الأزهار. لا تقاطعيني يا روزا، لم يتبق لي سوى بضع دقائق ...

كانت الفتاة المسكينة تكاد تختنق تحت وطأة البكاء.

أمسك كورنيليوس يدها وأردف:

- اسمعيني جيدًا. هذا ما ستقومين به. سوف تأخذين التربة من حديقتي في دوردريخت. اسألي عن بستاني الخاص بوترويشيم تربة من مشتلي رقم 6؛ ثم ستزرعين هذه الفصوص الثلاثة هناك في صندوق عميق، وسوف تزهر في مايو المقبل، أي بعد سبعة أشهر، وعندما ترين الزهرة قد نبتت فوق ساقها، اقض الليالي في حمايتها من الرياح، والنهارات لحفظها من الشمس. أنا متأكد من أنها ستزهر باللون الأسود. بعد ذلك أخبري رئيس هيئة هارلم، الذي سيتأكد بواسطة الهيئة من لون الزهرة الأسود، وحينها ستحصلين على مئة ألف غيلدر.

تنهدت روزا بعمق.

وأردف كورنيليوس وهو يمسح دمعة مرتجفة من حافة جفنه متأثرًا لأنه لن يرى زنبقته السوداء الرائعة في هذه الحياة التي هو على وشك مغادرتها:

- الآن، لم أعد أرغب في أي شيء سوى أن تسمى الزنبقة باسم روزا بيرلنسيس، لتذكرنا في الوقت نفسه باسمك واسمي، ولأنك لا تعرفين اللاتينية، وحتى لا تنسي هذه الكلمة، حاولي أن تحضري لي قلم رصاص وورقة، لأكتبها لك.

انفجرت روزا بالبكاء وأخذت كتابًا ذا غلاف مقوى، يحمل الأحرف الأولى ك – و.

سأل السجين:

- ما هذا؟

أجابت روزا:

- وا حسرتاه! إنه إنجيل عرابك المسكين كورنيليوس دو وايت. استمدَّ منه القوة ليتحملَ التعذيب ويسمع إدانته دون أن يضعف. وجدته في هذه الغرفة بعد وفاة الشهيد واحتفظت به كذكرى. اليوم أحضرته إليك، لأني أعتقد أن هذا الكتاب يحتوي على قوة إلهية. أنت لست بحاجة لهذه القوة لأن الرب وضعها فيك. الحمد لله! اكتب عليه ما يجب أن تكتبه يا سيد

كورنيليوس، ورغم سوء حظي، لأني لا أعرف القراءة، فإن ما تكتبه سوف يتحقق.

أخذ كورنيليوس الكتاب المقدس وقبله باحترام.

سأل:

- بماذا سأكتب؟

قالت روزا:

- ثمة قلم رصاص داخل الكتاب المقدس. كان هناك، احتفظت به. كان قلم الرصاص الذي أقرضه جان دو وايت لأخيه ولم يفكر في استعادته.

تناوله كورنيليوس، وعلى الصفحة الثانية – يجب أن نتذكر أن الصفحة الأولى كانت ممزقة– كتب وهو على وشك الموت بدوره مثل عرابه بيد ثابتة:

«في 23 أغسطس 1672، وأنا على وشك أن أسلم روحي إلى ربها تحت المقصلة، رغم أنها بريئة، أورث روزا غريفوس المُلك الوحيد الذي بقي لي من كلّ أملاكي في هذا العالم، لأن الباقي قد تمت مصادرته؛ أقول أني أهب روزا غريفوس ثلاثة فصوص من الزنبق، وفي اعتقادي العميق، أنها سوف تعطي في شهر مايو المقبل الزنبقة السوداء العظيمة، موضوع جائزة المئة ألف غيلدر التي اقترحتها هيئة هارلم، متمنيًا أن تتسلم هذا المال عوضاً عني بصفتها وريثتي الوحيدة، مع شرط وحيد أن تتزوج من شاب يكون في مثل سني تقريبًا، يحبها وتحبه، وأن يعطيا للزنبقة السوداء العظيمة التي ستخلق أملاً جديداً اسم روزا بيرلنسيس الجامع بين اسمها واسمي.

وليمنحني الرب رحمته وليمنحها العافية الجيدة!

«كورنيليوس ڤان بيرل»

ثم سلم الكتاب المقدس لروزا وقال لها:

- اقرئي.

ردت الفتاة:

- وا حسرتاه! لقد أخبرتك سابقًا، أني لا أعرف القراءة.

ثم قرأ كورنيليوس لروزا الوصية التي كتبها للتو، فشرعت الصبية المسكينة تشهق بصوت عال.

سألها السجين مبتسمًا ابتسامة حزينة وهو يقبل أطراف أصابعها الجميلة المرتجفة:

- هل تقبلين شروطي؟

ردت متلعثمة:

- حسنًا! لا أدري يا سيدي.

- ولماذا إذن لا تدرين يا طفلتي؟

- لأن ثمة شرط من تلك الشروط لا أستطيع الوفاء به.

- أيهم؟ أعتقد، مع ذلك، أنني قدمت تسوية من خلال اتفاقنا.

- هل ستعطيني مئة ألف غيلدر كمهر؟

- نعم.

- مقابل الزواج من رجل أحبه؟

- دون شك.

- حسنًا! يا سيدي، هذا المال لا يمكن أن يكون لي. لن أحب أحدًا أبدًا ولن أتزوج أبدًا. وبعد أن قالت هذه الكلمات بتأثر مؤلم، جثت روزا على ركبتيها وكادت تفقد وعيها من فرط ألمها.

ذعر كورنيليوس من رؤيتها شاحبة جدًا ومُحتضرة، وكاد يضمها إلى صدره، عندما سمع صدى خطوات ثقيلة، أعقبتها أصوات أخرى مبهمة، قادمة من الدرج مصحوبة بنباح الكلب.

صاحت روزا وهي تعقد يديها:

- إنهم قادمون ليأخذوك! يا إلهي! يا إلهي! سيدي، هل مازال لديك أي شيء تريد أن تخبرني به؟

وسقطت على ركبتيها، دافنة رأسها بين ذراعيها، تغص بنشيج حار:

- ما أوصيك به هو أن تخبئي فصوصك الثلاثة بعناية والاعتناء بها وفقًا للإرشادات التي أخبرتك بها، ومن أجل حبك لي. وداعًا يا روزا.

قالت دون أن ترفع رأسها:

- آه! أجل! آه! نعم، ما قلته سأفعله.

وأضافت بهدوء:

- ما عدا الزواج، لأن ذلك وا حسرتاه! أقسم لك هذا بالنسبة لي أمر مستحيل.

ودفنت في حضنها كنز كورنيليوس الغالي.

كانت هذه الضوضاء التي سمعها كورنيليوس وروزا من صنع كاتب المحكمة الذي عاد لجلب المحكوم عليه، يتبعه المنفذ، والجنود المكلفين بحراسة المقصلة من الفضوليين المعتادين على حضور هذه الإعدامات.

استقبل كورنيليوس هؤلاء الرجال، دون ضعف ولا تبجح، بل كأصدقاء. وسمح لهم بفرض الشروط، التي تفرضها مهمتهم. بعد ذلك، ألقى نظرة من خلال نافذته الصغيرة، فرأى المقصلة، وعلى مسافة عشرين خطوة من المقصلة، توجد المشنقة، التي تم فصلها من الأسفل، بأمر من الستاتهاودر، عن الآثار المهينة للشقيقين دو وايت. ولما كان من الضروري أن ينزل ليتبعه الحراس، فقد بحث كورنيليوس عن نظرة روزا الملائكية، لكنه لم ير شيئًا وراء السيوف والرماح سوى جسد ممدد بالقرب من المقعد الخشبي، كان وجهها شاحبًا ومحجوبًا بشعر طويل.

ولكن، بعد أن سقطت روزا منهارة، وحتى تعبر عن طاعتها لصديقها، وضعت يدها على مشدها المخملي، وحتى في خضم غياب كلي عن الحياة، استمرت غريزيًا في الشدّ على الوديعة الثمينة التي استأمنها عليها كورنيليوس. وعند مغادرته الزنزانة، أمكن للشاب أن يلمح أصابع روزا المشدودة على الورقة المصفرّة من الكتاب المقدس والتي كتب عليها كورنيليوس دو وايت أسطرًا قليلة بمشقة وألم شديدين والتي كان من الممكن أن تنقذ حياته وزنابقة، لو تأتى لكورنيليوس قراءة محتواها.

الفصل الثاني عشر

الإعدام..

لم يكن أمام كورنيليوس سوى ثلاثمئة خطوة ليقطعها خارج السجن ليصل إلى قدم المقصلة. في أسفل الدرج راقبه الكلب وهو يمر بهدوء؛ حتى أن كورنيليوس اعتقد أنه لاحظ في عيني كلب المولوسويد نوعًا من الوداعة تقترب من الشفقة. ربما الكلب يعرف المحكوم عليهم ويقتصر عضه على من سيخرجون أحرارًا. ندرك أنه كلما كانت المسافة أقصر من باب السجن إلى المقصلة، كانت الطريق مكتظة بالناس الفضوليين.

لقد كان هؤلاء الأشخاص هم أنفسهم الفضوليون الذي لم يرتووا كفاية من الدماء التي شربوها منذ ثلاثة أيام، وها هم ينتظرون ضحية جديدة.

لذلك، ما كاد يظهر كورنيليوس حتى علا صياح هائل امتد إلى الشارع، وعم الساحة كلّها، وانتشر في اتجاهات مختلفة نحو الأزقة التي تنتهي عند المقصلة حيث كانت الحشود تتزاحم.

لهذا بدت المقصلة وكأنها جزيرة يداهمها طوفان أربعة أو خمسة أنهار.

في خضم هذه التهديدات، والصراخ والصيحات انغمس كورنيليوس بلا شك في أعماقه كي لا يسمعها.

بماذا يفكر هذا المنساق إلى الموت؟

لم يكن يفكر لا بأعدائه ولا قضاته ولا جلاديه.

كان يفكر بأزهار الزنبق الجميلة التي كان ينظر إليها من الأعلى، سواء في سيلان، أو في البنغال أو في أي مكان آخر، بينما كان جالسًا بين الأبرياء كلّهم على يمين الربّ ومن هناك يمكنه أن ينظر بشفقة إلى هذه الأرض حيث ذُبح السيدان جان وكورنيْ. لكونهما بالغا في الاهتمام بالسياسة، وحيث سيذبح السيد كورنيليوس ڤان بيرل لأنه بالغ أيضًا بالتفكير في الزنابق.

كما قال الفيلسوف: المسألة لا تعدو أن تكون ضربة سيف، ثم يبدأ حلمي الجميل.

بقي أن نرى ما إذا كان الجلاد، كما هو الحال مع السيد دو شاليه، وكما هو الحال مع دو تو وغيرهما من الأشخاص الذين قتلوا بطريقة سيئة، فالجلاد لا يضرب إلا مرة واحدة، أي أن عاشق الزنبق المسكين، لن يكون شهيدًا فحسب. ومع ذلك ارتقى ڤان بيرل المقصلة بكبرياء، أليس هو صديق ذلك اللامع جان وربيب ذلك النبيل كورنيْ اللذين تكالب عليهما الأوغاد ليروهما ممزقين ومحترقين قبل ثلاثة أيام.

ركع، ولاحظ بفرح كبير أنه عندما سيضع رأسه فوق النطع مبقيا عينيه مفتوحتين، سيرى نافذة سجن بوتنهوف ذات القضبان الحديدية حتى آخر لحظة من حياته.

أخيرًا، حان وقت القيام بهذه الحركة الرهيبة: وضع كورنيليوس ذقنه على الكتلة الرطبة والباردة. لكن في تلك اللحظة، ورغما عنه، أغلق عينيه ليتحمل سطوة الانهيار الجليدي الرهيب الذي سيسقط على رأسه ويبتلع حياته.

انعكس وميض بارق على أرضية المقصلة: كان الجلاد قد رفع سيفه.

قال فان بيرل وداعًا للزنبقة السوداء العظيمة، ومن المؤكد أنه سيستيقظ ويقول صباح الخير يا ربي في عالم مصنوع من نور آخر ولون آخر.

شعر ثلاث مرات بهزيز السيف البارد يمر فوق رقبته المرتعشة

لكنه أصيب بالذهول لأنه لم يشعر بأي ألم ولا بأية رجفة. ولم يلمح أي تغيير في الألوان. ثم فجأة ودون أن يعرف ڤان بيرل بواسطة من، شعر أن أيادي لطيفة تحمله، فوجد نفسه واقفاً على قدميه مترنحًا. وفتح عينيه مرة أخرى.

كان بجانبه شخص يتلو شيئًا على ورقة كبيرة من البرشمان مختومة بطابع كبير من الشمع الأحمر.

ورأى الشمس الصفراء الشاحبة التي تلائم شمسًا هولندية، تشرق في السماء؛ كما كانت النافذة ذات القضبان نفسها ترمقه من الجزء العلوي لسجن البوتنهوف، وكان الأوغاد أنفسهم، الذين لم يعودوا يعوون كعادتهم وإنما أصبحوا مذهولين، يراقبونه من أسفل الساحة.

ولفرط التحديق والنظر والاستماع، بدأ ڤان بيرل يدرك ما يلي:

أن مضمون الورقة يفيد أن مولاي غيوم، أمير أورانج، خشي بلا شك من أن السبعة عشر رطلاً من الدم التي يحتويها جسد ڤان بيرل، وبضعة أوقيات من الدم المتبقية في جسده، قد تجعل كأس العدالة السماوية يطفح مضطربًا، ولهذا أشفق على شخصيته، ومظهره البريء.

ونتيجة لذلك، منحه سموه نعمة الحياة.

لهذا السبب ارتفع السيف بوميضه المشؤوم، ورفرف حول رأسه ثلاث مرات مثل طائر الجنازة المنحوس الذي كان يحوم حول جثة تورنوس، لكنه لم يسقط رأسه وترك الفقرات سليمة. لهذا السبب لم يكن هناك ألم أو رجفة.

لهذا ما تزال الشمس تضحك في وسط السماء الزرقاء، هذا صحيح، لكن يمكن تحملها من الأقبية السماوية.

شعر كورنيليوس، الذي كان رجاؤه في الرب ومناظر الزنابق في العالم بخيبة أمل، لكنه واسى نفسه حينما حرك رقبته، موضع الينابيع الذكية، ذلك الجزء من الجسم الذي أطلق عليه الإغريق تراكيلوس، ونسميه نحن الفرنسيون بتواضع العنق.

ثم إن كورنيليوس كان يأمل أن تكون النعمة كاملة، بأن يستعيد حريته، ويعود إلى أحواض الأزهار في دوردريخت. لكن كورنيليوس كان واهمًا كما قيل للسيدة دو سيفيني؛ كان هناك ملحق للرسالة، أهم هذه الرسالة، كان مكتوبًا في حاشيتها.

تضمنت الحاشية أمرًا من غيوم ستاتودير هولندا، يقضي بأن يقضي كورنيليوس ڤان بيرل عقوبة السجن مدى الحياة.

كان ذنبه لا يستحق الموت، وإنما حرمانه من الحرية.

سمع كورنيليوس، إذن، مظان الحاشية، ثم بعد ذلك شعر بنوع من الانزعاج نتيجة خيبة أمله مما ورد في الحاشية، فقال في نفسه:

- حسنًا! لم أفقد كلّ شيء. فللسجن المؤبد فوائد. توجد روزا في المؤبد. توجد أيضًا ثلاثة

فصوص من الزنبق الأسود.

لكن كورنيليوس نسي أن المقاطعات السبع يمكن أن تمتلك سبعة سجون. في كلّ مقاطعة يوجد سجن وأن خبز السجين أقل تكلفة في مكان آخر غير لاهاي، لأنها العاصمة.

يبدو أن صاحب السمو غيوم، ليس لديه المال لإطعام ڤان بيرل في لاهاي، فأرسله لقضاء مؤبده في قلعة لويفيستين ، القريبة جدًا من دوردريخت، وا حسرتاه! ولكنه سيكون بعيدًا جدًا عنها.

لأن لويفيستين، كما يقول الجغرافيون، تقع في طرف الجزيرة التي تشكل، مقابل جوركوم، والفال والموز.

كان ڤان بيرل يعرف ما يكفي عن تاريخ بلاده حتى أنه يعرف أنّ غروتيوس الشهير قد حبس في هذه القلعة بعد وفاة بارنيفيلت، وأن المقاطعات، لفرط كرمها تجاه الكاتب السياسي والمستشار القانوني والمؤرخ والشاعر واللاهوتي الشهير، كانت قد منحته أربعة وعشرين فلسًا هولنديا من أجل طعامه اليومي.

قال ڤان بيرل لنفسه:

- أما أنا الأقل قيمة من غروتيوس، سوف يعطونني بصعوبة كبيرة اثني عشر فلسًا، وسأعيش حياة شاقة جدًا، لكنني في النهاية سأعيش، ثم فجأة صفعته ذكرى رهيبة، فصرخ كورنيليوس:

- سحقا! ولكن ما هي درجة رطوبة الغيوم والتربة! وما مقدار سوئها لأزهار الزنبق! ثم روزا، روزا لن تكون في لويفيستين همس مستسلمًا ومطأطئًا رأسه، هذا الرأس الذي فاته أن يسقط على الأرض بصفة نهائية.

الفصل الثالث عشر

ما الذي كان يدور في خلد المتفرج..

بينما كان كورنيليوس يفكر بهذه الطريقة، اقتربت عربة من المقصلة.

كانت هذه العربة مخصصة لنقل السجناء.

دُعي للصعود، فأذعن.

كانت نظرته الأخيرة إلى البوتنهوف. كان يأمل أن يرى وجه روزا المواسي يطل من النافذة، لكن العربة المزودة بخيول جيدة، سرعان ما حملت ڤان بيرل من حضن هتافات الجمهور التي تصرخ تكريما لمروءة الستاتهاودر الشهم ولكنها مبطنة بمزيج من الاستهجان لعائلة دو وايت وربيبهم الناجي من الموت.

وكأن المتفرجين يقولون:

- من حسن الحظ أننا استعجلنا تطبيق العدالة في حق هذا المجرم الكبير المدعو جان، وهذا الوغد الصغير المدعو كورني، وإلا لسلبهما منا عفو سموه، كما أفلت منا هذا الصغير!

كان هناك بين المتفرجين الذين جذبهم إعدام ڤان بيرل إلى بوتنهوف، والذين خيبت أملهم إلى حد ما الطريقة التي جرت بها الأمور، بورجوازي كان أكثرهم خيبة أمل، كان يرتدي ملابس أنيقة ويبدو متوترًا ومتأهبًا. لم يستطع إبعاده عن المقصلة إلا صف من الجنود الذين أحاطوا بأداة التعذيب.

عبر الكثيرون عن لهفتهم لرؤية الدم المغدور للمتهم كورنيليوس وهو يراق؛ فجاؤوا عند الفجر إلى بوتنهوف لتأمين مكان أفضل، لكن لم يعبّر أي أحد عن هذه الرغبة الغادرة أكثر مما عبر عنه هذا البرجوازي المذكور، إذ كان أكثرهم غضبًا، بحيث قضى الليلة برمتها جالسًا على عتبة السجن، ومنه سارع إلى طريقه ليأخذ الصف الأول، كما قلنا، unguibus et rostro، يهدهد البعض ويضرب البعض الآخر.

وعندما أحضر الجلاد رجله المدان إلى المقصلة، صعد البورجوازي، على عمود النافورة ليرى بشكل أفضل ويُرى بشكل أحسن، وقام بإيماءة إلى الجلاد تشير إلى:

- اتفقنا، أليس كذلك؟

رد الجلاد عليها بإيماءة أخرى تعني:

- لا تقلق.

من كان هذا البورجوازي الذي يعرف الجلاد جيدًا، وماذا يعني هذا التبادل للإيماءات؟ لا يمكن لهذا الشيء أن يكون إلا طبيعيا؛ فقد كان هذا البورجوازي السيد إسحاق بوكستيل، الذي سعى منذ اعتقال كورنيليوس، كما رأينا، للقدوم إلى لاهاي في محاولة منه للاستيلاء على الفصوص الثلاثة للزنبقة السوداء.

حاول بوكستيل في البداية أن يشرك غريفوس بمخططه، لكن هذا الأخير لا يثق إلا في كلبه، ولا

يعترف إلا بولائه، ونتيجة لذلك شعر بكراهية تجاه بوكستيل، معتقدًا أنه صديق للسجين جاء يبحث عن وسيلة لتسهيل هروبه. لكن المقترحات الأولى التي قدمها بوكستيل إلى غريفوس، تتمثل في سرقة الفصوص التي بلا شك يخفيها كورنيليوس ڤان بيرل، إن لم يكن في صدره، فعلى الأقل في إحدى أركان زنزانته، كان ردّ غريفوس مداعبات لكلبه الواقف على الدرج، وهي تعني الطرد وإلا سيتكلف الكلب بذلك.

لم يثبط عزم بوكستيل حتى وإن كان الجزء السفلي من سرواله الداخلي سيبقى بين أسنان كلب المولوس. عاد إلى تنفيذ المهمة. ولكن هذه المرة كان غريفوس طريح الفراش، ذراعه محمومة ومكسورة. لذلك لم يقبل العرض، فلجأ إلى روزا، قدم للفتاة، مقابل الفصوص الثلاثة، مشبك شعر من الذهب الخالص. من أجل ذلك، فإن الفتاة النبيلة، على الرغم من جهلها بقيمة السرقة التي تعرض عليها، فقد أرسلته إلى الجلاد خائب الوفاض.

أثارت هذه الخيبة فكرة في ذهن بوكستيل.

في غضون ذلك، كان الحكم العاجل قد صدر، كما رأينا ذلك. لم يكن لدى إسحاق وقت لتقديم رشوة لأي شخص. وبالتالي تراجع عند الفكرة التي اقترحها على روزا؛ وانصرف للبحث عن الجلاد.

لم يشك إسحاق في أن كورنيليوس سيموت وزنابقه مخبأة بجوار قلبه.

في الواقع، لم يكن بإمكان بوكستيل تخمين شيئين:

روزا التي تعني الحب. وغيوم الذي يعني الرأفة.

في كلّ الأحوال كورنيليوس سيموت وزنابقه معه. كانت حسابات الحسود صحيحة.

لذلك ذهب السيد بوكستيل للتفاهم مع الجلاد، وقدم نفسه لهذا الرجل كصديق عظيم للرجل المحكوم عليه، وبالإضافة إلى المجوهرات الذهبية والفضية التي تركها للمنفذ، فقد اشترى ثياب الرجل الذي يوشك أن يعدم، بمبلغ باهظ؛ حوالي مئة غيلدر.

ولكن ما قيمة مبلغ مئة غيلدر في نظر رجل متأكد تقريبًا من أنه سيشتري بهذا المبلغ جائزة هيئة هارلم؟

كان هذا المبلغ النقدي زهيدًا مقابل الجائزة، كما يعتبر استثمارًا رائعًا.

بالنسبة للجلاد لم يكن أمامه الكثير ليفعله أو لا شيء ليفعله، كي يكسب مئة غيلدر. كان يتعين عليه فقط، بعد إعدام السجين، السماح للسيد بوكستيل بالصعود إلى المقصلة برفقة خدمه لجمع رفات صديقه الميت.

كان هذا العرف عادياً ومعمول به بين المخلصين إذا عُدم أحد أسيادهم أمام العموم في ساحة بوتنهوف.

ومادام هناك متعصب مثل كورنيليوس فإن هناك متعصب آخر تبرع بمئة غيلدر من أجل ثياب القتيل.

لهذا وافق الجلاد على الاقتراح. لكنه وضع شرطًا واحدًا فقط، وهو أن يدفع له مقدمًا.

لأن بوكستيل قد يكون مثل الأشخاص الذين يدخلون أرض المعارض، فقد لا يعجبه العرض

وبالتالي سيرفض الدفع عند المغادرة.

دفع بوكستيل مسبقًا، وقبع منتظرًا.

لا يمكن الحكم بعد ذلك ما إذا كان بوكستيل متأثرًا، سواء كان يراقب الحراس، أم كاتب المحكمة، أم المنفذ، ولكن تحركات ڤان بيرل كانت تقلقه. كيف سيوضع رأسه على النطع؟ كيف سيسقط؟ هل سيسحق سقوطه الفصوص النفيسة؟ هل حرص، على الأقل، على وضعها في صندوق ذهبي، على سبيل المثال، الذهب هو أصلب المعادن على الإطلاق؟

لن نستطيع وصف ملامح التأثير الذي بدا على هذا الإنسان الفاني عقب إيقاف تنفيذ العقوبة وهو يتساءل لماذا كان الجلاد يماطل في رفع سيفه فوق رأس كورنيليوس بدلاً من أن يسقط رأسه أرضًا. ولكن عندما رأى كاتب المحكمة يمسك يد الرجل المدان، ويرفعه بينما كان يستل ورقة برشمان من جيبه، وعندما سمع القراءة العلنية للعفو الممنوح من طرف الستاتهاودر، لم يعد بوكستيل إنسانًا، بل كتلة من غضب النمر والضبع والأفعى يتطاير شرره من عينيه، ويتجسد في صراخه، وحركاته؛ لو كان على مقربة من ڤان بيرل، لانقض عليه وقتله.

هكذا سيحيا كورنيليوس، ويذهب إلى لويفستين. هناك، في سجنه الجديد، سيحمل معه فصوصه، وربما تكون هناك حديقة حيث سينجح في استنبات الزنبقة السوداء وإزهارها.

هناك بعض الكوارث لا يستطيع قلم كاتب مسكين أن يصفها، لكنه ملزم بإيصالها إلى مخيلة قرائه في تجلياتها الواقعية البسيطة.

سقط بوكستيل مصعوقًا، من فوق النافورة فوق عدد قليل من الأورانج الغاضبين من التحول الذي اتخذته هذه القضية، لهذا اعتقدوا أن صيحات السيد إسحاق كانت صرخات فرح، فتلقوه بأحسن اللكمات وأفضلها.

ولكن ما الذي يمكن أن تضيفه بعض اللكمات إلى الألم الذي كان يشعر به بوكستيل؟

حينئذ أراد أن يركض خلف العربة التي كانت تحمل كورنيليوس وفصوصه. لكن في خضم العجلة من أمره، لم يلمح حجرًا مرصوفًا، فتعثر، وفقد مركز ثقله، ثم تدحرج عشر خطوات إلى الأمام، ولم يقم مرة أخرى، إلا بعد أن مرت فوق ظهره وداسته، وكدمته، الأحذية الموحلة لغوغاء لاهاي جميعهم.

في هذا الظرف مرة أخرى، كان بوكستيل يعاني من سوء الحظ، لذا فقد كانت ثيابه ممزقة وظهره مجروحاً ويداه مخدوشتين.

قد يساورنا الظن أن بوكستيل سيتوقف عند الحدّ.

لكننا مخطئون.

نهض بوكستيل واقفا على قدميه، ومزق أكبر قدر ممكن من الشعر وألقاه قربانا محترقا لتلك إلشريرة الأسطورية الشرسة عديمة الإحساس التي نسميها الحسد والغيرة. لقد كان بلا شك عرضا سارا لهذه الخرافة التي كانت وفقا للأساطير تملك شعرا من الثعابين.

الفصل الرابع عشر

حَمَامُ دوردريخت..

لقد كان شرفًا عظيمًا لكورنيليوس ڤان بيرل أن يكون محبوسًا في السجن نفسه الذي وجد فيه العالم السيد غروتيوس.

ولكن بمجرد وصوله إلى السجن، كان في انتظاره شرف أكبر بكثير. فقد اتضح أن الغرفة التي يسكنها الصديق اللامع لبارنيفيلت أصبحت شاغرة في لويفيستين، عندما أرسل عفو أمير أورانج عن مزارع الزنبق ڤان بيرل.

كانت لهذه الغرفة سمعة سيئة في القلعة منذ ذلك الحين، بفضل خيال زوجته، هرب السيد غروتيوس داخل صندوق الكتب الشهير الذي أهمل تفتيشه.

من ناحية أخرى، بدا أن هذه الغرفة قد مُنحت له من أجل السكن؛ ففي النهاية، لم يكن على السجان أبدًا، وفقًا لأفكاره الخاصة، أن يضع حمامة ثانية في القفص الذي طارت منه الأولى بسهولة.

كانت الغرفة ذات شهرة تاريخية. لذلك لن نضيع وقتنا في تسجيل التفاصيل عنها. باستثناء الكوة التي تم إنشاؤها للسيدة غروتيوس، كانت غرفة سجن مثل أي غرفة أخرى، ربما أعلى قليلًا. توجد بها أيضًا نافذة ذات قضبان، تطل على منظر ساحر.

لا تكمن أهمية حكايتنا في الوصف الداخلي لعدد من الأماكن. بالنسبة لڤان بيرل، كانت الحياة أكثر من مجرد جهاز للتنفس. كان السجين المسكين يحب شيئين أكثر من محبته الرؤية، هما الشيئان اللذان كان يعتقد، أنهما يوفران له التفكير الحر، ويمكن من الآن فصاعدًا أن يوفرا له متعة مزيفة:

إنهما الزهرة والمرأة، لكنه فقدهما معًا وإلى الأبد.

لحسن الحظ، فإن ڤان بيرل الطيب كانت مخطئا! لأن الرب، في اللحظة التي سار فيها إلى المقصلة، نظر إليه مبتسمًا ابتسامة الأب، فقد قدر له الرب في حضن سجنه، في غرفة السيد غروتيوس، حياة هي الأكثر مغامرة، لم يسبق لمزارع الزنبق أن عاش مثلها.

في صباح أحد الأيام، عند نافذته، بينما كان يستنشق الهواء النقي المتصاعد من نهر الفال، ويتأمل موطنه في البعيد، خلف مداخن المنازل، وطواحين دوردريخت، رأى ساعتها الحمائم تحلق في أسراب من تلك النقطة من الأفق، لتحط مرتجفة تحت الشمس فوق الجملونات الحادة في لويفستين.

يعتقد ڤان بيرل أن هذه الحمائم تأتي من دوردريخت وبالتالي يمكنها العودة إلى هناك. وأن أي شخص يعلق كلمة على جناح هذه الحمائم ستتاح له الفرصة لإيصال أخباره إلى دوردريخت، حيث يوجد من يبكيه بحزن.

ثم بعد استغراقه لحظة في أحلام اليقظة أضاف ڤان بيرل: أنت هذا الشخص، تكون صبورًا جدًا عندما تبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا ويحكم عليك بالسجن مدى الحياة، مما يعني قضاء

ما يقرب من اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين ألف يوم في السجن.

بينما كان ڤان بيرل يفكر في فصوصه الثلاثة -لأن هذه الفكرة كانت ما تزال تنبض في أعماق ذاكرته كما ينبض القلب في أعماق صدره - نقول خلال التفكير في فصوصه الثلاثة، فكر أن يعد شركًا للحمائم، فقام بإغراء هذه الطيور بكل موارد طعامه، التي كانت تقدر بثمانية فلوس هولندية في اليوم (تساوي اثني عشر فلسًا فرنسيًا)، وبعد شهر من الإغراءات غير المثمرة، أمسك بأنثى.

ثم استغرق شهرين آخرين ليمسك ذكرًا، ثم قام بحبسهما معًا، وفي بداية عام 1673، بعد أن حصل على البيض، أطلق سراح الأنثى، التي وثقت بالذكر الذي أخذ يحتضنه مكانها، وذهبت بفرح إلى دوردريخت. مع ورقة صغيرة تحت جناحها.

في المساء رجعت محتفظة بالرسالة. واستمر الحال على ما هو عليه طوال أسبوعين، فشعر ڤان بيرل بخيبة أمل كبيرة في البداية، ثم لاحقًا بالاستياء.

وأخيرًا، في اليوم السادس عشر عادت الحمامة دون الرسالة الصغيرة.

وجه ڤان بيرل هذه الرسالة إلى مربيته العجوز، وتوسل إلى الأرواح الخيرة أن تحملها إليها بأسرع وقت ممكن.

في هذه الرسالة الموجهة إلى مربيته، كان ثمة ملاحظة صغيرة مرسلة إلى روزا.

يحمل الرب بأنفاسه بذور الفجل البري فوق جدران القلاع القديمة ويجعلها تتفتح بالقليل من المطر، ويسمح الرب لمربية ڤان بيرل باستلام هذه الرسالة.

وإليك الطريقة:

عند مغادرته دوردريخت متوجهاً إلى لاهاي ومن لاهاي إلى جوركوم، لم يكن السيد إسحاق بوكستيل قد تخلى عن منزله، وخادمه، ومرصده، ومنظاره، ولكنه تخلى أيضًا عن حمائمه.

بدأ الخادم، الذي تُرك دون أجر، بأكل ما لديه من المدخرات القليلة، ثم بدأ يأكل الحمام.

وعند رؤية المربية هجرة الحمام من سطح إسحاق بوكستيل إلى سطح كورنيليوس ڤان بيرل.

وكانت طيبة القلب ومحتاجة إلى محبة شيء ما. أقامت صداقة مع الحمام الذي حل ضيفًا عليها، وعندما طلب خادم إسحاق آخر اثنتي عشرة أو خمس عشرة حمامة ليأكلها، مادام قد أكل الاثنتي عشرة أو الخمس عشرة حمامة الأولى، عرضت عليه المربية شراءها بمبلغ ستة فلوس هولندية للحمامة الواحدة.

كان المبلغ يساوي ضعف قيمة الحمائم. فقبل الخادم بفرح عظيم.

وبذلك وجدت المربية نفسها المالك الشرعي لحمائم الحسود.

كانت هذه الحمائم مختلطة مع أخرى تزور في رحلاتها لاهاي ولويفستين وروتردام، ولا شك أنها تبحث عن قمح من طبيعة أخرى، ربما بذور القنب ذات المذاق المختلف.

وبالصدفة، أو بالأحرى تدخلت مشيئة الرب، الرب الذي نراه، نحن، في جوهر كلّ شيء، هذا الرب هو الذي جعل كورنيليوس ڤان بيرل يمسك واحدة من تلك الحمائم.

كلّ ما حدث جاء نتيجة مغادرة الحسود لدوردريخت ليتبع منافسه إلى لاهاي أولاً، ثم إلى

جوركوم أو لويفستين. كما هو الحال، فإن المنطقتين منفصلتين فقط عن طريق تقاطع نهري الفال والموز، كان من الممكن أن تسقط الرسالة التي كتبها ڤان بيرل بين يديه وليس في يد المربية؛ وبذلك يضيع السجين المسكين، مثل غراب الإسكافي الروماني، الذي أضاع وقته وتعبه، وبدلاً من الاضطرار إلى سرد الحوادث المختلفة التي تشبه سجادة من ألف لون، سنكتب بريشة مجريات حكاية تنحضر في وصف سلسلة طويلة من الأيام الباهتة والحزينة والمظلمة مثل ستار الليل.

سقطت الرسالة الصغيرة إذن في يد مربية ڤان بيرل.

في الأيام الأولى من شهر فبراير تقريبًا، عندما شرعت ساعات المساء الأولى تنزل من السماء تاركة وراءها النجوم الصاعدة، سمع كورنيليوس صوتًا على درج البرج، فأحس بالرجفة.

وضع يده على قلبه واسترق السمع.

كان صوت روزا العذب والمتناغم.

لنعترف بداية، لم يكن كورنيليوس مندهشًا من المفاجأة، بل كان مغمورا بالبهجة، فلولا الحمائم، والرسالة التي أعادت إليه الأمل حينما لاحظ أن الحمامة عادت من دون رسالة، وبذلك كان يتوقع كلّ يوم زيارتها، لأنه كان يعرف روزا، ما أن تتسلم الرسالة، حتى تسارع إلى البحث عن حبها.

وقف، يستمع، مائلًا بجسده على جانب الباب.

نعم، كانت النبرات نفسها، التي حركت عاطفته بلطف شديد في لاهاي.

لكن الآن، روزا التي قامت بالرحلة من لاهاي إلى لويفستين، روزا التي نجحت، ولا يعرف كورنيليوس كيف، تدخل إلى السجن، وهل ستنجح روزا أيضًا في الوصول إلى السجين؟

وبينما كان كورنيليوس، مستغرقًا في هذا الموضوع، يخمن فكرة تلو الفكرة، والرغبات تلو الاضطرابات، انفتحت كوة باب زنزانته، رأى روزا المتلألئة فرحا، وزينة، جميلة قبل كلّ شيء بالحزن الذي شحب خديها طيلة خمسة شهور. ألصقت روزا وجهها بقضبان باب كورنيليوس قائلة:

- أوه! سيدي! سيدي، ها أنذا.

مد كورنيليوس ذراعه ونظر إلى السماء وأطلق صرخة فرح:

- آه يا روزا، روزا!

قالت الفتاة الصغيرة:

- أصمت!: دعنا نتحدث بهدوء، والدي يتبعني.

- والدك؟

- نعم، يوجد هناك في الفناء أسفل السلم، يتلقى تعليمات المحافظ، وسيصعد إلى الطابق العلوي.

- تعليمات المحافظ؟ ...

- اسمع، سأحاول إخبارك بكلمتين. يملك الستاتهاودر منزلا ريفيا في ليدن، وهو معمل ألبان كبير، ولا شيء آخر؛ ثم إن عمتي، وهي مربيته، هي المسؤولة عن جميع الحيوانات المحتجزة في هذه الملكية الصغيرة. بمجرد أن تلقيت رسالتك، والتي لم أتمكن من قراءتها، للأسف! لكن مربيتك قرأتها لي، ركضت إلى عمتي؛ وبقيت هناك حتى جاء الأمير إلى مصنع الألبان، وعندما فعل ذلك، طلبت منه أن يغير عمل والدي من سجن لاهاي إلى قلعة لويفستين. لم يكن يعرف هدفي؛ لو كان يعلم ذلك لربما رفض الطلب. ولكن العكس الذي حدث، لأنه وافق على ذلك.

- ولذلك أنت هنا؟

- كما ترى.

- ولكي أراك كلّ يوم؟

- بقدر ما أستطيع.

قال كورنيليوس:

- يا روزا! السيدة العذراء، جميلتي روزا! هل تحبينني قليلًا؟

قالت:

- قليلًا ... عجبًا! أنت لا تطلب ما يكفي يا سيد كورنيليوس.

مدّ كورنيليوس يديه إليها بشغف، لكن أصابعهما وحدها التي يمكن أن تلمس بعضها بعضًا عبر فتحات الكوة الحديدية.

قالت الفتاة:

- ها هو والدي!

فتركت روزا الباب واندفعت نحو العجوز غريفوس الذي ظهر في أعلى الدرج.

الفصل الخامس عشر

الشُبَّاك..

كان غريفوس وكلبه المولوس يقومان بجولاتهما حتى يتعرف الكلب بالمناسبة على السجناء.

قالت روزا:

- أبي، هذه هي الزنزانة الشهيرة التي هرب منها السيد غروتيوس؛ أنت تعرف، السيد غروتيوس؟

- نعم، نعم، ذاك الوغد غروتيوس؛ صديق ذلك المجرم بارنيفيلت، الذي رأيته يُعدم عندما كنت طفلاً. غروتيوس! آه! آه! وأنا أجيب، لن يهرب أحد بعده.

وعندما فتح الباب بدأ حديثه للسجين في الظلام.

أما الكلب فزمجر وراح يشم ربلة ساق السجين، وكأنه يسأله بأي حق مازال على قيد الحياة، فقد رآه يخرج بين كاتب المحكمة والجلاد.

لكن روزا الجميلة نادت الكلب، فرجع إليها.

قال غريفوس وهو يرفع فانوسه ليحاول إضاءة القليل حوله:

- سيدي، أنت ترى في شخصي سجانك الجديد. أنا حامل المفاتيح والغرف كلّها تحت مراقبتي. أنا لست قاسيًا، لكنني متشدد حول كلّ ما يتعلق بالانضباط.

قال السجين وهو يدخل دائرة الضوء التي أنارها الفانوس:

- لكنني أعرفك جيدًا يا عزيزي السيد غريفوس.

قال غريفوس:

- أوه حسنًا، أنت السيد ڤان بيرل. عجبًا! هذا أنت؛ مرحبًا ها نحن نلتقي مجددًا!

- نعم، ومن دواعي سروري العظيم، عزيزي السيد غريفوس، أن أرى ذراعك تعمل بشكل رائع، حتى أنك تحمل الفانوس بهذه الذراع.

عبس غريفوس وقال:

- انظر، كما في السياسة نرتكب الأخطاء دائمًا. صاحب السمو أعطاك حياتك، لم أكن لأفعل ذلك.

سأل كورنيليوس:

- عجبًا! ولماذا ذلك؟

- لأنك الرجل الذي يواصل تآمره؛ أنتم أيها العلماء، تُتَاجرون مع الشيطان.

قال كورنيليوس ضاحكًا:

- عجبًا! سيد غريفوس، هل أنت غير سعيد بالطريقة التي عالجت بها ذراعك، أو السعر الذي طلبته منك؟

قال السجان متذمرًا:

- على العكس من ذلك، تبا له على العكس تماما!، لقد عالجتَ الذراع جيدًا، يوجد بعض السحر في علاجك، فبعد ستة أسابيع شرعت باستعمالها وكأن شيئًا لم يحدث، لدرجة أن طبيب بوتنهوف، الذي يفهم شغله جيدًا، أراد أن يفكها مرة أخرى، ليعيد تقويمها بشكل صحيح، ووعدني بأن أستغرق ثلاثة أشهر هذه المرة حتى أتمكن من استخدامها.

- وأنت لم تشأ ذلك؟

- قلت له لا. طالما أستطيع أن أرسم علامة الصليب بتلك الذراع (كان غريفوس كاثوليكيًا)، طالما يمكنني أن أرسم علامة الصليب بهذه الذراع، هزءا بالشيطان

- لكن سيد غريفوس إذا هزئت من الشيطان، فلا بد أنك أشد سخرية من العلماء.

صاح غريفوس دون أن يجيب عن السؤال:

- أوه! العلماء العلماء! أفضل الاحتفاظ بعشرة جنود بدلاً من عالم واحد. العسكريون، يدخنون، يشربون، يسكرون. هم لطيفون مثل الأغنام عندما تعطيهم كؤوسًا من عرق أو نبيذ نهر المُوزْ. لكن العالم يشرب، ويدخن، ويسكر! بالتأكيد! لكنه يبقى رصينًا، لا ينفق أي شيء، يحافظ على طاقته العقلية من أجل التآمر. لكن دعني أخبرك بأنك لن تتمكن من التآمر بسهولة، بداية لن تحصل على كتب ولا أوراق ولا كتب طلاسم، لأن السيد غروتيوس هرب بواسطة الكتب.

واستطرد ڤان بيرل قائلًا:

- سيد غريفوس، أؤكد لك أنه ربما خطرت ببالي فكرة الهروب، لكني لم أعد أفكر بها مطلقًا.

قال غريفوس:

- جيد! جيد! اعتن بنفسك، وسأفعل الشيء نفسه. ومهما حدث، فقد ارتكب سموه خطأً كبيراً.

- لأنه لم يقطع رأسي؟ ... شكرًا لك، شكرًا لك، سيد غريفوس.

- دون شك. انظر ماذا للأخوين دو وايت، أليسا الآن مطمئنين.

قال ڤان بيرل، مبتعدًا لإخفاء اشمئزازه:

- ما تقوله مريع، سيد غريفوس. نسيت أن أحدهما كان صديقي والآخر ... الآخر كان بمثابة أبي الثاني.

- نعم، لكني أتذكر أن كليهما كانا متآمرين، ثم إنني أتحدث من باب حبي للبشر.

- عجبًا! صدقًا! لذا اشرح ذلك قليلًا، عزيزي السيد غريفوس، أنا لا أفهم تمامًا.

- نعم. لو مت تحت مقصلة السيد هاربروك...

- وماذا بعد؟

- حسنًا! لن تعاني بعدها. بينما هنا، فلن أخفي عنك أنني سأجعل حياتك شاقة جدًا.

- شكرا لك على الوعد، سيد غريفوس.

وبينما ابتسم السجين ساخرًا للسجان العجوز، ردت روزا خلف الباب بابتسامة مليئة بالتعزية

الملائكية. ذهب غريفوس إلى النافذة. كان النهار مضيئًا كفاية بحيث يمكننا أن نرى دون تمييز أفقًا هائلاً ضائعًا وسط ضباب رمادي.

سأل السجان:

- يا له من منظر هنا!

قال كورنيليوس وهو ينظر إلى روزا:

- جميل جدًا.

- نعم، نعم، زخم هائل من المناظر. في هذه اللحظة، خرجت الحمامتان اللتان أذهلتهما رؤية هذا الغريب وخاصة صوته، من عشهما واختفيا هاربين بين الضباب.

سأل السجان:

- عجبًا! عجبًا! ما هذا؟

أجاب كورنيليوس:

- حماماتي.

صاح السجان:

- حماماتي، حماماتي! وهل يملك السجين شيئًا خاصًا به؟

عندئذ قال كورنيليوس:

- الحمام ساقته المشيئة الطيبة إليّ.

أجاب غريفوس:

- هذه مخالفة علنية، الحمام! آه! أيها الشاب آه أيها الشاب، دعني أحذرك من شيء واحد، لديك مهلة لن تتجاوز يوم غد ثم ستغلي هذه الطيور في طنجرتي.

قال فان بايرل:

- عليك أن تمسكها أولاً، يا سيد غريفوس. أنت لا تريدها أن تكون حماماتي؛ وهما ليسا كذلك، أقسم لك إنهما ليسا ملكي.

قال السجان متذمرًا:

- ما يؤجل لا يضيع، وسأمهلك إلى يوم غد فقط، ثم سأفتل أعناقها.

وبينما قدم هذا التهديد الشرير لكورنيليوس، انحنى غريفوس ليتفحص شكل العش. استغل ڤان بيرل هذا الوقت ليركض إلى الباب ويصافح روزا، التي قالت:

- الساعة التاسعة الليلة.

كان غريفوس مشغولًا تمامًا بالرغبة في أخذ الحمام في اليوم التالي كما وعد، لذلك لم ير شيئًا، ولم يسمع شيئًا، وما أن أغلق النافذة، حتى أخذ ابنته من ذراعها، وخرج، وقام بإدارة القفل مرتين، ودفع المزلاج، ثم ذهب لتقديم الوعود نفسها لسجين آخر. وما كاد يختفي حتى اقترب كورنيليوس من الباب لسماع صوت الخطوات المتناقصة؛ وعندما ساد الصمت، ركض إلى

النافذة وهدم عش الحمام بالكامل. كان يفضل طردها إلى الأبد على أن يعرض الرسولين اللطيفين للموت، لأنه يدين لهما بسعادة رؤية روزا من جديد.

هذه الزيارة من السجان، وتهديداته الوحشية، واحتمال مراقبته الكئيبة، انتهاكاتها التي يعرفها، لا شيء من هذا يمكن أن يصرف انتباه كورنيليوس عن الأفكار العذبة، وقبل كلّ شيء عن الأمل الجميل في أن وجود روزا قد أحيا قلبه.

انتظر بصبر نافد دقات التاسعة في برج قلعة لويفيستين. كما قالت روزا: «انتظرني في الساعة التاسعة»

كانت الرنة الأخيرة للساعة البرونزية ما تزال تتردد في الهواء عندما سمع كورنيليوس خطى أقدام خفيفة ورأى الفستان المتموج للجميلة روزا على الدرج، وسرعان ما أضاء شباك الباب الذي كان كورنيليوس يحدق إليه بشغف. فانفتحت الكوة من الخارج.

قالت روزا لاهثة بفعل صعود الدرج:

- ها أنا، ها أنذا!

- أوه! روزا الطيبة!

- هل أنت سعيد لرؤيتي؟

- أنت من يسألني! لكن كيف تمكنت من المجيء؟ قولي!

- اسمع، أبي ينام كلّ ليلة تقريبًا بعد العشاء؛ لذلك وضعته في الفراش دائخًا قليلًا بسبب مشروب العرعر. لا تخبر أحداً لأنه بفضل ذلك النوم سأتمكن من المجيء والتحدث إليك ساعة كلّ مساء.

- أوه! شكرا لك يا روزا يا عزيزتي روزا.

وتقدم كورنيليوس وهو يقول هذه الكلمات، ووضع وجهه قريبًا جدًا من الشباك لدرجة أن روزا سحبت وجهها.

قالت:

- أحضرت لك فصوص الزنبق.

قفز قلب كورنيليوس. لم يجرؤ على سؤال روزا مرة أخرى عما فعلته بالكنز الثمين الذي عهد به إليها.

- حسنًا! هل احتفظت بها؟

- ألم تعطني إياها وهي شيء عزيز عليك؟

- نعم، ولكنني منحتها لك، وأظن أنها صارت ملكك.

- كانت ستكون ملكي بعد موتك ولكنك الآن، لحسن الحظ، على قيد الحياة، آه! كم باركتُ سموه، وإذا الرب منح الأمير غيوم كلّ السعادة التي أتمناها له، فمن المؤكد أن الملك غيوم لن يكون أسعد رجل في مملكته فقط ولكن في الأرض كلّها. قلت مادمتَ على قيد الحياة، وأنا أحتفظ بإنجيل عرابك كورني، فقد قررت أن أحضر لك فصوصك؛ لكني لم أعرف كيف أقوم

بذلك. الآن، كنت قد قررت أن أذهب لأطلب من الستاتهاودير نقل أبي إلى سجن لويفستين، عندما أحضرت لي المربية رسالتك. آه! لقد أجهشنا بالبكاء طويلًا، كنت سأجيبك عليها، لكن رسالتك عززت عزيمتي، لهذا غادرت إلى لايدن. وأنت تعرف الباقي.

ثم قال كورنيليوس:

- كيف يا عزيزتي روزا، هل فكرت قبل أن تتلقي رسالتي بأن تأتي لتبحثي عني؟

ردت روزا تاركة حبها يغلب حياءها:

- هل فكرت في ذلك!، لم أكن أفكر إلا في ذلك!

وعندما قالت روزا هذه الكلمات ازدادت جمالًا، وللمرة الثانية ألقى كورنيليوس جبهته وشفتيه على السياج، بلا شك فعل ذلك كي يشكر الفتاة الجميلة.

فتراجعت روزا كما فعلت في المرة الأولى.

قالت بالغنج الخفاق بين جناحي قلب كلّ فتاة صغيرة:

- في الحقيقة، في الحقيقة، لقد ندمت في كثير من الأحيان لجهلي القراءة؛ لكن ليس بنفس الطريقة كما حدث عندما أحضرت لي مربيتك رسالتك؛ أمسكت بيدي هذه الرسالة التي تكلم الآخرين، لكن بالنسبة لي، أنا الحمقاء المسكينة، فقد كانت صامتة.

قال كورنيليوس:

- هل ندمت كثيرًا على عدم معرفتك القراءة؟ وفي أي مناسبة؟

قالت الفتاة الصغيرة وهي تضحك:

- تبا! لكي أقرأ كلّ الرسائل التي كُتبت لي.

- هل تلقيت رسائل يا روزا؟

- بالمئات.

- لكن من كتبها لك؟ ...

- كتبها لي؟ في البداية الطلاب جميعهم الذين مروا من بوتنهوف، ثم الضباط الذين يذهبون إلى ثكنات السلاح، وكذلك المستخدمين وحتى التجار الذين يلمحونني من نافذتي الصغيرة.

- عزيزتي روزا، تلك الرسائل كلّها، ماذا كنت تفعلين بها؟

ردت روزا:

- سابقا، كانت بعض الصديقات يقرأنها لي، وكان ذلك مسليًا لي كثيرًا؛ ولكن في الفترة الأخيرة، تساءلت ما الفائدة في إضاعة الوقت في الاستماع إلى هذه الحماقات كلّها؟ ومنذ فترة بدأت بحرقها.

صرخ كورنيليوس بنظرة مضطربة ومترعة في الوقت نفسه بالحب والفرح.

- منذ فترة!

نظرت روزا إلى الأسفل خجلة، حتى لا ترى شفتي كورنيليوس تقترب منها، والتي للأسف لم

تلمسها! من خلف الشباك، لكنه، على الرغم من هذا العائق، أرسل أنفاس قبلته الملتهبة إلى شفتي الفتاة الصغيرة.

على إثر هذا اللهب الذي أحرق شفتيها، غدت روزا شاحبة، وربما أكثر شحوبًا مما كانت عليه في بوتنهوف خلال يوم الإعدام. أطلقت أنينًا حارًا وحزينًا، وأغمضت عينيها الجميلتين وهربت وقلبها ينبض نبضًا، محاولة بلا جدوى أن تضغط خفقان قلبها بيدها، تاركة كورنيليوس بمفرده، يستنشق العطر العذب لشعر روزا، مثل أسير أسلاك شائكة.

هربت روزا على عجل لدرجة أنها نسيت أن تعيد الفصوص الثلاثة للزنبقة السوداء إلى كورنيليوس.

الفصل السادس عشر

المعلم وتلميذته..

كان غريفوس، كما رأينا، بعيدًا عن مشاطرة ابنته نواياها الحسنة تجاه ربيب كورني دو وايت.

لم يكن لديه سوى خمسة سجناء في لويفستين؛ لذلك لم يكن من الصعب أداء وظيفة السجان، وكان السجن نوعًا من المهمة السهلة التي تعطى لمن هم في سنه.

ولكن حماسة السجان وقوة مخيلته ضخمت من حجم المهمة التي أنيطت به. بالنسبة له، كان كورنيليوس قد اتخذ الصفة الهائلة لمجرم من الدرجة الأولى. وبالتالي أصبح من أخطر سجنائه. لهذا كان يراقبه في كلّ خطوة، ولا يلاقيه إلا بوجه متجهم وغاضب، لكي يتحمل عناء ما يسميه تمرده المروع ضد الستادتودر المتسامح.

كان يدخل إلى غرفة ڤان بيرل ثلاث مرات في اليوم، معتقدًا أنه سيفاجئه متلبسًا بارتكاب جرم، لكن كورنيليوس تخلى عن المراسلات منذ صارت مرسولته بين يديه. بل من المحتمل أن كورنيليوس، حتى ولو حصل على حريته الكاملة وعلى إذن نهائي بالإقامة أينما شاء، سيفضل المكوث في السجن جوار روزا وفصوصه. لن تحلو له الإقامة في مسكن آخر دون الفصوص ودون روزا.

في الواقع، كلّ مساء في الساعة التاسعة، وعدت روزا بالمجيء والتحدث مع السجين العزيز، ومنذ الليلة الأولى، حافظت روزا، كما رأينا، على وعدها.

في اليوم التالي، صعدت كما في اليوم السابق، بالسرية نفسها، اللغز والاحتياطات ذاتها. غير أنها عاهدت نفسها ألا تدني وجهها كثيرًا من السياج. كما قررت، الدخول على الفور في محادثة لشغل بال ڤان بيرل بأمور جادة، لذلك ما أن وجدت نفسها أمام الشباك حتى مدت له الفصوص الثلاثة التي لا تزال ملفوفة في الورقة نفسها.

لكن أمام دهشة روزا العارمة، فقد دفع ڤان بيرل يدها البيضاء بأطراف أصابعه.

كان الشاب قد فكر في الأمر جيدًا.

قال:

- اسمعيني، أعتقد أننا سنخاطر كثيرًا، إذا وضعنا ثروتنا كلّها في كيس واحد. ضعي في اعتبارك يا عزيزتي روزا أن الأمر يتعلق بإنجاز مهمة كانت تعتبر حتى اليوم مستحيلة. يتعلق الأمر بأن نجعل الزنبقة السوداء العظيمة تتفتح، لذلك دعينا نتخذ احتياطاتنا كلّها حتى إذا فشلنا، لن يكون لدينا ما نلوم عليه أنفسنا. هذه هي الطريقة الصحيحة والمدروسة لنصل إلى هدفنا.

أولت روزا اهتمامها الكلي لما كان يحدثها عنه السجين، لأنها تعرف الأهمية التي يعطيها مزارع الزنابق التعيس لزنابقه وكذلك لما يكتسيه الأمر بالنسبة لها.

أردف كورنيليوس:

- إليك الطريقة التي حسبت بها تعاوننا المشترك في هذه القضية العظيمة.

قالت روزا:

- تفضل كلي آذان صاغية.

- هل يوجد في هذه القلعة حديقة صغيرة، إذا لم تكن حديقة، ففِناء، إذا لم يكن هناك فِناء، فشرفة.

- قالت روزا لدينا حديقة جميلة جدًا. تمتد على طول الفال وهي مليئة بالأشجار المعمرة الجميلة.

- هل يمكنك يا عزيزتي روزا أن تحضري لي بعض التربة من هذه الحديقة لأنظر إذا كانت مناسبة.

- منذ الغد.

- ستأخذين التربة من مكان مظلل وآخر مشمس لأحكم على النوعيتين، في حالتي الجفاف والرطوبة.

- اطمئن.

- التربة التي سأختارها وأعدلها إذا لزم الأمر، سنقسمها إلى ثلاثة أجزاء لفصوصنا الثلاثة، وستأخذين واحداً لتزرعيه في اليوم الذي سأخبرك عنه وفي التربة التي اخترتها؛ سوف يزهر بالتأكيد إذا تعاملت معه وفقًا لإرشاداتي.

- لن أبتعد عنه لحظة.

- ستعطيني واحدًا آخرَ، سأحاول زراعته، هنا في غرفتي، لمساعدتي على تمضية تلك الأيام الطويلة عندما لا أراك. أملك القليل من الأمل، أعترف لك بذلك ومن أجل ذلك، وأنا أرى سلفًا هذا الشقي البائس وهو يضحى من أجل أنانيتي. ومع ذلك، فإن الشمس تزورني أحيانًا. سأستفيد من كلّ شيء لخداعه، حتى من الحرارة ورماد غليوني. أخيرًا، سنحتفظ، أو بالأحرى تحتفظين بالفص الثالث، موردنا الأخير في حال فشلت تجربتنا الأولى والثانية. بهذه الطريقة يا عزيزتي روزا، من المستحيل ألا ننجح في كسب مهرنا المقدر بمئة ألف غيلدر وبذلك ننال أقصى درجات السعادة ونحن نشاهد عملنا ينجح.

قالت روزا:

- فهمت. سأجلب لك التربة غدًا، وستختار لي ولك. بالنسبة لتربتك، سأحتاج إلى عدة زيارات، لأنني لن أتمكن من إحضار غير القليل في كلّ مرة.

- حسنًا! لسنا في عجلة من أمرنا يا عزيزتي روزا. لا ينبغي زرع زنبقتينا إلا بعد شهر كامل. لذلك وكما ترين مازال أمامنا متسع من الوقت؛ لكن إذا زرعت فصك، فيجب أن تتبعي تعليماتي كلّها، أليس كذلك؟

- أعدك بذلك.

- وبمجرد زراعة الفص، ستخبرينني بجميع ظروف نموه، مثل التغيرات الجوية، والآثار في الممرات، والآثار على أحواض الأزهار. سوف تستمعين في الليل إذا ما كانت القطط ترتاد حديقتنا. اثنتان من هذه الحيوانات المؤسفة دمرت في دوردريخت حوضين من أزهاري.

- سأستمع.

- صبيتي العزيزة في الأيام المقمرة ... هل لديك نافذة لرؤية الحديقة؟

- نافذة غرفة نومي تطل عليها.

- جيد. في الأيام المقمرة، سترين ما إذا كانت الثقوب الموجودة في الجدار لا تخرج منها الفئران. إن الجرذان قوارض يجب خشيتها، وقد عرفت بستانيّ الزنابق التعس يلوم نوحَ بمرارة لأنه وضع زوجًا من الفئران في الفلك.

- سأراقب، إذا كان هناك قطط أو فئران ...

- حسنًا! يجب أن نكون حذرين.

ثم أضاف فان بايرل، الذي أصبح منذ دخوله السجن شديد الارتياب:

- هناك حيوان أشد خطورة من القط والفأر!

- وما هو هذا الحيوان؟

- إنه الإنسان! أنت تفهمينني يا عزيزتي روزا يسرق الناس من أجل غيلدر، ونخاطر بالسجن من أجل هذا المبلغ البئيس؛ ومن أجل سبب أكثر أهمية، يمكن للمرء أن يسرق زهرة الزنبق خصوصًا إذا كانت قيمتها تساوي مئة ألف غيلدر.

- لا أحد سواي يدخل الحديقة.

- هل تعدينني؟

- أقسم على ذلك!

- جيد يا روزا! شكرا لك عزيزتي روزا! عجبًا! ستكونين مصدر غبطتي كلّها!

وعندما اقتربت شفتا ڤان بيرل من الشباك ملتهبة بالاضطرام نفسه الذي شعر به في اليوم السابق، وحان موعد الانصراف، تراجعت روزا برأسها بعيدًا ومدت يدها.

في تلك اليد الجميلة، توجد الفصوص التي اهتمت بها الفتاة الجميلة بعناية فائقة.

قبّل كورنيليوس بشغف أطراف أصابع تلك اليد. هل كان سبب ذلك أن هذه اليد كانت تمسك بأحد فصوص الزنبقة السوداء العظيمة؟ أم أن هذه اليد، كانت يد روزا؟

هذا ما نتركه لتكهنات الناس الذين يعرفون أكثر منا، لذلك انسحبت روزا ومعها الفَصّان الآخران، وهي تضمهما إلى صدرها.

هل كانت تعانقهما، لأنهما كانا فصين لزهرة الزنبق السوداء العظيمة، أم لأن صاحب الفَصين هو كورنيليوس ڤان بيرل؟

في اعتقادنا هذه النقطة، سيكون من السهل توضيحها أكثر من النقطة الأخرى. على أي حال، منذ تلك اللحظة، أصبحت حياة السجين عذبة ومفعمة.

وكما رأينا، أعطته روزا الفصوص.

كلّ مساء كانت تحضر له حفنة من التراب من الحديقة وقد وجده جيدًا وممتازًا فعلًا.

كسر كورنيليوس جرة كبيرة بمهارة وصنع لها قاعًا مناسبًا، ملأ نصفه بالتربة ومزجها بما جلبته روزا من وحل النهر القليل وبعدما جففه وفر له تربة ممتازة.

ثم، في بداية أبريل، زرع الفصّ الأول.

ومهما حاولنا الحديث عما استخدمه كورنيليوس من العناية والمهارة والمكر ليتفادى مراقبة غريفوس واختلاس الفرحة بمنجزه، فلن ننجح، لأن نصف ساعة هي بمثابة قرن من المشاعر والأفكار بالنسبة لسجين حكيم.

لم يمرّ يوم دون أن تأتيَ روزا للتحدث إلى كورنيليوس.

كانت أزهار الزنبق، التي تعلمت عنها روزا الكثير، أساس المحادثة بينهما؛ ولكن مهما كان هذا الموضوع مثيرًا للاهتمام، فلا يمكنهما التحدث دائمًا عن أزهار الزنبق.

لذلك كانا يتحدثان عن شيء آخر، وأمام دهشته لاحظ مزارع الزنبق المدى الهائل الذي يمكن أن تشغله دائرة المحادثة.

لكن روزا اكتسبت عادة أن تحتفظ دوما بوجهها الجميل على بعد ست بوصات من الشباك، لأن صاحبة الجديلة الجميلة كانت بلا شك حذرة من نفسها، لأنها شعرت من خلال قضبان الباب الحديدي أن نفَس السجين المحتدم يمكن أن يحرق قلب الفتاة.

كان ثمة شيء على الخصوص يقلق مزارع الزنبق في هذه الساعة مثلما تشغله فصوصه التي كان يتحدث عنها باستمرار؛ ويتمثل في أن روزا كانت تعتمد على والدها.

وهكذا فإن حياة ڤان بيرل، الطبيب المتعلم، والرسام الانطباعي، والرجل المتفوق في عائلة ڤان بيرل كان أول من اكتشف، على الأرجح تحفة الخلق هذه التي يمكن أن نطلق عليها، كما عرفنا مسبقًا روزا بيرلنسيس، الحياة أفضل بكثير من الحياة، كانت سعادة هذا الرجل تعتمد على أبسط نزوة لرجل آخر، وكان هذا الرجل كائنًا أدنى فكرًا، ومن طبقة سفلى. هذا الرجل هو سجانه الشخص الأقل ذكاء من القفل الذي كان يغلقه، وأقسى من المزلاج الذي يسحبه. كان شيئًا شبيها بكابلنا مسرحية العاصفة المزيج بين الإنسان والوحش.

إذن كانت سعادة كورنيليوس تتوقف على هذا الرجل؛ يمكن لهذا الرجل أن يشعر بالملل في صباح يوم جميل في لويفستين، ويجد أن الهواء كان سيئًا، وأن مشروب العرعر لم يكن جيدًا، فيغادر القلعة، ويأخذ ابنته، ومرة أخرى ينفصل كورنيليوس وروزا. وهنا ربما يتعب الرب من القيام بأعماله الكثيرة من أجل مخلوقاته، فينتهي به الأمر ألا يجمعهما من جديد.

قال كورنيليوس للفتاة:

- إذن ما فائدة الحمام الزاجل، لأنك عزيزتي روزا، لا يمكنك قراءة ما أكتبه لك، ولن تكتبي لي ما تفكرين به؟»

أجابت روزا، التي كانت تخشى الانفصال من أعماق قلبها مثل كورنيليوس:

- حسنًا! نملك ساعة كلّ مساء، فلنستخدمها جيدًا.

أجاب كورنيليوس:

- لكن يبدو لي أننا لا نستغلها بشكل سيئ.

قالت روزا مبتسمة:

- دعنا نستخدمها بشكل أفضل. علمني كيف أقرأ وأكتب. سأستفيد من دروسك، صدقني، وبهذه الطريقة لن نفترق أبدًا إلا بإرادتنا.

صرخ كورنيليوس:

- حسنًا! أمامنا الأبدية كاملة.

ابتسمت روزا وهزت كتفيها بلطف، وأجابت:

- وهل ستبقى في السجن؟ بعد منحك الحياة، ألن يمنحك سموه الحرية؟ ثم ألن تعود إلى منزلك وممتلكاتك؟ ألن تكون غنيًا؟ وعندما تصبح حرًا وغنيًا، هل ستتلطف وتنظر، عندما تمر على صهوة حصانك أو في عربتك، إلى روزا الصغيرة، ابنة السجّان، وابنة الجلاد تقريبًا؟

أراد كورنيليوس أن يعترض، وبالتأكيد كان سيفعل ذلك من كلّ قلبه، وبصدق روحه المفعمة بالحب، فقاطعته الفتاة الصغيرة.

وسألت مبتسمة:

- كيف هي زنبقتك؟

كان التحدث إلى كورنيليوس عن الزنبقة وسيلة لروزا لجعل كورنيليوس ينسى كلّ شيء، حتى روزا نفسها.

فقال:

- جيدًا كفاية، يتحول الجلد إلى اللون الأسود، وقد بدأت عملية التخمير، وسخنت عروق الفص وكبرت؛ ربما في غضون ثمانية أيام، ربما قبل ذلك، سنتمكن من تمييز النتوءات الأولى للإنبات. وماذا عن زنبقتك يا روزا؟

- حسنًا! لقد فعلت الأشياء كلّها ووفقًا لإرشاداتك.

قال كورنيليوس وعيناه مضطرمتان، وأنفاسه تلهث كما في تلك الليلة المنصرمة حينما أحرقت عيناه العاشقة وجهُ روزا، وتنفُسه قلبَها:

- هيا يا روزا قولي ماذا فعلت؟

قالت الفتاة مبتسمة (لأن في أعماق قلبها لم تستطع منع نفسها من التفكير في الحب المزدوج لهذا السجين؛ لها أولًا ثم لزهرة الزنبق السوداء):

- قلت، لقد فعلت الأشياء معظمها؛ أعددتُ كلّ شيء في ساحة عارية، بعيدًا عن الأشجار والجدران، في تربة رملية قليلًا، وأكثر رطوبة وأقل جفافًا، خالية من الحجر والحصا، ووضعت طبقات من التربة كما وصفتها لي.

- جيد، جيد يا روزا.

- لا تنتظر التربة المعدة على هذا النحو سوى إشارة منكَ. في أول يوم مناسب، ستطلبُ مني أن أزرع فَصّي، سأزرعه؛ أنت تعلم أنني يجب أن أتأخر عنك، فأنا أملك كلّ فرص الهواء الجيد والشمس ووفرة العصارات الترابية.

صاح كورنيليوس، وهو يصفق بيديه فرحًا:

- أنت تلميذة جيدة، يا روزا، وستكسبين بالتأكيد مئة ألف غيلدر.

- نعم هذا صحيح!

قالت روزا ضاحكة:

- لا تنس، أن تلميذتك، كما تلقبها، مازالت تريد إلى جانب زراعة أزهار الزنبق، أن تتعلم المزيد.

- نعم، نعم، وأنا مهتم تماما مثلك، يا روزا الجميلة، برغبتك في أن تتعلمي القراءة.

- متى نبدأ؟

- حالًا.

- لا غدًا.

- لماذا غدًا؟

- لأن ساعتنا اليوم قد انتهت، ويجب أن أتركك.

- الآن! لكن ماذا سنستخدم للقراءة؟

قالت روزا:

- حسنًا! لدي كتاب، كتاب أتمنى أن يجلب لنا حظًا سعيدًا.

- أراك غدًا؟

- إلى الغد إذن.

في اليوم التالي، عادت روزا ومعها إنجيل كورنيليوس دو وايت.

الفصل السابع عشر

الفص الأول..

كما قلنا، في اليوم التالي، عادت روزا ومعها إنجيل كورنيليوس دو وايت.

ثم بدأت بين المعلم والتلميذة أحد تلك المشاهد الساحرة التي تسعد الروائي عندما يحالفه الحظ في التعبير عنها بقلمه.

كان الشباك هو النافذة الوحيدة التي تمكن العاشقين من التواصل، لكنه كان عاليًا جدًا بالنسبة لشخصين. كانا حتى ذلك الحين يكتفيان بقراءة كلّ ما يقولانه من خلال ملامح وجهي بعضهما، وما بالك بالقراءة، بيسر وسهولة، في الكتاب الذي جلبته روزا.

وبالتالي، كان على الفتاة أن تشرئب نحو الشباك، ورأسها منحن، والكتاب على ارتفاع الضوء، وهي تحمله في يدها اليمنى، ولكي تريح يدها قليلًا، اقترح كورنيليوس أن تثبته بمنديل على الشباك الحديدي. منذ ذلك الحين، كانت روزا قادرة على أن تتابع بأصابعها الحروف والمقاطع التي يتهجؤها كورنيليوس مؤشرًا عليها بعود تبن، ومشيرًا إلى هذه الحروف عبر الفتحة الموجودة في الشباك كي تحفظها تلميذته اليقظة.

كان ضوء المصباح ينير ألوان روزا الزاخرة، وعينيها الزرقاوين العميقتين، وضفائرها الشقراء تحت الخوذة الذهبية المصقولة، والتي، كما قلنا، تستعملها كغطاء للرأس؛ أصابعها المرتفعة في الهواء والتي يجري في عروقها الدم، اكتست لونا شاحبًا ووورديًا يسطع تحت الأضواء والتي تشير إلى الحياة الغامضة التي يراها المرء تدور تحت الجسد.

تطور ذكاء روزا سريعًا جراء اللمسة النشطة لعقل كورنيليوس، وعندما تبدو الصعوبة كبيرة جدًا، تشع تلك العيون التي كانت تغوص في بعضها، وتلك الرموش التي ترتعش، وذلك الشعر المتلاحم الذي يطلق شرارات كهربائية قادرة على إضاءة عتمة الغباء نفسه.

وبعد أن نزلت روزا إلى غرفتها، راجعت في ذهنها دروس القراءة، وفي الوقت نفسه، دروس الحب المكتوم في روحها.

وذات مساء قدمت متأخرة نصف ساعة عن الوقت المعتاد.

كان تأخرها، بالنسبة لكورنيليوس، حدثًا جسيمًا جدًا، فعبر عن غضبه، لكن الفتاة الصغيرة ردت عليه:

- حسنًا! لا تؤنبني، هذا ليس خطئي. كان والدي قد ربط الاتصال في لويفستين مع رجل كان يأتي كثيرًا إلى لاهاي ليطلب منه رؤية السجن. لقد كان شيطانًا ماهرًا، وصديقًا للخمر، وكان يروي قصصًا سعيدة، علاوة على ذلك كان لا يخجل من الحصول على فلس واحد.

سأل كورنيليوس مندهشًا:

- ألا تعرفينه جيدًا؟

ردت الفتاة الصغيرة:

- لا، منذ حوالي أسبوعين ووالدي في حالة ذهول بسبب هذا الوافد الجديد الدؤوب على زيارته.

قال كورنيليوس وهو يهز رأسه قلقًا، لأن أي حدث جديد بالنسبة له، ينذر بكارثة، كما أن الجواسيس مثله يرسلون إلى الحصون لمراقبة السجناء والحراس معًا.

- عجبًا!

قالت روزا مبتسمة:

- لا أعتقد ذلك، إذا كان هذا الرجل الطيب يتجسس على أي شخص، فلن يكون والدي.

- ومن إذن؟

- أنا على سبيل المثال.

- أنت؟

قالت روزا ضاحكة:

- لم لا؟

قال كورنيليوس بحسرة:

- آه! هذا صحيح، أليس لديك دائمًا خاطبون، يا روزا، يمكن أن يصبح هذا الرجل زوجك.

- أنا لا أنفي ذلك.

- وما هي أسباب هذه الفرحة؟

- قل هذا الخوف، يا سيد كورنيليوس.

- شكرا لك يا روزا، أنت محقة، هذا الخوف ...

- أرده إلى الأسباب التالية ...

- قولي أنا أصغي.

- كان هذا الرجل قد زار بوتنهوف عدة مرات وفي لاهاي؛ هنا، جاء عندما كنت مسجونًا. وعندما غادرت السجن غادر بدوره. ثم عندما جئت إلى هنا، جاء أيضًا. في لاهاي تذرع بأنه يريد لقاءك.

- لقائي أنا؟

- حسنًا! إنها ذريعة، بالتأكيد، لأنه اليوم ما زال يدعي السبب نفسه، بما أنك أصبحت أسيراً لوالدي مرة أخرى، أو بالأحرى أن والدي أصبح سجانك مرة أخرى، لم يعد يطلب رؤيتك، بل على العكس تمامًا، فقد سمعته أمس، يخبر والدي أنه لا يعرفك.

- استمري يا روزا، رجاءً، دعيني أحاول تخمين من هو هذا الرجل وماذا يريد.

- هل أنت متأكد، يا سيد كورنيليوس، أنه لا يمكن لأي أحد من أصدقائك أن يأت للسؤال عنك؟»

- ليس لدي أصدقاء، يا روزا، كانت لدي مربية فقط أنت تعرفينها وهي تعرفك. وا حسرتاه! مربيتي المسكينة، ستأتي بنفسها ولن تلجأ للحيلة، ستقول لأبيك أو لك باكية: «سيدي العزيز

أو فتاتي العزيزة، طفلي هنا، انظرا كم أنا يائسة، أتركاني أراه ساعة فقط وسأدعو الله طيلة حياتي من أجلكما» أوه! لا، (أردف كورنيليوس)، أوه! لا، باستثناء مربيتي الطيبة، فليس لدي أصدقاء.

- لهذا أعود إلى ما اعتقدته، أمس، وعند غروب الشمس، كنت أعد المغرِس حيث سأزرع فَصّك، رأيت ظلًا أطلّ من خلال الباب الموارب، وانزلق وراء أشجار البيلسان والحور. لم أحتج إلى إمعان النظر، فقد كان رجلنا وهو يحاول التواري، لكنه رآني أحرك التربة، وبالطبع، لقد كان يلاحقني، ويراقبني. لم أنبش تربة، ولم ألمس ذرة منها دون أن يدرك ذلك.

قال كورنيليوس:

- عجبًا! نعم، إنه عاشق. هل هو شاب وسيم؟

ونظر بلهفة إلى روزا، منتظرًا إجابتها بفارغ الصبر.

صاحت روزا ضاحكة:

- شاب وسيم! وجهه بشع، وجسده محدب، في حوالي الخمسين، ولا يجرؤ على النظر في وجهي أو التحدث بصوت عالٍ.

- ما اسمه؟

- يعقوب جيزيلز.

- أنا لا أعرفه.

- كما ترى جيدًا، فهو إذن لم يأت من أجلك.

- على أية حال، إذا كان يحبك يا روزا، وهو أمر محتمل جدًا، لأن رؤيتك تجعل الناس تحبك، وأنت لا تحبينه، أليس كذلك؟

- عجبًا! بالتأكيد لا!

- هل تريدينني أن أهدأ إذن؟

- أحثك على ذلك.

- حسنًا! الآن بعد أن بدأت في القراءة يا روزا، ستقرئين كلّ ما أكتبه لك، أليس كذلك، عن عذاب الغيرة وعذاب الغياب؟

- سأقرأ إذا كتبت بخط كبير.

ومع بدء المحادثة، بدأت روزا تقلق، فقالت:

- بالمناسبة، كيف حال الزنبقة؟

- روزا، لا يمكنك تصور فرحتي، نظرت إليها هذا الصباح تحت نور الشمس، بعد أن أزلت بلطف طبقة التربة التي تغطي الفص، رأيت الاستنبات الأول يظهر؛ آه! يا روزا، ذاب قلبي من شدة الفرح، هذا البرعم الأبيض المتناهي الصغر الذي يمكن لجناح ذبابة أن يخدشه بلمسة، هذا الوجود الهش الذي يكشف عن برهان بعيد المنال، أثر فيّ أكثر من قراءة أمر صاحب السمو، الذي أعاد إليّ حياتي بعد أن أوقف فأس الجلاد، على مقصلة بوتنهوف.

قالت روزا مبتسمة:

- هل ترجو إذن؟

- أوه! نعم أرجو ذلك!

- وأنا، بدوري، متى سأزرع الفص؟

- سأخبرك في اليوم المناسب الأول؛ لكن قبل كلّ شيء، لا تطلبي المساعدة من أي شخص، ولا تطلعي على الخصوص سرك لأي شخص في العالم؛ حتى وإن كان هاويًا، فسيكون قادرًا، عند فحص الفص، والتعرف على قيمته؛ وعلى وجه الخصوص يا عزيزتي روزا، حافظي بعناية على البصيلة الثالثة المتبقية بحوزتك.

- ما يزال في الورقة نفسها التي وضعته بداخلها وهي كما سلمتها لي، يا سيد كورنيليوس، مدفونة في الجزء الخلفي من دولابي وتحت دانتيلي، وهذا سيبقيها جافة وفي منأى عن أي ضرر. لكن الآن وداعًا أيها السجين المسكين.

- ماذا، أليس الوقت مبكرا؟

- لا مفر من ذلك.

- جئت متأخرة جدًا وتنصرفين مبكرًا جدًا!

- قد يفقد والدي صبره، عندها سيبحث عني؛ كما أن العاشق قد يشك أن لديه منافسًا.

وطفقت تصغي بقلق.

سأل ڤان بيرل:

- ما الأمر؟

- أعتقد أني أسمع صوتا.

- إذن من يكون؟

- كأني سمعت قرقعة خطوات على الدرج.

قال السجين:

- حقًا، لا يمكن أن يكون غريفوس، لأن خطواته تسمع من بعيد.

- لا، ليس والدي، أنا متأكدة، لكن ...

- لكن...

- لكن يمكن أن يكون السيد يعقوب.

صعدت روزا الدرج، وسُمع بالفعل باب يغلق بسرعة قبل أن تهبط الفتاة الدرجات العشر الأولى. ظل كورنيليوس قلقًا جدًا، لكنها كانت بالنسبة له مجرد مقدمة.

عندما يشرع القدر بإنجاز عمل قذر، من النادر ألا يحذر ضحيته بحنو مثلما يفعل المبارز تجاه خصمه ليمنحه الوقت لاستنفار نفسه. تنبثق هذه الآراء بصورة شبه دائمة من غريزة الإنسان أو من تواطؤ الأشياء الجامدة، التي غالبًا ما تكون أقل جمادًا مما يُعتقد عمومًا؛ نقول في معظم الأحوال يتم التغاضي عن هذه الآراء. أطلق صفيرًا في الهواء، من تحذر هذه الصافرة كي يأخذ

حيطته؟ مر اليوم التالي دون أي شيء يذكر. قام غريفوس بزياراته الثلاث. لكنه لم يجد شيئًا. (على أمل أن يكتشف أسرار سجينه، حاول غريفوس أن لا يأت في الأوقات نفسها أبدًا)، عندما كان ڤان بيرل يسمع بقدوم السجان المفاجئ، يقوم بمساعدة آلية اخترعها، تشبه تلك التي تستعمل في رفع وإنزال أكياس القمح في المزارع، قام ڤان بيرل في البداية بإنزال جرّته تحت سطح القرميد، ثم تحت الحجارة التي تشكل حافة نافذته. أما بالنسبة للخيوط التي كان يستعملها لتحريكها، فقد وجد ميكانيكيًا طريقة لإخفائها بالطحالب التي تنبت على البلاط وبين تجاويف الأحجار.

لم يستطع غريفوس تخمين ذلك.

كانت هذه الخدعة ناجحة طيلة ثمانية أيام.

ولكن في صباح أحد الأيام، لم يسمع كورنيليوس صعود العجوز غريفوس، إذ كان مستغرقا في تأمل فصه، والذي شرع فعلًا في إظهار رأس نباتيّ. (كان الجو عاصفًا جدًا في ذلك اليوم، والقرقعة قادمة من كلّ حَدَب وصوب في البرج)، فتح الباب فجأة، وتفاجأ كورنيليوس وبين ركبتيه جرته.

عندما لاحظ غريفوس شيئًا غير معروف، وبالتالي ممنوعًا بين يديّ سجينه، انقض على هذا الشيء بسرعة تفوق ما يفعله الصقر أمام فريسته.

تشاء الصدفة، أو القدر أن يمنح روحًا شريرة أحيانًا للكائنات المحبة للإيذاء، لهذا امتدت يد غريفوس الكبيرة الخشنة أولًا إلى منتصف الجرة، حيث جزء من التربة الذي غرس فيه الفص الثمين، وياللعجب! فهي تلك اليد نفسها التي كسرت فوق الرسغ وعالجها كورنيليوس ڤان بيرل جيدًا.

صاح غريفوس:

- ماذا لديك هناك؟ آه! سأنتزعه منك!

وأدخل يده في التربة.

صرخ كورنيليوس مرتجفا:

- أنا؟ لا شيء، لا شيء!

- آه! سآخذها منك! هذه جرة من التراب! يوجد هنا سر آثم مخفي!

- عزيزي السيد غريفوس!

توسل ڤان بيرل، قلقًا مثل حجلة انتزع منها الحاصد فراخها. كان غريفوس قد بدأ بالفعل في حفر التربة بأصابعه المعقوفة.

قال كورنيليوس ممتقعًا:

- سيدي يا سيدي! كن حذرا!

صرخ السجان:

- ماذا؟ يا إلهي! ماذا؟

- كن حذرا! أقول لك؛ ستسحقه!

وبحركة سريعة يائسة تقريبًا، انتزع الجرة من يدي السجان، وأخفاها ككنز تحت ذراعيه. لكن غريفوس العنيد كعجوز، كان أكثر اقتناعًا بأنه اكتشف للتو مؤامرة ضد أمير أورانج، ركض غريفوس إلى سجينه مهددا بهراوته، ملاحظًا عزم الأسير الثابت لحماية جرة أزهاره، فشعر أن كورنيليوس كان لا يأبه لرأسه أكثر من خوفه على جرته، فحاول انتزاعها منه بالقوة.

قال السجان الغاضب:

- حسنًا! أنت تدرك جيدًا أنك تتمرد.

صرخ ڤان بيرل:

- أترك زنبقتي!

أجاب الرجل العجوز:

«نعم، نعم، زنبقة، نعرف حيل السجناء.

- لكني أقسم لك...

كرر غريفوس وهو يضرب بقدمه:

- أتركها، أو سأنادي الحرس.

- نادِ من تشاء، لكنك لن تحصل على هذه الزهرة المسكينة إلا إذا سلبتني حياتي.

حفر غريفوس، غاضبًا، أصابعه مرة أخرى داخل التربة، وهذه المرة سحب الفص الأسود بالكامل، وبينما كان ڤان بيرل سعيدًا لأنه أنقذ الحاوية، لكنه لم يتخيل أن خصمه يمتلك المحتوى، ألقى غريفوس بعنف الفص الناعم الذي تحطم فوق البلاطة واختفى على الفور محطمًا، ومسحوقًا، تحت حذاء السجان العريض.

رأى ڤان بيرل جريمة القتل، وألقى نظرة على الحطام الرطب، وأدرك كنه فرحة غريفوس الشرسة، فأطلق صرخة يائسة وراودته فكرة أن يجهز على هذا الرجل الشرير، كانت نيران الغضب تجري مع دمه لتستقر على جبهته، وتغشي بصيرته، فرفع بكلتا يديه الجرة الثقيلة بما تحتويه من التربة غير المجدية المتبقية، وهمّ أن يكسرها على رأس غريفوس العجوز الأصلع.

لكن صرخة أوقفته، صرخة مملوءة بالدموع والألم، صرخة روزا المسكينة الشاحبة، والمرتجفة، وهي ترفع ذراعيها إلى السماء، ووقفت بين والدها وصديقها.

تخلى كورنيليوس عن الجرة التي تحطمت إلى ألف قطعة مصدرة صوتٍا رهيبًا. وهكذا، أدرك غريفوس الخطر الذي أفلت منه، وذاك التهديد المروع.

قال كورنيليوس:

- أوه!، يجب أن تكون رجلًا جبانًا وشريرًا للغاية لتنتزع من سجين مسكين بصيلة زنبق هي عزاؤه الوحيد!

وأضافت روزا:

- أف! يا والدي، إن ما ارتكبته لتوك جريمة.

صاح:

- عجبًا! هذه أنت!

والتفت العجوز إلى ابنته وقال غاضبًا:

- لا تتدخلي فيما لا يعنيك، وقبل كلّ شيء انزلي بأسرع ما يمكن.

واصل كورنيليوس يائسًا:

- أيها التعس!

أضاف غريفوس وهو يشعر بالخجل قليلًا:

- بعد كلّ شيء، إنها مجرد زنبقة. سأعطيك أكبر عدد تريده من أزهار الزنبق، لدي ثلاثمئة في العلية.

صرخ كورنيليوس:

- إلى الجحيم أنت وزنابقك! إنها تستحقك وأنت تستحقهما. سأدفع مئة مليار مليون مقابل التي سحقتها.

قال غريفوس منتصرًا:

- حسنًا! يمكنك أن ترى أن ما تملكه ليس زنبقة، يمكنك أن ترى أن ثمة بعض السحر في هذه البصيلة المزيفة، ربما كانت وسيلة للتواصل مع أعداء سُمّوه، الذي عفا عنه. قلت ذلك مرارًا، كان من الخطأ ألا تقطع رقبتك.

صرخت روزا:

- أبي! أبي!

- حسنًا! نعم الأمر! هذا أفضل!

كرر غريفوس مغتبطًا:

- لقد حطمته، وسأحطمه. سيحدث الشيء نفسه في كلّ مرة تبدأ من جديد! حسنًا! لقد حذرتك يا صديقي الجميل من أنني سأجعل حياتك شاقة.

صرخ كورنيليوس لفرط يأسه، وهو يبحث بأصابعه المرتعشة عما تبقى من الفص المحطم، الذي قتل الكثير من الأفراح والآمال.

- اللعنة عليك! اللعنة عليك!

قالت روزا بصوت منخفض:

- سنزرع الآخر غدًا، يا عزيزي السيد كورنيليوس.

وقد فهمت الألم الهائل الذي يشعر به مزارع الزنابق، فنزلت الكلمات الجميلة لذات القلب القدسيّ مثل قطرة بلسم على جرح كورنيليوس النازف.

الفصل الثامن عشر

عاشق روزا..

ما كادت روزا تعبر عن مواساتها لكورنيليوس حتى سُمع صوتٌ على الدرج، كان غريفوس يسأل عما يجري.

قالت روزا:

- أبي، هل تسمع؟

- ماذا؟

- السيد يعقوب يناديك، إنه قلق.

قال غريفوس:

«لقد أحدثنا الكثير من الضوضاء. ألم يكد هذا العالم أن يقتلني! آه! كم من المتاعب، نواجهها دائمًا مع العلماء! ثم أشار إلى الدرج ليحث روزا على المغادرة:

- امشي أمامي يا آنسة!

قال وهو يغلق الباب:

- سأوافيك يا صديقي يعقوب.

وخرج غريفوس، يصطحب روزا تاركا كورنيليوس المسكين متذمرا في وحدته وألمه المرير.

- وا حسرتاه! لقد قتلتني أيها الجلاد العجوز. لن أنجو من هذا المصاب!

وبالفعل كان السجين المسكين سيمرض لولا هذا التعويض الذي منحته العناية الإلهية لكورنيليوس والمتمثل في شخص روزا.

في المساء عادت الفتاة، فأخبرت كورنيليوس أن والدها قد سمح له بزراعة أزهاره.

قال السجين للفتاة بحزن:

- وكيف عرفت ذلك؟

- أعرف لأنه قال ذلك.

- ربما يخدعني؟

- لا، لقد شعر بالندم.

- عجبًا! لكن بعد فوات الأوان.

- هذا الندم، لم يكن من تلقاء نفسه.

- وما هو سببه؟

- لو تدري كم وبخه صديقه!

- آه! سيد يعقوب، ألن يفارقك إذن السيد يعقوب؟

- على أية حال لا يفارقنا إلا قليلًا.

وابتسمت بطريقة بحيث بددت سحابة الغيرة الصغيرة التي أظلمت جبين كورنيليوس.

سأل السجين:

- كيف حدث هذا؟

- حسنًا! عندما سأله صديقه، روى والدي عند العشاء قصة الزنبقة، أو بالأحرى الفص، والانجاز العظيم الذي قام به حينما قام بسحقه.

تنهد كورنيليوس وكأنه يتأوه.

واصلت روزا:

- يا ليتك رأيت السيد يعقوب في تلك اللحظة! في الحقيقة، اعتقدت أنه سيضرم النار في القلعة، تحولت عيناه إلى شعلتين متأججتين، وانتصب شعره، وأخذ يضغط على قبضتيه، للحظة ظننت أنه سيخنق والدي.

صرخ قائلًا:

-هل فعلت ذلك، هل سحقت الفص؟

قال والدي:

- لا شك في ذلك.

صرخ يعقوب:

- يا له من عمل سيئ وبغيض! لقد ارتكبت جريمة!

مكث والدي مشدوهًا، ثم سأل صديقه.

- هل أنت مجنون أيضًا؟

همهم كورنيليوس:

- عجبًا! يعقوب هذا قلب صادق، وروح صافية.

وأضافت روزا:

- المهم في الأمر أني لم أشاهد أحدًا يعامل أبي معاملة قاسية مثلما فعل. كان يشعر بخيبة أمل مطلقة ردد على وقعها:

- إنه سحق الفص، إنه سحق الفص؛ أوه! يا إلهي يا إلهي لقد سُحق!

- ثم التفت جهتي وسأل:

- ولكن ليس هذا الفص الوحيد الذي كان بحوزته؟

قال كورنيليوس متوجسًا:

- سأل عن ذلك؟

قال أبي:

- هل تعتقد أنها لم تكن البصيلة الوحيدة؟ حسنًا، سنبحث عن الأخرى

صرخ يعقوب ممسكًا بياقة أبي:

- هل ستبحث عن الأخرى؟

- لكنه تركه على الفور، ثم خاطبني متسائلًا:

- وماذا قال الشاب المسكين؟

لم أكن أعرف بماذا سأجيب، لقد أوصيتني بالكتمان، لحسن الحظ، أخرجني والدي من هذا الإحراج، عندما سأل وهو يرغي ويزبد.

- ماذا قال؟

«قاطعته.

قلت له: كيف لا يكون غاضبًا، لقد كنت ظالمًا وقاسيًا.

صاح والدي غاضبًا بدوره:

- هكذا إذن! لكن هل أنت مجنونة. يا للعار أن نسحق بصيلة زنبق! في سوق غوركيم يمكن أن نشتري بغيلدر المئات منها.

كان من سوء حظي أني أجبته:

- ولكنها ربما أقل قيمة.

سأل كورنيليوس:

«وعند هذه الكلمات، ماذا فعل يعقوب؟

- عند هذه الكلمات، تهيأ لي أن عينيه ومضتا وميضًا.

قال كورنيليوس:

- نعم، لكن هذا ليس كلّ شيء؛ هل قال شيئًا آخر؟

وهنا قال بصوت معسول:

يا روزا الجميلة، هل تعتقدين أن هذه البصيلة ثمينة؟

- لاحظت أنني ارتكبت خطأ فادحًا، فأجبت بشكل عرضي:

- وما أدراني؟ أنا لا أعرف بأمور الزنابق. أنا أعرف فقط، ويا للأسف! ما دمنا محكومين بالعيش مع الأسرى، فأنا أعلم ما يستهوي المساجين. كان السيد ڤان بيرل المسكين يستمتع بزراعة هذه البصيلة. حسنًا! أقول إن هناك قسوة في حرمانه من هذه التسلية.

قال والدي:

- لكن أولًا، كيف حصل على هذه البصيلة؟ أعتقد أنه من الجيد معرفة مصدرها.

نظرت بعيدًا لتجنب نظرة والدي. لكني قابلت عيني يعقوب. بدا وكأنه يريد نقل أفكاري والولوج

إلى صميم قلبي.

غالبًا ما تعفيك حركة مزاجية من الإجابة. هززت كتفي وأدرت ظهري وسرت نحو الباب.

لكن استوقفتني كلمة سمعتها، رغم أنها كانت خافتة، لكني سمعت يعقوب يقول لوالدي، بالطبع، ليس من الصعب التأكد!

- كيف ذلك؟

- يجب تفتيشه. وإذا كان لديه الفصوص الأخرى، فسنجدها، لأنها عادة ما تكون ثلاثة.

صاح كورنيليوس:

- ثلاثة! هل قال ثلاثة فصوص!

- أنت تدرك، لقد صدمتني الكلمة مثلك، فاستدرت.

كانا مشغولين معا لدرجة أنهما لم يتمكنا من الانتباه إلى حركتي.

لكن أبي قال:

- ربما لا يملك البصيلات.

- إذن أنزله من زنزانته لأي سبب كان، وخلال هذا الوقت، سأفتش غرفته.

قال كورنيليوس:

- عجبًا! عجبًا! شرير هذا السيد يعقوب.

- أخشى أنه كذلك.

أردف كورنيليوس حديثه مستغرقًا في أفكاره:

- أخبريني يا روزا.

- بماذا؟

- ألم تخبريني أن الرجل كان يلاحقك في اليوم الذي أعددت فيه طَنَفا لزرع الفص؟

- نعم.

- قلت إنه اندس مثل ظل وراء البيلسان؟

- دون شك.

- وأنه لم يتوقف عن مراقبة حركاتك بواسطة المجرفة؟

- لم يفلت حركة واحدة.

قال كورنيليوس شاحبًا:

- روزا.

- نعم!

- لست أنت من يتعقب.

- من يلاحق إذن؟

- لست أنت من يحب.

- ومن إذن؟

- إنه يلاحق فصّي؛ إنه يحب زنبقتي.

صاحت:

- عجبًا! الأمر كذلك؟

- هل تريدين التأكد؟

- وبأية طريقة؟

- حسنًا! الأمر سهل جدًا.

- قل!

- اذهبي إلى الحديقة غدًا. وحاولي، مثل المرة الأولى، ويجب أن يعرف يعقوب أنك ذاهبة إلى هناك! حاولي، مثل المرة السابقة، أن يتبعك؛ وتظاهري بزرع الفص، واخرجي من الحديقة، لكن انظري من خلال الباب، وسترين ما سيفعله.

- حسنًا! وماذا أفعل بعد ذلك؟

- بعد ذلك؟ مثلما سيتصرف، سنتصرف.

قالت روزا بحسرة:

- هكذا إذن!، تحب كثيرًا بصيلاتك يا سيد كورنيليوس.

قال السجين بحسرة:

- الواقع أنه منذ أن سحق والدك ذلك الفص السيئ الحظ، وأنا أشعر وكأن جزءًا من حياتي قد أصيب بالشلل.

قالت روزا:

- هون عليك! هل تود تجربة شيء آخر؟

- ماذا؟

- هل تريد قبول عرض والدي؟

- أي عرض؟

- سيعطيك المئات من بصيلات الزنبق.

- حقا.

- اقبل اثنتين أو ثلاثًا، وبين هاتين البصيلتين أو الثلاث، ستتمكن من غرس الثالثة.

قال كورنيليوس عابسًا:

- نعم، سيكون ذلك جيدًا لو كان والدك وحده؛ لكن هذا الآخر، هذا اليعقوب، إنه يراقبنا ...

قالت تلك الكلمات بابتسامة لا تخلو من سخرية.

- آه! صحيح؛ لكن فكر في الأمر! كما ترى أنت تحرم نفسك هنا، من تسلية كبيرة.

- في الواقع، فكر كورنيليوس للحظة، كان من السهل أن يلاحظ أنه يكافح ضد رغبة جامحة وقال برواقية مغرقة في القدم:

- حسنًا! لا! لا سيكون ضعفًا، سيكون جنونًا، سيكون جبنًا! إذا استسلمت هكذا إلى سوء حظ كله والغضب والحسد لآخر فرصة متبقية، فسأكون رجلاً لا يستحق المغفرة. لا، يا روزا، لا! غدا سوف نتخذ قرارًا بخصوص زنبقتنا. سوف تزرعينها حسب تعليماتي. أما بالنسبة للفص الثالث.

زفر كورنيليوس زفرة عميقة.

- أما الثالث فاحتفظي به في خزانتك! احتفظي به كما يحتفظ البخيل بقطعته الذهبية الأولى أو الأخيرة، وكما تحرس الأم ابنها، وكما يحتفظ المصاب بآخر قطرة دم في عروقه؛ احتفظي بها يا روزا! إحساس داخلي يخبرني أن فيه خلاصنا، وثروتنا! احتفظي به! وإذا سقطت نيران السماء على لويفستين، أقسمي لي يا روزا أنه بدلاً من خواتمك، وبدلاً من جواهرك، وبدلاً من تلك الخوذة الذهبية الجميلة التي تحيط بوجهك جيدًا، أقسمي لي يا روزا بأنك ستأخذين الفص الأخير الذي يحتوي على الزنبقة السوداء.

قالت روزا بمزيج لطيف من الحزن والوقار:

«كن مطمئنا، سيد كورنيليوس، كن مطمئنًا، رغباتك هي أوامر بالنسبة لي.

وأضاف الشاب وهو يزداد استثارة أكثر فأكثر:

- وحتى إن لاحظت أنك ملاحقة، وأن تصرفاتك تحت المراقبة، وأن محادثاتك تثير شكوك والدك أو هذا اليعقوب البشع المكروه؛ حينذاك، ضحّي بي على الفور يا روزا، أنا الذي لا يحيا إلا من خلالك، وليس له في العالم سواك، ضحّي بي، ولا تأتي لزيارتي.

شعرت روزا بانقباض قلبها في صدرها، فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت:

- وا حسرتاه!

سأل كورنيليوس:

- ماذا؟

- لاحظت شيئًا.

- ماذا لاحظت؟

قالت الفتاة الصغيرة وهي تجهش بالبكاء:

- أرى أنك تحب الزنابق كثيرًا، ولا يوجد مكان في قلبك لأي عاطفة أخرى.

وانطلقت الفتاة هاربة. وبعد مغادرتها أمضى كورنيليوس ليلة كانت من أسوأ الليالي التي قضاها على الإطلاق. كانت روزا غاضبة منه، وكانت على حق. قد لا تعود لرؤية السجين، ولن يعرف أخبارًا عنها، أو عن أزهار الزنابق.

الآن، كيف سنشرح هذه الشخصية الغريبة لمزارع الزنبق المثالي كما هي موجودة في هذا العالم؟ لنعترف أن بطلنا البستاني، شعر بالخجل من حبه المزدوج، لأن الحب الذي يدفعه للندم، كان حبه لروزا، وعند حلول الثالثة صباحًا كان قد نام، منهكًا من شدة التعب، ومُنكّدا من القلق، ومُعذّبا بالندم، مفسحًا الطريق للزنبقة السوداء العظيمة لتحتل مكانة كبيرة في أحلامه، عوض عيني الشقراء الزرقاوين والأكثر وداعة.

الفصل التاسع عشر

المرأة والزهرة..

لكن روزا المسكينة، المحبوسة في غرفتها، لم تستطع معرفة بمن أو بما كان يحلم كورنيليوس.

وقد استخلصت النتيجة انطلاقًا من كلامه، فكانت تميل تمامًا إلى الاعتقاد بأنه يحلم بزنبقته أكثر من حلمه بها، لكن روزا كانت مخطئة.

ومادام لا أحد يمكنه أن يخبر روزا بأنها مخطئة، ولأن كلمات كورنيليوس المتهورة كانت تسقط على روحها مثل قطرات السم، فإن روزا لم تكن تحلم، بل كانت تبكي.

في الواقع، بما أن روزا كانت كائنا ذا روح سامية، وذات إحساس مستقيم وعميق، فإنها كانت تنصف نفسها بنفسها، ليس فيما يتعلق بصفاتها الأخلاقية والجسدية، ولكن فيما يتعلق بوضعها الاجتماعي.

كان كورنيليوس عالمًا، وثريًا، أو على الأقل كان كذلك قبل مصادرة ممتلكاته؛ كما أنه ينتمي إلى تلك البرجوازية التجارية، التي كانت أكثر فخرًا بمتاجرها ذات العلامات التجارية، والتي تشكل سلالة من النبالة. لذلك يمكن لكورنيليوس أن يجد في روزا تسلية جيدة، ولكن عندما يتعلق الأمر بما يشغف قلبه، فإنه بالأحرى سيكون الزنبقة، أي سيكون عشقه لأنبل الأزهار وأكثرها فخراً وليس لروزا المتواضعة ابنة السجان.

فهمت روزا إذن هذا التفضيل الذي أعطاه كورنيليوس للزنبقة السوداء، لكنها كانت أكثر يأسًا فقط لأنها فهمت ذلك.

لذلك اتخذت روزا قرارًا خلال تلك الليلة الرهيبة، ليلة السهاد الطويل.

كان هذا القرار ألا تزور كورنيليوس مرة أخرى.

ولكنها كانت تدرك رغبة كورنيليوس الشديدة بالحصول على أخبار تخص زنبقته، ومادامت تعرف جيدًا أن تقف أمام رجل تشعر أن شفقتها تزداد تجاهه إلى درجة أن هذه الشفقة اجتازت نفسها وأصبحت تتجه بخطى ثابتة نحو الحب؛ ولكن بما أنها لم تكن ترغب في أن ترى يأس هذا الرجل، فقد عقدت العزم على الاستمرار بمفردها في دروس القراءة والكتابة التي بدأتها، ولحسن الحظ أنها وصلت إلى نقطة في تعلمها لم يعد فيها وجود المعلم ضروريًا لها، حتى وإن كان هذا المعلم يطلق على نفسه اسم كورنيليوس.

لذلك بدأت روزا تقرأ بضراوة الكتاب المقدس الذي كان بحوزة المسكين كورنيْ دو وايت، والذي يبتدئ بالورقة الثانية، وكما نعلم فالورقة الأولى مزقت، وعلى الورقة الثانية كتبت وصية كورنيليوس ڤان بيرل.

همست وهي تعيد قراءة هذه الوصية التي لم تكملها أبدًا دون دمعة، تتدحرج لؤلؤة الحب، تتدحرج من عينيها الصافيتين على وجنتيها الشاحبتين:

- آه! آه! في ذلك الوقت، للحظة اعتقدت مع ذلك أنه يحبني.

روزا المسكينة! كانت مخطئة. لم يكن حب السجين أكثر واقعية مما كان عليه، منذ ذلك الحين

قلنا ذلك ففي خضم حيرة الصراع بين الزنبقة السوداء العظيمة وروزا، فقد كانت الزنبقة السوداء العظيمة هي الخاسر الأكبر.

لكن روزا، نكرر ذلك، لم تكن على دراية بهزيمة الزنبقة السوداء العظيمة؛ لذلك عندما انتهت من قراءتها، وهي العملية التي أحرزت فيها روزا تقدمًا كبيرًا، هل ستحمل الريشة وبتصميم جدير بالثناء للشروع في الكتابة وهي العملية الأكثر صعوبة؟

بإصرار وشجاعة شرعت روزا في الكتابة أملًا بأن تبلغ السجين أنباء جيدة عن زنبقته.

لم تنس أي كلمة من التعليمات التي قدمها لها كورنيليوس. إضافة إلى ذلك، لم تنس روزا أبدًا أية كلمة مما قاله لها كورنيليوس، حتى عندما لا يتخذ ما قاله لها شكل توصية.

أما بالنسبة لكورنيليوس فقد استيقظ أشد حبًا من أي وقت مضى. كانت الزنبقة لا تزال مشرقة وحيّة في ذهنه. لكنه أخيرًا ما عاد يراها كنزًا يمكن أن يضحي من أجله بكل شيء، بينما روزا، التي تشبه زهرة ثمينة، فهي مزيج رائع من الطبيعة والفن، وهبة منحه إياها الرب.

لكنه ظل طوال اليوم يطارده قلق غامض. لقد كان من هؤلاء الرجال الذين يملكون ذهنًا قويًا بما يكفي لينسَوا لحظات الخطر الكبير الذي يهددهم في ذلك المساء أو في اليوم التالي. وبمجرد التغلب على القلق، سيعيشون حياة عادية. لكن من وقت لآخر، هذا الخطر المنسي سيعض فجأة قلوبهم بأسنانه الحادة، فيجفلون مرتعدين، ويتساءلون لماذا جفلوا، حينذاك يتذكرون ما نسَوه جميعه، فيقولون بحسرة:

- عجبًا! صحيح، هذا ما نخشاه!

وكان ما يخشاه كورنيليوس ألا تأتي روزا كالمعتاد في ذلك المساء. وبمرور الليل، ازداد قلقه أكثر فأكثر، حتى استحوذ هذا التخوف أخيرًا على جسد كورنيليوس كليًا، ولم يعد إلا وجود روزا ما يعشعش بداخله. وبنبض قلب طويل استقبل أيضًا الظلام. ومع كثافة الظلام، عادت الكلمات التي قالها لروزا في الليلة السابقة، والتي أحزنت الفتاة المسكينة كثيرًا، إلى ذهنه بوضوح أكبر؛ وتساءل كيف كان بإمكانه أن يطلب من مداوية جراحه بأن تضحّي به من أجل الزنبقة، أي أن تتخلى عن رؤيته إذا لزم الأمر، بيد أن رؤية روزا أصبحت ضرورة في حياته. في غرفة كورنيليوس، كان من الممكن سماع دقات ساحة الحصن وهي تدق معلنة السابعة، الثامنة، ثم التاسعة.

لم يحدث قط أن اهتزت أجراس البرونز بقوة أكبر في أعماق قلبه كما فعلت المطرقة التي دقت الضربة التاسعة للدلالة على التاسعة. ثم ساد الصمت في الأرجاء كلّها. وضع كورنيليوس يده على قلبه لخنق دقاته، وأصاخ السمع. كان صوت خطى روزا، وحفيف فستانها على درجات السلم، مألوفًا جدًا لديه، لدرجة أنه كان يقول عند أول خطوة لها:

- ها هي روزا قادمة.

في ذلك المساء لم تعكر أيّ ضوضاء صمت الممر. دقت الساعة عند التاسعة والربع؛ وبصوتين مختلفين أعلنت التاسعة والنصف؛ ثم التاسعة وخمسة وأربعين؛ ثم أشارت أخيرًا بصوت حاد ليس فقط لنزلاء القلعة، ولكن أيضًا لسكان لويفستين، أن الساعة تشير إلى العاشرة ليلًا.

كان هذا هو الوقت الذي تترك فيه روزا كورنيليوس عادة. حانت الساعة ولم تأت روزا بعد.

وهكذا تحقق ما استشعره: روزا، غاضبة، حبست نفسها في غرفتها، وتخلت عنه.

- أوه! قال كورنيليوس إنني استحق ما يحدث لي. أوه! لن تأتي. فعلت حسناً. في مكانها، سأفعل الشيء نفسه.

وعلى الرغم من ذلك، استمر كورنيليوس في إصغاء السمع والانتظار والرجاء.

استمع وانتظر حتى منتصف الليل. ولكن عند منتصف الليل توقف عن الأمل، وألقى بنفسه على سريره بكامل ملابسه.

كان الليل طويلًا وحزينًا، ثم جاء النهار. ولكن اليوم لم يحمل للسجين أدنى أمل.

في الثامنة صباحًا فُتح الباب. ولكن كورنيليوس لم يدر حتى رأسه. كان قد سمع خطوات غريفوس الثقيلة في الممر، غير أنه شعر وكأن هذه الخطوة تقترب من تلقاء نفسها، فلم يعر السجان أدنى اهتمام. ومع ذلك كان يرغب أن يسأله عن روزا. كان على وشك أن يسأله، وإن بدا السؤال غريبًا بالنسبة لوالدها، فقد كان يأمل بأنانية أن يخبره غريفوس أن ابنته مريضة.

إن لم يحدث شيء غير عادي، فروزا لن تأتيَ أبدًا خلال النهار. لهذا فإن كورنيليوس، لن ينتظر حقًا مادام النهار مستمرًا. ومع ذلك، فإن ارتجافه المفاجئ، وترقبه للأصوات القادمة من وراء الباب، ونظرته الخاطفة التي تُسائِل شباك الباب، جعلت السجين يأمل أملًا ضعيفًا أن تكسر روزا عاداتها.

في الزيارة الثانية لغريفوس، طلب كورنيليوس، على الرغم من الحوادث السالفة، من السجان العجوز، بألطف نبرة، أخبارًا عن صحتها؛ لكن غريفوس بصرامة، ومثل جندي إسبرطي، اقتصر على إجابة مقتضبة:

- الامور على ما يرام.

في الزيارة الثالثة، غير كورنيليوس من طريقة السؤال:

- هل يوجد مريض في لويفستين؟

- لا أحد!

رد غريفوس باقتضاب أكثر من المرة الأولى، وأغلق الباب في وجه السجين.

لم يكن غريفوس معتادًا على مثل هذه المعاملة اللطيفة من كورنيليوس، فقد رأى في سجينه بداية محاولة لرشوته.

وجد كورنيليوس نفسه وحيدًا. كانت الساعة السابعة مساء. ثم تجددت المخاوف بضراوة أكثر حدة من اليوم السابق.

ولكن، كما في اليوم السابق، مرت الساعات دون أن يظهر الوجه النضر الجميل، من وراء الشباك ليضيء زنزانة كورنيليوس المسكين، ذلك الإشراق الذي يمكث طوال فترة غيابها.

أمضى ڤان بيرل الليلة في يأس تام. في اليوم التالي، جاء غريفوس أكثر قبحًا، وأشد وحشية، وأكثر تيئيسًا من المعتاد: لقد خطرت في ذهن كورنيليوس، أو بالأحرى في قلبه، أن السجان من يمنع روزا من المجيء.

كان يشعر بدافع شرس ليخنق غريفوس. لكن هذه الجريمة ستدفع القوانين الإلهية والبشرية جميعها إلى منع روزا من رؤية كورنيليوس، وإلى الأبد هذه المرة.

لهذا نجا السجان، دون أن يدري أنه كان سيواجه أكبر خطر في حياته.

حلّ المساء وتحول اليأس إلى حزن. ورغمًا عن ڤان بيرل فقد كانت هذه الكآبة أكثر عتمة بحيث اختلطت ذكريات الزنبقة المسكينة بالألم الذي كان يشعر به. لقد وصلنا إلى ذلك الوقت من شهر أبريل الذي يشير إليه معظم البستانيين الخبراء على أنه اللحظة الحاسمة لزراعة أزهار الزنبق. كان قد قال لروزا:

- سأخبرك باليوم الذي يجب أن تغرسي فيه الفَصّ في التراب.

كان من المقرر أن يحدد ذلك اليوم، في مساء اليوم القادم. كان الطقس جيدًا، والجو، ورغم استمرار الرطوبة قليلًا، إلا أنه بدأ في الاعتدال على إثر أشعة شمس أبريل الشاحبة التي تبدو غاية في العذوبة، على الرغم من اصفرارها. إذا كانت روزا ستدع وقت الزراعة يمضي! إذا كان ألم غياب الفتاة سيضاف إلى ذلك رؤية الفص يجهض، لأنها زرعته بعد فوات الأوان، أو حتى لأنها لم تزرعه على الإطلاق!

كان في هذين الألمين المشتركين ما يكفي بالتأكيد لفقدان شهية الطعام والشراب.

وهذا ما حدث في اليوم الرابع.

كان من المحزن أن نرى كورنيليوس، أخرسَ من شدة الألم وشاحبًا بسبب الجوع، وهو يتكئ خارج النافذة المحظورة، معرضًا نفسه لخطر ألا يتمكن من سحب رأسه من بين القضبان، في محاولة يائسة لرؤية الحديقة الصغيرة على اليسار. الحديقة التي حدثته روزا عنها، والتي كان حاجزها محصورًا، كما أخبرته بذلك، ثم يشرئب نحو النهر على أمل اكتشاف عشقيه المحطمين: الفتاة أو الزنبقة، تحت أشعة شمس أبريل الأولى.

في المساء حمل غريفوس غداء وعشاء كورنيليوس. كان هذا الأخير لم يكد يأكل منهما شيئًا.

في اليوم التالي لم يلمس طعامه إطلاقا، فرمى غريفوس طعام هاتين الوجبتين السليمتين تمامًا. لم ينهض كورنيليوس من فراشه طوال اليوم.

فقال غريفوس وهو ينزل بعد الزيارة الأخيرة:

- حسنا؛ حسنًا، أعتقد أننا سنتخلص من العالِم.

جفلت روزا.

قال يعقوب:

- عجبًا! وكيف ذلك؟

قال غريفوس:

- إنه لا يشرب، ولا يأكل، ولا ينهض.

- سيخرج من هنا، مثل السيد غروتيوس في صندوق، لكن هذا الصندوق سيكون تابوتًا.

أصبحت روزا شاحبة كالميّتة وهمست لنفسها:

- حسنًا! فهمت، إنه قلق بشأن زنبقته.

هبت من مكانها وعادت إلى غرفتها مستعجلة، حيث أخذت ريشة وورقة، وطوال الليل تدربت

على كتابة الرسائل.

في اليوم التالي، عندما نهض مجرجرًا نفسه ناحية النافذة، رأى كورنيليوس قطعة من الورق مدسوسة تحت الباب.

فهرع نحو هذه الورقة الصغيرة، وفتحها، وقرأ، بصعوبة تمكن من أن يتعرف على خط روزا، لقد تحسنت كثيرًا خلال غيابها الذي استغرق سبعة أيام:

- كن مطمئنًا، إن زنبقتك بحالة جيدة.

مع أن هذه الكلمة الصغيرة من روزا هدأت بعض آلام كورنيليوس، إلا أنه شعر بنوع من السخرية. هكذا كان الأمر، روزا لم تكن مريضة، روزا مجروحة؛ لم تعد روزا تأتي للضرورة، ولكن تعمدت الابتعاد عن كورنيليوس.

وهكذا، أصبحت روزا حرة ووجدت في إرادتها القوة لكيلا تأتي لرؤية الشخص الذي كان يُحتضَر حزنًا بسبب غيابها عن ناظريه. كان مع كورنيليوس ورقة وقلم رصاص سبق لروزا أن أحضرتهما له. لقد فهم أن الفتاة الصغيرة كانت تنتظر إجابة، ولكن هذه الإجابة لن تأتي للبحث عنها إلا في الليل. وبناءً عليه كتب على قطعة من الورق مماثلة لتلك التي حصل عليها:

«ليس قلقي على الزنبقة ما يجعلني أشعر بالمرض؛ بل حزني من أن لا أراك»

ثم خرج غريفوس، وعندما حل المساء دس الورقة تحت الباب وأرخى سمعه.

لكنه لم يسمع خطواتها ولا حفيف فستانها.

لم يسمع إلا صوتًا ضعيفًا كنفس، وليّنًا كمداعبة، قال له من خلف الشباك:

- إلى الغد.

وكان الغد هو اليوم الثامن. فقد مضت على كورنيليوس وروزا ثمانية أيام لم يريا بعضهما بعضًا.

الفصل العشرون

ما حدث خلال تلك الأيام الثمانية..

في اليوم التالي، في الساعة المعتادة، سمع ڤان بيرل حكًّا على الشباك، كما اعتادت روزا أن تفعل في الأيام الجميلة من صداقتهما.

نتصور أن كورنيليوس لم يكن بعيدًا عن الباب، الذي سيرى أخيرًا من خلاله الوجه الساحر، المفقود منذ فترة طويلة.

كانت روزا تنتظره حاملة فانوسها في يدها، وعندما رأت السجين حزينًا وشاحبًا جدًا، لم تستطع كبح انفعالها، فسألته:

- هل أنت مريض يا سيد كورنيليوس؟

أجاب كورنيليوس:

- نعم، يا آنستي، معاناة عقل وجسد.

قالت روزا:

- لاحظت يا سيدي أنك لم تعد تأكل؛ قال لي أبي إنك لا تنهض من فراشك؛ لذلك كتبت إليك لأطمئنك على مصير الشيء الثمين الذي يشغل بالك.

فقال كورنيليوس:

«وأنا قد أجبتك. ظننت عزيزتي روزا عند رؤيتك، أنك تلقيت رسالتي».

- هذا صحيح، لقد تلقيتها.

- لن تقدمي هذه المرة عذراً بأنك لا تعرفين القراءة. فأنت لا تتقنين القراءة فحسب، بل أنت أيضًا تقدمت كثيرًا فيما يتعلق بالكتابة.

- في الواقع، لم أستلم رسالتك فحسب، بل قرأتها. لهذا السبب جئت لأرى ما إذا كانت ثمة طريقة ما لتسترجع عافيتك.

هتف كورنيليوس:

- ستجعلينني بصحة جيدة! أنت إذن تحملين لي أخبارًا جيدة؟

كان الشاب يتحدث ناظرا إلى روزا بعينين متفحصتين ومشرقتين بالأمل. إما أنها لم تفهم هذه النظرة، أو أنها لم ترغب في فهمها، فأجابت الفتاة بجديّة:

- أنا فقط أريد أن أخبرك عن الزنبقة، وهي كما أعلم أهم ما يشغلك.

قالت روزا تلك الكلمات القليلة بنبرة جليدية جعلت كورنيليوس يرتعد. لم يفهم مزارع الزنبق المتحمس كلّ ما يختبئ، تحت حجاب لامبالاة هذه الصبية المسكينة التي ما زالت تعتقد أنها تخوض منافسة مع الزنبقة السوداء.

تمتم كورنيليوس:

- حسنًا !! يا إلهي! يا روزا، مرة أخرى، ألم أقل لك أني لا أفكر إلا فيك، ولن أندم إلا على فراقك، أنت وحدك من أفتقد، أنت وحدك، وبسبب غيابك، حرمتني من الهواء، والنهار، والحرارة، والنور، والحياة.

ابتسمت روزا بأسى وقالت:

- آه! هذا لأن زنبقتك تهددها خطر كبير.

جفل كورنيليوس مرغمًا، وترك نفسه يقع في الفخ إن كان فخًا حقًا. فصرخ مرتجفًا:

- خطر عظيم! يا إلهي وما هو؟

نظرت إليه روزا بشفقة وحنو، وشعرت أن ما تريده كان فوق طاقة هذا الرجل، وأنه يجب على المرء أن يتقبل ضعف الآخر.

وقالت:

- نعم، لقد عرفته مسبقًا، إنه المتظاهر بالحب، يعقوب، لم يأت من أجلي.

سأل كورنيليوس بقلق:

- ومن أجل من أتى؟

- قدم من أجل الزنبقة.

قال كورنيليوس وقد ازداد شحوبًا عند سماعه هذا الخبر أكثر مما كان شاحبًا عندما أخبرته روزا، عن طريق الخطأ، قبل أسبوعين أن يعقوب جاء من أجلها. رأت روزا وجهه المرعوب، ورأى كورنيليوس من ملامح وجهها أنها انتبهت إلى ما قاله للتو.

- عجبًا! عجبًا!

وأضاف:

- سامحيني يا روزا، أنا أعرفك، أنا أعلم طيب وصدق قلبك. لقد أعطاك الله العقل والحكم والقوة والحيوية للدفاع عن نفسك، لكن بالنسبة للزنبقة المسكينة المهددة، فالرب لم يمنحها شيئًا مما وهبك.

ولم تجب روزا عن اعتذار السجين وأردفت:

- منذ اللحظة التي لحقني فيها هذا الرجل إلى الحديقة وعرفت أنه يعقوب، زاد قلقي؛ لذلك فعلت ما أخبرتني به، في اليوم التالي للقائنا آخر مرة... قاطعها كورنيليوس صائحًا:

- آسف، مرة أخرى، يا روزا ما قلته لك كان خطًأ فادحًا. ولقد طلبت بالفعل عفوك عن هذه الكلمة القاتلة. ما زلت أسألك الصفح عما بدر مني. هل سيكون دائمًا بلا جدوى؟

قالت روزا:

- في اليوم التالي لذلك اليوم، تذكّرت ما قلته لي ... سأستعمل الحيلة للتأكد إذا كنت أنا أو الزنبقة التي كان هذا الرجل البغيض يطاردها...

قال كورنيليوس:

- نعم، بغيض ... أليس كذلك؟ أنت تكرهين هذا الرجل؟

قالت روزا:

- نعم، أنا أكرهه، لأني عانيت بسببه كثيرًا طيلة ثمانية أيام!

- آه! انت أيضًا عانيت؟ أشكرك على هذه الكلمة الطيبة يا روزا.

وأردفت روزا:

- في اليوم التالي لذلك اليوم المؤسف، نزلت إلى الحديقة، وسرت باتجاه المشتل حيث كنت سأزرع الزنبقة، بينما كنت أنظر خلفي، لرؤية إن كان هذا الرجل يتبعني.

سأل كورنيليوس:

- وماذا بعد؟

- حسنًا! اندسّ الظل نفسه بين الباب والحائط واختفى مرة أخرى خلف أشجار الخمان.

سأل كورنيليوس، متذكرًا بتفصيل كبير النصيحة التي قدمها لروزا:

- هل تظاهرت بعدم رؤيته، أليس كذلك؟

- نعم، وانحنيت على الموضع الذي حفرته باستخدام مجرفة صغيرة كما لو كنت سأزرع حقًا الفص.

- وهو... هو... ماذا فعل خلال هذا الوقت؟

- رأيت عينيه الناريتين مثل عيني النمر تلمعان بين أغصان الأشجار.

قال كورنيليوس:

- هكذا إذن.

- بعد ذلك، تصرفت وكأني أنهيت عملي، وانسحبت.

- لكنك قبعت خلف بوابة الحديقة لمراقبته، أليس كذلك؟ وحتى تتمكني من رؤية ما سيفعله عندما تغادرين.

- انتظر لحظة، بلا ريب، للتأكد من أنني لن أعود، ثم غادر مخبأه خلسة، واقترب من مشتل الزهرة بعد دورة طويلة، ثم وصل أخيرًا إلى هدفه، لقد وقف أمام المكان الذي نبشت تربته حديثًا، توقف بلا مبالاة، نظر في كلّ مكان، متقصيًا كلّ ركن من أركان الحديقة، وكل نافذة من المنازل المجاورة، والأرض، والسماء والهواء، ولما تأكد أنه وحيد وأعزل، وبعيد عن أنظار الجميع، اندفع نحو المشتل، وغرس يديه داخل التربة الناعمة، وأخذ جزءا وفتته بلطف بين يديه ليرى ما إذا كان الفص موجودًا، كرر مناورته ثلاث مرات، وفي كلّ مرة يقوم بذلك بانفعال وحماس، حتى بدأ يدرك أخيرًا أنه ربما وقع ضحية خدعة، فهدأ الهياج الذي كان يلتهمه، وأخذ المجرفة، وسوى التربة كي يتركها عند انصرافه في الحالة التي كانت عليها قبل أن يفتشها ثم توجه خجًلا ومحرجًا نحو الباب، منتحًلا سيماء من يقوم بنزهة معتادة.

همس كورنيليوس وهو يمسح قطرات العرق التي نزلت على جبهته:

- سحقًا! يا له من بائس. سحقًا! يا له من بائس، كنت قد حزرت ذلك. لكن يا روزا ماذا فعلت

بالفص؟ وا حسرتاه! لقد تأخرت قليلًا عن زراعته.

- لقد زرع الفص في التربة منذ ستة أيام.

صاح كورنيليوس:

- أين؟ وكيف فعلت ذلك؟ عجبًا! يا إلهي، ياللحماقة! أين هو؟ في أي تربة يوجد؟ هل هو مكشوف بشكل جيد أم بشكل سيئ؟ أليس ثمة خطر أن يسرقه منا يعقوب الشنيع؟

- لا يتهدده خطر السرقة منا، إلا إذا اقتحم يعقوب باب غرفة نومي بالقوة.

قال كورنيليوس مطمئنًا قليلًا:

- آه! يوجد عندك في غرفتك. لكن في أي تربة وفي أي وعاء؟ أنت لا تنبتينه في الماء مثل النساء الطيبات في هارلم ودوردريخت اللائي يصررن على أن الماء يمكن أن يحل محل التربة، كما لو كان الماء، الذي يتكون من ثلاثة وثلاثين جزءًا من الأوكسجين وستة وستين جزءًا من الهيدروجين، يمكن أن يحل مكان ... لكن ما هذا الذي أقوله لك الان، يا روزا!

أجابت الفتاة الصغيرة مبتسمة:

- نعم، بالنسبة لي هذا كلام علمي قليلًا، لذلك سأكتفي بالرد عليك، كي أطمئن قلبك، إن فصّك لم يستنبت في الماء.

- آه! طمأنت قلبي.

- إنه في وعاء حجري جيد، في عرض الجرة الذي غرست فيها فصك. إنه موجود في تربة مكونة من ثلاثة أرباع التربة العادية المأخوذة من أفضل جزء من الحديقة وربع تربة الشارع. أوه! لقد سمعت ذلك كثيرًا منك ومن ذلك اليعقوب الكريه، كما تسميه، عن نوعية التربة التي يجب أن تنمو فيها الزنابق، والتي أعرفها كأمهر بستاني في هارلم!

- آه! والآن بقيت مسألة عرضها تحت أشعة الشمس. ماذا فعلت يا روزا؟

- الآن أعرضها على الشمس طوال اليوم، في الأيام المشمسة. لكن عندما ستبرز من التربة، ستكون الشمس أكثر سخونة، سأفعل كما فعلت هنا في الزنزانة. سأعرضها من نافذتي في الصباح من الساعة الثامنة صباحًا حتى الساعة الحادية عشرة، وعلى نافذة أخرى عند غروب الشمس من الثالثة بعد الظهر حتى الخامسة زوالًا.

صاح كورنيليوس:

- حسنًا! هذا هو المطلوب، هذا هو المطلوب! وها أنت بستانية رائعة يا روزا الجميلة. ولكني أظن، أن زراعة الزنبقة ستستغرق كلّ وقتك.

قالت روزا:

- نعم، هذا صحيح، لكن لا يهم؛ لأن زنبقتك بمثابة ابنتي. سأعطيها الوقت الذي سأمنحه لطفلتي، إذا كنت أماً. وأضافت روزا مبتسمة، فقط عندما أصبح أمها، يمكنني التوقف عن أن أكون منافسة لها.

غمغم كورنيليوس:

- عزيزتي روزا الطيبة!

نظر إلى الصبية نظرة العاشق وليس نظرة البستاني، واست هذه النظرة روزا قليلًا. ثم بعد لحظة صمت، خلال هذا الوقت كان كورنيليوس يبحث بين الفتحات الموجودة في الشباك بحثًا عن يد روزا المبتعدة:

وأردف كورنيليوس:

- إذن، مضت ستة أيام بالفعل على غرس الفص؟

ردّت الصبية:

- نعم ستة أيام، يا سيد كورنيليوس.

- ولم تظهر بعد؟

- لا، لكني أعتقد أنه سيظهر غدًا.

- ليلة الغد، ستخبرينني عنه وعنك، أليس كذلك؟ أنا قلق جدًا على الابنة، كما قلت سابقًا؛ لكنني مهتم كثيرًا بالأم.

قالت روزا، وهي تنظر إلى كورنيليوس بطرف عينها:

- غدًا، غدًا، لكنني لا أعرف إن كنت قادرة على الحضور.

قال كورنيليوس:

- مهلًا! يا إلهي! لماذا لا تستطيعين المجيء غدًا؟

- السيد كورنيليوس، لدي آلاف الأشياء لأفعلها.

همس كورنيليوس:

- أما أنا فلديّ شيء واحد فقط.

ردت روزا:

- إذًا، أنت تحب الزنبقة.

- لا، أحبك يا روزا.

حركت روزا رأسها. وساد الصمت مرة أخرى.

وأردف كورنيليوس كاسرًا هذا الصمت:

- في النهاية، يتغير كلّ شيء في الطبيعة: تأتي بعد أزهار الربيع أزهار أخرى، ونرى النحل الذي يداعب البنفسج وأزهار القرنفل بحنان، بعد فترة يحطّ بالحب نفسه. فوق أزهار العسلة والورد والياسمين والأقحوان والجيرانوميا.

سألت روزا:

- ماذا يعني ذلك؟

- هذا يعني يا آنستي، أنك أحببت أولًا أن تسمعي قصة أفراحي وأحزاني؛ وداعبت زهرة شبابنا

المتبادلة. لكن زهرتي تلاشت في الظل. إن حديقة آمال وملذات السجين لا تدوم إلا موسمًا واحدًا. إنها ليست مثل تلك الحدائق الجميلة في الهواء الطلق وتحت الشمس. بمجرد الانتهاء من الحصاد في مايو، وبمجرد جمع المحصول، يحلق النحل مثلك، يا روزا، النحل بأجسامه الصغيرة، وقرون استشعاره الذهبية، وأجنحته الشفافة، تمر بين القضبان، وتهجر البرد، والوحدة، والحزن كي تسعى إلى مكان آخر للعثور على العطور والروائح الفاترة ... لتصل إلى السعادة، أخيرًا!

نظرت روزا إلى كورنيليوس بابتسامة لم يتمكن من رؤيتها؛ إذ كان شاردًا وعيناه تنظران إلى الأعلى.

وأردف متنهدًا:

- لقد تخليت عني يا آنسة روزا للتمتع بالفصول الأربعة. لقد أبليت حسنًا؛ أنا لا أشكو؛ بأي حق أطلب وفاءك؟

صرخت روزا وهي تبكي دون أن تتكبد عناء إخفاء تلك الدموع المتلألئة المنسابة على وجنتيها عن كورنيليوس:

- وفائي! ألم أكن مخلصة لك؟

صاح كورنيليوس:

- وا حسرتاه! هل إخلاصك لي، يعني أن تتركيني، أموت هنا وحدي؟

قالت روزا:

- لكن يا سيد كورنيليوس، ألم أفعل كلّ ما يرضيك؟» ألم أعتن بزنبقتك؟

- تشعرين بالمرارة، يا روزا! أنت تلومينني على البهجة الخالصة الوحيدة التي شعرت بها في هذا العالم.

- أنا لا ألومك يا سيد كورنيليوس، باستثناء الحزن العميق الوحيد الذي شعرت به منذ اليوم الذي قيل لي فيه في بوتنهوف أنك ستُقتل.

- أنت لا تحبين ذلك، يا روزا، يا حلوتي، أنت لا تحبين أن أحب الأزهار.

- أنا لا أكره أن تحبها يا سيد كورنيليوس؛ لكن يحزنني أنك تحبها أكثر مما تحبني.

صرخ كورنيليوس:

- آه! يا حبيبتي العزيزة، انظري إلى يدي وهي ترتجف، انظري إلى جبهتي وهي شاحبة، اسمعي، اسمعي قلبي وهو ينبض؛ حسنًا! ليس لأن الزنبقة السوداء هي التي تبتسم وتناديني؛ لا، لأنك أنت من يبتسم لي، لأنك تدنين جبهتك نحوي. وإذن -ولا أعرف ما إذا كان هذا صحيحًا -لأنهما يبدوان لي حتى خلال إبعادهما عني، فيداك تتوقان إلي يديّ، وأشعر بدفء خديك الجميلين خلف الشباك البارد. روزا، يا حبيبتي، حطمي فص الزنبقة السوداء، ودمري أمل هذه الزهرة، وأطفئي الضوء الناعم لهذا الحلم العفيف والساحر الذي اعتدت أن أحظى به كلّ يوم. فليكن! لا مزيد من الأزهار النفيسة، والنعم الأنيقة، والأهواء القدسية، جرديني من كلّ شيء، من زهرة تغار من أزهار أخرى، خذي كلّ ذلك، لكن لا تحرميني من صوتك، أو إيماءاتك، أو من صوت

خطواتك على الدرج الثقيل، لا تأخذي نور عينيك في الممر المظلم، ويقين حبك الذي يداعب قلبي على الدوام؛ أحبيني يا روزا لأنني أشعر بأني لا أحب سواك.

- بعد الزنبقة السوداء.

قالت الفتاة متنهدة ويداها دافئتان ومداعبتان، ثم وافقت أخيرًا على تسليم نفسها عبر السياج الحديدي إلى شفتي كورنيليوس.

- قبل أي شيء، روزا ...

- هل يجب أن أصدقك؟

- كما تؤمنين بالرب.

- حسنًا، هذا لا يعني أنك تحبني كثيرًا؟

- قليل جدًا للأسف يا روزا، لكن هذا يلزمك أنت.

سألت روزا:

- أنا وبماذا يلزمني ذلك؟

- أولًا بأن لا تتزوجي.

قالت مبتسمة:

- عجبًا! هكذا أنتم أيها الطغاة. تعشقون جميلة ولا تفكرون إلا فيها، ولا تحلمون إلا بسواها؛ وعندما يحكم عليكم بالموت، وأنتم تمشون إلى المقصلة، لا تمنحوها سوى زفرتكم الأخيرة، وتطلب مني، أنا الفتاة المسكينة، وتطالبني، بأن أضحي بأحلامي، وطموحي.

قال كورنيليوس منقبا في ذكرياته، ولكن دون جدوى، عن المرأة التي تلمح إليها روزا.

- ولكن من هي هذه الفتاة الجميلة التي تتحدثين عنها يا روزا؟

- إنها السوداء الجميلة، يا سيدي، السوداء الجميلة ذات القوام المرن والقدم النحيلة والرأس المكلل بالنبل. أنا أتحدث عن زهرتك.

ابتسم كورنيليوس أخيرًا:

- يا خيالي الجميل، يا روزا الطيبة، أنت ومن قبل أن يدخل يعقوب في حساب عشاقك كنت دائمًا محاطة بالعشاق. هل تتذكرين يا روزا ما قلته لي عن الطلاب والضباط والموظفين في لاهاي؟ وهنا في لويفستين، ألا يوجد كتبة ولا ضباط ولا طلاب؟

قالت روزا:

- بلى يوجدون، بل كثيرون أيضًا.

- يراسلونك؟

- يراسلونني.

- الآن يمكنك قراءتهم ...

وتنهد كورنيليوس عندما فكر بأنه هو السجين المسكين، من يحظى بهذا الامتياز مادامت روزا

تدين له بفضل قراءة الملاحظات الجميلة التي تتلقاها.

قالت روزا:

- حسنًا! لكن، يبدو لي، يا سيد كورنيليوس، أنه عند قراءة الرسائل التي تصلني من العشاق، فإنني لا أفعل سوى اتباع تعليماتك.

- ماذا تعنين بتعليماتي؟

واصلت روزا وهي تتنهد بدورها:

- نعم، تعليماتك. هل نسيت الوصية التي كتبتها على إنجيل السيد كورني دو وايت. أنا لم أنسها، لأنني الآن أستطيع القراءة، أعيد قراءتها كلّ يوم، وليس مرتين فقط. حسنًا! في هذه الوصية تأمرني أن أحب وأتزوج شابًا وسيمًا يتراوح عمره بين ستة وعشرين وثمانية وعشرين عامًا. أنا أبحث عن هذا الشاب، وبما أن نهاري كله مكرس للزنبقة، فيجب أن تتركني أبحث عنه في المساء لأجده.

- آه! يا روزا، الوصية كتبت تحسبًا لموتي، والشكر للرب، أنا ما زلت على قيد الحياة.

- حسنًا! إذن، لن أبحث عن هذا الشاب الوسيم بين سن السادسة والعشرين والثامنة والعشرين، وأحضر لرؤيتك.

- آه! نعم يا روزا تعالي! تعالي!

- لكن بشرط واحد.

- مقبول مقدمًا!

- خلال ثلاثة أيام لن تسألني عن الزنبقة السوداء.

- لن أسألك أبدًا إذا طلبت ذلك يا روزا.

قالت الفتاة:

- حسنًا! لا يجب أن نطلب المستحيل.

وكما لو كان الأمر سهوًا، قرّبت خدها اللطيف من الباب بحيث تمكن كورنيليوس من لمسه بشفتيه. أطلقت روزا صرخة صغيرة مليئة بالحب واختفت.

الفصل الحادي والعشرون

الفصّ الثاني..

كانت الليلة جيدة وأيضًا اليوم التالي كان أفضل.

في الأيام السابقة كان السجن أشد ثقلًا، وأكثر قتامة، وأقوى ضغطًا؛ كان السجين المسكين يرزح تحت ثقله الجسيم. وكانت جدرانه سوداء، وهواؤه باردًا، وكانت القضبان ضيقة بما يكفي لتسمح بمرور النهار.

ولكن عندما استيقظ كورنيليوس، كان شعاع شمس الصباح يتراقص بين القضبان؛ والحمام يخترق الهواء بأجنحته الممدودة، بينما يهدل الباقي بلطف على السطح المجاور للنافذة التي ما تزال مغلقة.

ركض كورنيليوس إلى هذه النافذة وفتحها، فتهيأ له أن الحياة والفرح والحرية تقريبًا دخلت مع هذا الشعاع الشمسي المشرق إلى الغرفة المعتمة، لأن الحب يزهر بداخلها فجعل كلّ شيء من حوله مزهرًا: الحب، زهرة السماء الأكثر إشراقًا، والشذا الأكثر عطرًا من أزهار الأرض كلّها.

عندما دخل غريفوس غرفة السجين، بدلًا من أن يجده كئيبًا ومستلقيًا مثل الأيام الأخرى، ألفاه واقفًا يغني نغمة أوبرالية صغيرة.

قال غريفوس

- ما هذا؟.

- كيف الحال هذا الصباح؟ قال كورنيليوس بينما نظر إليه غريفوس محدجًا.

- الكلب، والسيد يعقوب، وروزا الجميلة، كيف حالهم؟

صرّ غريفوس على أسنانه وقال:

- هذا غداؤك.

قال السجين:

- شكرا لك يا صديقي سيربيروس. وصل في الوقت المحدد، لأنني جائع جدًا.

قال غريفوس:

- عجبًا! أنت جائع؟

سأل ڤان بيرل:

- لم لا؟

قال غريفوس: «يبدو أنك تهيئ مؤامرة جيدة».

سأل ڤان بيرل:

- أية مؤامرة؟

- وإذن! نحن ندرك ما نتفوه به، لكننا سنراقب السيد العالم؛ لا تقلق، سوف نراقبك.

قال ڤان بيرل:

- راقب، أيها الصديق غريفوس! راقب! مؤامراتي، وأنا معها، وكلي في خدمتك

قال غريفوس:

- سنرى ذلك في الظهيرة.

وخرج.

كرر كورنيليوس:

- ماذا يقصد بساعة الظهيرة؟ إذن دعونا ننتظر حتى الظهيرة، وفي الظهيرة سنرى. كان من السهل على كورنيليوس أن ينتظر الظهيرة: لأن كورنيليوس لا يهمه إلا انتظار التاسعة مساء.

دقت ساعة الظهيرة، لم يسمع صوت خطى غريفوس على الدرج، فحسب، بل خطى ثلاثة أو أربعة جنود يصعدون رفقته.

فتح الباب، ودخل غريفوس، وأدخل الرجال، وأغلق الباب خلفهم.

- والآن سنفتشك.

فتشوا في جيوب كورنيليوس، بين سترته وصدريته، وبين صدريته وقميصه، بين قميصه ولحمه؛ فلم يعثروا على أي شيء.

بحثوا في الشراشف، في المراتب، في مرتبة السرير. لم يجدوا شيئًا.

حينذاك هنأ كورنيليوس نفسه، لأنه لم يحتفظ بالفص الثالث. من المؤكد أن غريفوس، كان سيجده بمثل هذا التفتيش الدقيق، مهما كان مختبئًا، وسيعامله معاملة الأول.

علاوة على ذلك، لم يشهد أي سجين قط تفتيشًا لزنزانته بوجه أكثر هدوءًا كما فعل كورنيليوس.

انسحب غريفوس مصادرا قلم الرصاص والورقات الثلاث أو الأربع من الورق الأبيض الذي أعطته روزا إلى كورنيليوس؛ كان هذا هو الفوز الوحيد لحملة التفتيش.

في الساعة السادسة، عاد غريفوس، لكن هذه المرة لوحده؛ أراد كورنيليوس أن يلاطفه. لكن غريفوس زمجر، وكشر، وتراجع، مثل رجل يخاف من إجباره على أمر.

عندها انفجر كورنيليوس ضاحكًا.

وهذا ما دفع غريفوس إلى الصراخ في وجهه من وراء البوابة:

- هذا جيد، هذا جيد؛ اضحك جيدًا سنرى من سيضحك أخيرًا.

الشخص الذي كان سيضحك أخيرًا، في تلك الليلة على الأقل، كان هو كورنيليوس، لأنه كان ينتظر روزا. جاءت روزا في الساعة التاسعة. لكنها قدمت دون فانوس. لم تعد روزا بحاجة إلى الضوء، أصبحت تعرف القراءة جيدًا.

كما يمكن للضوء أن يكشف روزا، التي يتجسس عليها يعقوب أكثر من أي وقت مضى.

ثم إن الضوء يمكّن من رؤية الكثير من تورد خدود روزا عندما يحمر وجهها خجلًا.

بماذا تحدث الشابان في ذلك المساء؟ تحدثا عن الأشياء التي يتحدث عنها العشاق على عتبة باب في فرنسا، على حافتي شرفة في إسبانيا، من شرفة عالية إلى الأسفل في الشرق.

تحدثا عن تلك الأشياء التي تضع أجنحة تحت أقدام الساعات، والتي تضيف ريشًا إلى أجنحة الزمن.

تحدثا عن كلّ شيء ما عدا الزنبقة السوداء.

ثم في الساعة العاشرة، كالعادة، افترقا.

كان كورنيليوس سعيدًا، سعيدًا تمامًا مثل بستاني زنابق لم يتحدث البتة عن زنبقته.

وجد روزا جميلة مثل كلّ المحبين على الأرض. ألفاها طيبة، وكريمة، وساحرة.

لكن لماذا تمنع روزا من الحديث عن الزنبقة؟

لقد كانت غلطة كبيرة ارتكبتها روزا. قال كورنيليوس لنفسه بحسرة أن المرأة ليست كاملة إطلاقا.

وفي فترة من الليل شرع يفكر في هذا النقص، وهذا يعني أنه طالما بقي مستيقظًا فإنه سيفكر في روزا.

وعندما استسلم للنوم، رآها في حلمه.

لكن روزا في الأحلام كانت أكثر كمالًا من روزا في الواقع. لم تتحدث هذه عن الزنابق فحسب، ولكنها جلبت لكورنيليوس زنبقة سوداء رائعة أيضًا، متفتحة في مزهرية صينية.

استيقظ كورنيليوس شديد الارتجاف فرحًا وطفق يهمهم:

- روزا، روزا، أحبك.

وبما أنها شقشقة النهار، لم يفكر كورنيليوس قط في العودة للنوم.

لذلك مكث طوال النهار متمسكا بالصورة التي رافقته مع الاستيقاظ. آه! لو تحدثت روزا عن أزهار الزنبق، لفضل كورنيليوس روزا على الملكة سميراميس، والملكة كليوباترا، والملكة إليزابيث، والملكة آن ملكة النمسا، وهذا يعني أعظم أو أجمل الملكات في العالم.

لكن روزا حظرت الكلام عن الزنبقة مهددة بالتوقف عن القدوم، مقترحة مهلة ثلاثة أيام وبعدها يمكنهما التحدث عن الزنبقة.

كانت المهلة الممنوحة اثنتين وسبعين ساعة، هذا صحيح؛ لكنها كانت اثنتين وسبعين ساعة مستقطعة من حياة البستاني.

صحيح أنه من بين تلك الساعات الاثنتين والسبعين، مرت ست وثلاثون ساعة بالفعل.

وستمر الست والثلاثون الأخرى بسرعة كبيرة، ثماني عشرة للانتظار، وثماني عشرة للتذكر.

عادت روزا في الوقت المحدد. كما أن كورنيليوس تحمل عقوبته ببطولة. كان من الممكن أن يكون كورنيليوس فيثاغورسيا ممتازًا، بشرط أن يُسمح له بالسؤال عن أخبار الزنبقة مرة واحدة كلّ يوم، لمكث خمس سنوات، وفقًا للأوامر المسنونة، دون التحدث عن شيء آخر.

علاوة على ذلك، فقد فهمت الزائرة الجميلة أنه عندما تأمر من جهة، عليك أن تستسلم من الجهة الأخرى. تركت روزا كورنيليوس يداعب أصابعها من خلال القضبان؛ وسمحت له بتقبيل شعرها عبر السياج.

يا للصبية المسكينة! كانت ملاطفات الحب هذه أكثر خطورة عليها من الحديث عن الزنابق.

أدركت ذلك عندما عادت إلى غرفتها، قلبها يقفز، وخداها ملتهبان، وشفتاها ناشفتان وعيناها مبللتان.

في المساء التالي، وبعد تبادل الكلمات الأولى، والمداعبات الأولى، نظرت إلى كورنيليوس من خلال السياج، وفي الظلام، نظرت إلى الشيء الذي تشعر به ولا تراه وقالت:

- حسنًا! لقد ارتفعت!

سأل كورنيليوس وهو لا يجسر على تصديق أن روزا ستقصر مدة اختبارها بنفسها:

- ارتفعت! ماذا؟ من؟

قالت روزا:

- الزنبقة.

صاح كورنيليوس:

- ماذا، هل تسمحين إذن ...؟

- هذا صحيح.

قالت روزا بنبرة الأم الحنونة التي سمحت لطفلها بأن يفرح فرحة جميلة.

قال كورنيليوس، وهو يمد شفتيه من خلال الشباك، على أمل أن يلمس خدها أو يدها أو جبهتها أو أي شيء آخر.

- آه! يا روزا!

لقد لمس أفضل من كلّ ذلك، إنه لامس شفتين منفرجتين.

صرخت روزا قليلًا، فأدرك كورنيليوس أنه يجب أن يُسرع لمواصلة الحديث. شعر أن هذه القبلة غير المتوقعة قد أخافت روزا بشدة.

فسأل:

- هل ارتفعت بشكل مستقيم؟

قالت روزا:

- مستقيمة مثل إفريز المغزل.

- وهل هي عالية جدًا؟

- بارتفاع بوصتين على الأقل.

- حسنًا! اعتني بها روزا جيدًا وستلاحظين مدى سرعة نموها.

قالت روزا:

- هل يمكنني الاعتناء بها أكثر؟ أنا لا أفكر إلا بالزهرة.

- تفكرين بها فقط، يا روزا؟ احذري، أنا أيضًا سأشعر بالغَيرة.

- مهلًا! أنت تعلم أن التفكير فيها يعني التفكير فيك. أنا لا أغفل عنها. من فراشي أراها؛ عندما أستيقظ، هي الشيء الأول الذي أنظر إليه؛ وعند النوم، تكون آخر شيء أتفقده. خلال النهار أجلس وأعمل بالقرب منها، لأنها توجد في غرفتي، وأنا لا أغادر غرفتي أبدًا.

- أصبت يا روزا هي مهرك، كما تعلمين.

- أجل، وبفضلها سأتمكن من الزواج من شاب يبلغ من العمر ستة وعشرين أو ثمانية وعشرين عامًا، الذي سأحبه.

- أصمتي، يا شريرة.

ونجح كورنيليوس في إمساك أصابع الفتاة، لكن ذلك لم يغير مسار المحادثة، ولكنه جعل الصمت يتخلل حوارهما. في ذلك المساء كان كورنيليوس أسعد الرجال. سمحت له روزا بالاحتفاظ بيدها التي لطالما تطلع لإمساكها، وتحدث عن الزنبقة بسهولة تامة. منذ تلك اللحظة، أصبح يحقق تقدمًا كلّ يوم بموضوع الزنبقة وفي شأن حب الشابين. بمجرد أن تفتحت الأوراق. وعلى إثر هذا الخبر، صار كورنيليوس سعيدًا جدًا، ومتابعة أسئلته بسرعة تشهد على أهميتها:

صاح كورنيليوس:

- هل هي معقودة! هل هي معقودة؟

كررت روزا:

- إنها معقودة.

ترنح كورنيليوس من الفرح واضطر إلى التراجع عن الشباك.

وصاح:

- آه! إلهي!

ثم رجع صوب روزا:

- هل شكلها البيضاوي متناسق؟ هل أسطوانتها ممتلئة؟ هل براعمها خضراء حقًا؟

- الشكل البيضاوي يساوي بوصة تقريبًا ويتناقص تدريجيًا مثل إبرة، بينما تتضخم جوانبها الأسطوانية، كما أن براعمها جاهزة للانقسام عند تفتحها.

في تلك الليلة، نام كورنيليوس قليلًا: ستكون لحظة عظيمة عندما تتفتح البراعم. بعد يومين، أعلنت روزا أنها تفتحت فعلًا.

هتف كورنيليوس:

- انفتحت يا روزا!،هل القُناب انفتح! ولكن بعد ذلك يمكننا أن نراها، يمكننا بالفعل تمييزها ...؟

وتوقف السجين عن اللهاث.

أجابت روزا:

- نعم، نعم، يمكننا تمييز شبكة من الألوان المختلفة، رفيعة كالشعرة.

قال كورنيليوس مرتجفًا:

– وماذا عن اللون؟

ردت روزا:

- آه! داكن جدًا.

- لون بني!

- حسنًا! إنه أشد قتامة.

- أشد قتامة، يا روزا الطيبة، أشد دكنة! شكرًا لك. داكن مثل خشب الأبنوس، مظلم مثل...

- داكن مثل الحبر الذي كتبت به رسالة لك.

أطلق كورنيليوس صرخة فرح مجنون. ثم توقف فجأة، وقال وهو يعقد يديه إلى بعضهما.

- حسنًا! لا يوجد ملاك يمكن مقارنته بك يا روزا.

قالت روزا مبتسمة بهذه الحماسة:

- حقا!

- روزا، لقد عملت بجد يا روزا، لقد فعلت الكثير من أجلي؛ روزا، زنبقتي سوف تزهر، زنبقتي سوف تزهر باللون الأسود! روزا، يا روزا، أنت أكمل ما خلق الرب على وجه الأرض!

- بعد الزنبقة، أليس كذلك؟

- آه! اسكتي أيتها الشريرة! اسكتي من فضلك لا تفسدي فرحتي! لكن أخبريني يا روزا، إذا كانت الزنبقة في هذه المرحلة، ففي غضون يومين أو ثلاثة على أبعد تقدير، سوف تزهر؟

- أجل غدًا أو بعد غد.

صرخ كورنيليوس وهو يتراجع إلى الخلف:

- يا إلهي!، وأنا لن أراها، ولن أقبلها كمعجزة ربانية يجب أن نحبها، كما أقبل يديك يا روزا، كما أقبل شعرك وأقبل خديك، عندما يكون بالصدفة قرب الشباك.

قرّبت روزا خدها هذه المرة ليس بالصدفة، بل بإرادتها؛ فالتقت شفاههما والتحمت بشراهة.

قالت روزا:

- أجل! سأقطفها إذا أردت.

- كلا! لا تفعلي! بمجرد أن تتفتح، ظلليها جيدًا يا روزا، والآن، وفورًا، أرسلي رسالة إلى هارلم لإخبار رئيس هيئة مزارعي الورود أن الزنبقة السوداء العظيمة قد أزهرت. أعلم أن هارلم بعيدة، لكن بالمال ستجدين رسولًا. هل لديك مال يا (روزا)؟

ابتسمت روزا وقالت:

- أجل معي!

سأل كورنيليوس:

- هل يكفي؟

- معي ثلاثمئة غيلدر.

- حسنًا! إذا كان معك ثلاثمئة غيلدر، فلا يجب أن ترسلي رسولًا، بل أنت نفسك، يا روزا، من يجب أن يذهب إلى هارلم.

- ولكن في غضون ذلك، ماذا عن الزهرة؟ ...

- أه! الزهرة، سوف تأخذينها معك. أنت تدركين أنه يجب ألا تنفصلي عنها لحظة.

قالت روزا بحزن:

- لكني إذا لم أنفصل عنها، فإني سأنفصل عنك يا سيد كورنيليوس.

- أجل! هذا صحيح يا حلوتي ويا عزيزتي روزا. يا إلهي! ما أقسى الناس! ماذا فعلت لهم؟ ولماذا يحرمونني من حريتي؟ أنت محقة يا روزا، لا أستطيع العيش دونك. حسنًا، سترسلين شخصًا إلى هارلم. إن المعجزة كبيرة لدرجة أن الرئيس سيزعج نفسه، وسوف يأتي بنفسه إلى لويفستين للبحث عن الزنبقة.

ثم توقف فجأة وقال بصوت خافت ومرتجف:

- روزا! روزا! إذا لم تكن سوداء؟

- هون عليك! سوف تكتشف ذلك غدًا أو بعد مساء غد.

- أأنتظر حتى المساء لأكتشف ذلك يا روزا! ... سأموت من الانتظار. ألا يمكننا الاتفاق على إشارة؟

- سأفعل ما هو أحسن.

- ماذا ستفعلين؟

- إذا أزهرت هذه الليلة، فسآتي على عجل وأخبرك بنفسي. إذا كان الوقت نهارًا فسوف أمشي عبر الباب وأدس لك قصاصة، إما من تحت الباب أو من خلال الكوة الصغيرة، بين تفتيش أبي الأول والثاني.

- أجل! يا روزا، هذا مناسب! كلمة منك تعلن الخبر، أي السعادة المضاعفة.

قالت روزا:

- ها هي العاشرة ليلًا، يجب أن أتركك.

قال كورنيليوس:

- نعم! نعم! نعم! هيا يا روزا اذهبي!

غادرت روزا حزينة تقريبًا.

بدا كورنيليوس وكأنه يطردها.
صحيح أنه كان يقصد أن تنصرف من أجل العناية بالزنبقة السوداء

الفصل الثاني والعشرون

الإزهار..

مرت الليلة بهدوء شديد، لكن بالنسبة لكورنيليوس كانت في الوقت نفسه غاية في الاضطراب. كان يتهيأ له في كلّ لحظة أن صوت روزا الناعم يناديه، فيستيقظ فزعًا، ويذهب إلى الباب، واضعًا وجهه قرب الشباك الحديدي؛ كانت الكوة شاغرة، والممر فارغًا.

لا شك أن روزا كانت تراقب من جانبها. لكنها كانت أسعد منه، فهي تحرس الزنبقة. كانت الزهرة النبيلة نصب عينيها، تلك أعجوبة العجائب، التي لا تعتبر مجهولة حتى الآن، ولكن يعتقد أنها مستحيلة الوجود.

ماذا سيقول العالم عندما يعلم أن الزنبقة السوداء قد اكتشفت، وأنها موجودة، وأن ڤان بيرل السجين قد وجدها؟

أقبل النهار دون أخبار. الزنبقة لم تزهر بعد.

ومر النهار شبيها بالليل. وعندما خيم الليل، ومع الليل جاءت روزا مبتهجة، كانت خفيفة كطير.

سأل كورنيليوس:

- ماذا لديك؟

- حسنًا! كلّ شيء يسير بشكل رائع. هذه الليلة دون خطأ سوف تزهر زنبقتك!

- ستزهر سوداء؟

- سوداء مثل الفحم.

- دون شائبة واحدة من لون آخر؟

- دون لطخة واحدة.

- يا هبة من السماء! يا روزا، قضيت الليل أحلم، بك أولًا ...

ندّت عن روزا علامة صغيرة من الريبة.

- ثم ماذا يجدر بنا القيام به.

- حسنًا؟

- أجل! هذا ما قررت، عندما تزهر الزنبقة، عندما يتبين أنها سوداء تمامًا، يجب أن تجدي رسولًا.

- إذا كان الأمر كذلك، فقد وجدت رسولًا.

- رسول موثوق؟

- رسول مضمون وهو أحد المغرمين.

- آمل ألا يكون يعقوب؟

- كلا، لا تقلق. إنه ربان قارب لويفستين، فتى يقظ، ما بين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين عامًا.

- العفريت!

قالت روزا ضاحكة:

- لا تقلق، إنه لم يبلغ بعد العمر الذي حددته أي بين السادسة والثامنة والعشرين عامًا.

- عموما هل تعتقدين أنه يمكنك الاعتماد على هذا الشاب؟

- تماما كما تعتمد عليّ، يمكن حسب اختياري، وإذا أمرته بذلك، أن يرمي بنفسه من قاربه إلى الفال أو المُوزْ.

- حسنًا، يا روزا، في غضون عشر ساعات يمكن لهذا الصبي أن يكون في هارلم؛ ستعطينني قلمًا وورقة، والأفضل أن يكون قلمًا وحبرًا، وسأكتب، أو بالأحرى ستكتبين؛ أنت، فأنا سجين مسكين، ربما سيرون، كما يرى والدك، أنها مجرد مؤامرة. سوف تكتبين إلى رئيس هيئة البستنة، وأنا متأكد من أن الرئيس سيأتي بنفسه.

- لكن ماذا لو تأخر الوقت؟

- افترض أن الأمر سيستغرق يومًا أو يومين؛ لكن من المستحيل، بالنسبة لعاشق زنابق مثله فلن يستغرق ساعة، ولا دقيقة، ولا ثانية ليبدأ رحلته من أجل رؤية الأعجوبة الثامنة في العالم. ولكن كما قلت، إذا تأخر يومًا واحدًا، وإذا تأخر يومين، فستظل الزنبقة في كامل روعتها. سيرى الرئيس الزنبقة، ويكتب تقريرًا، كلّ شيء قيل، فتحتفظين بنسخة مكررة من التقرير، ثم سلميه يا روزا الزنبقة. آه! لو كان بإمكاننا حملها بأنفسنا، يا روزا، فلن تفارق ذراعي إلا لتحط بين ذراعيك؛ لكنه حلم صعب المنال، وأردف كورنيليوس متحسرًا؛ سوف تراها عيون أخرى وهي تزهر. وا حسرتاه! قبل كلّ شيء، يا روزا، وقبل أن يراها الرئيس، لا تدعي أحدًا يراها. يا إلهي الزنبقة السوداء! إذا رأى أي شخص الزنبقة السوداء، فستُسْرقُ...

- عجبًا!

- ألم تخبريني بنفسك بما تخشينه من حبيبك يعقوب؟ من يسرق غيلدر، فلماذا لا يسرق مئة ألف؟

- سأحافظ عليها، هون عليك، ولا تقلق.

- وماذا لو أزهرت وأنت هنا؟

قالت روزا:

- المتقلبة قادرة تمامًا على ذلك.

- وماذا لو وجدتها متفتحة عند العودة إلى غرفتك؟

- حسنًا؟

- آه! يا روزا، إذا تفتحت، تذكري أنه لا ينبغي أن نضيع لحظة من أجل إعلام الرئيس

- وتحذيرك. نعم فهمت.

تنهدت روزا ولكن دون مرارة وكامرأة بدأت تفهم ضعفها وإن كانت لم تعتد عليه.

- سأعود إلى الزنبقة، سيدي ڤان بيرل، وبمجرد إزهارها، سأخبرك؛ وبمجرد إعلامك، سيغادر الرسول.

- روزا، يا روزا، لم أعد أعرف بأي تحفة ربانية سماوية أو أرضية أشبهك.

- شبهني بالزنبقة السوداء، يا سيد كورنيليوس، وأقسم أني سأكون سعيدة جدًا؛ دعنا نقول وداعًا، يا سيد كورنيليوس.

- حسنًا! قولي وداعًا يا صديقي.

قالت روزا، مواسية نفسها قليلًا.

- وداعًا يا صديقي.

- قولي: صديقي الحبيب.

- أوه! صديقي ...

- الحبيب يا روزا أتوسل إليك أيتها العزيزة الحبيبة، أليس كذلك؟

قالت روزا خافقة القلب منتشية بالفرح.

- الحبيب، أجل، الحبيب.

- إذن يا روزا، بما أنك قلت يا حبيبي، قولي أيضًا مباركًا، قولي سعيدًا لأنه لم يسبق لأحد أن كان سعيدًا ومباركًا تحت السماء مثلي. أنا بحاجة لشيء واحد فقط يا روزا.

- وما هو؟

- خدك، خدك الهادئ، خدك الوردي، خدك المخملي. آه يا روزا! بإرادتك، لم تعد مفاجأة ولا مصادفة يا روزا. أليس كذلك!

أنهى السجين رجاءه بحسرة. فقد التحمت شفتاه، للتو، بشفتي الفتاة الصغيرة، لم يعد من قبيل الصدفة، ولم يعد مفاجأة، حيث كان من المقرر أن تلتقي سان برو بعد مئة عام بشفاه جولي.

هربت روزا وبقيت روح كورنيليوس عالقة بشفتيه، ووجهه ملتصق بالشباك. كاد يختنق بالفرح ويشرق بالسعادة، فتح نافذته وحدق لفترة طويلة، بقلب مفعم بالفرح، تأمل السماء الزرقاء الصافية، والقمر الذي أضاء النهر المزدوج، المتدفق فوق التلال. وملأ رئتيه بهواء سخي ونقي، وعقله بأفكار حلوة، وروحه بامتنان وإعجاب ديني.

- عجبًا! ما زلت هنا، يا إلهي! صرخ نصف ساجد وعيناه متطلعتان بفارغ الصبر نحو النجوم. سامحني على شكي فيك في الأيام القليلة الماضية؛ كنت تختبئ خلف سحابك، للحظة لم أعد أراك، فاختفى أملي كله، سا عدني يا إلهي الصالح والأزلي والرحيم! ولكن اليوم ولكن الليلة ولكن الليلة أجل! فإني أراكما في مرآة سمائكما وقبل كلّ شيء في مرآة قلبي.

شُفي، الرجل المريض المسكين، كان حراً، يا للسجين المسكين!

خلال جزء من الليل بقي كورنيليوس عالقا بقضبان نافذته، وأذنه على الساعة، مركّزًا حواسه

الخمس في واحدة، أو بالأحرى في اثنتين فقط: فقد كان يشاهد ويصغي.

نظر إلى السماء، وأصغى إلى الأرض.

ثم من وقت لآخر يطل على الممر:

وقال:

- هناك، روزا تسهر مثلي، ومثلي تنتظر من دقيقة إلى دقيقة. هناك، أمام ناظريْ روزا، تلك الزهرة الغامضة، التي تحيا، وتنفتح، وتتفتّح؛ ربما في هذه اللحظة تمسك روزا ساق الزنبقة بين أصابعها الناعمة والدافئة. وتلمس روزا تلك الساق. ربما كانت تلمس كأس الزنبقة النصف المفتوح بشفتيها. المسيها برفق يا روزا. يا روزا، إن شفتيك حارقتان. ربما في هذه اللحظة، تداعب معشوقتيّ بعضهما بعضًا تحت أنظار الربّ.

في تلك اللحظة، سطع نجم في الجنوب، وعبر كلّ المساحة التي تفصل الأفق عن القلعة، وسقط فوق لويفستين.

فهتف كورنيليوس:

- عجبًا! ها هو الرب يرسل روحًا إلى زهرتي.

وكأنه قد خمّن فعلًا، ففي اللحظة نفسها تقريبًا، سمع السجين في الممر خطوات خفيفة، وكأنها للسلفات([1])، سمع حفيف رداء بدا له وكأنه خفق أجنحة وصوتًا معروفًا يقول:

- كورنيليوس، صديقي، صديقي الحبيب والسعيد جدًا، تعالى بسرعة.

قفز كورنيليوس قفزة واحدة من النافذة إلى الشباك الصغير. هذه المرة التقت شفتاه مرة أخرى بشفتي روزا الهامستين، التي قالت وهي تقبله:

- لقد أزهرت، إنها سوداء، ها هي!

صرخ كورنيليوس، وفصل شفتيه عن شفتي الفتاة:

- ماذا هل هي معك!

- أجل، أجل، يجب أن نجازف بخطر صغير لنهب فرحة عظيمة: ها هي، ها هي.

وبيد واحدة رفعت فانوسًا صغيرًا أصم إلى مستوى الشباك، ثم أضاءته؛ بينما رفعت الزنبقة المعجزة باليد الأخرى.

صرخ كورنيليوس وترنح كأنه سيفقد وعيه وقال هامسًا:

- آه! يا إلهي! يا إلهي! ها أنت تكافئني على براءتي وأساي، بأن جعلت هاتين الزهرتين تنموان أمام بوابة سجني.

قالت روزا:

- قَبّلها، كما قبّلتها منذ قليل.

حبس كورنيليوس أنفاسه، ولمس رأس الزهرة بأطراف شفتيه، فتغلغل إحساس فريد إلى قلبه لم يشعر بمثله حتى مع قبلات روزا.

كانت الزنبقة جميلة وبهية ورائعة؛ كان ارتفاع ساقها أكثر من ثماني عشرة بوصة؛ نبتت بين حضن أربع أوراق خضراء، ناعمة، مستقيمة كرؤوس حربة؛ كانت زهرتها سوداء كليًا، ومشرقة كالكهرمان الأسود.

قال كورنيليوس:

- روزا، يا روزا، ليس ثمة وقت لنضيعه، عليك أن تكتبي الرسالة.

قالت روزا:

- إنها مكتوبة يا حبيبي كورنيليوس.

- حقا!

- بينما كانت الزنبقة تتفتح، كنت أنا أكتب، لأنني لم أكن أريد أن أضيع لحظة واحدة. انظر ها هي الرسالة، وأخبرني إذا كانت صحيحة.

أخذ كورنيليوس الرسالة وقرأها، مكتوبة بأسلوب أحرزت فيه تقدمًا كبيرًا منذ القصاصة الصغيرة التي تلقاها من روزا:

سيدي الرئيس:

«ستزهر الزنبقة السوداء في غضون عشر دقائق على الأرجح. بمجرد تفتحها، سأرسل إليك رسولًا ليطلب منك الحضور واستلامها بنفسك في قلعة لويفستين. أنا ابنة السجان غريفوس، تقريبًا أسيرة كسجناء والدي. لذلك لن أكون قادرة على تقديم هذه الأعجوبة إليك. لهذا السبب أتوسل إليك أن تأتي، لتستلمها بنفسك.

«أمنيتي أن يكون اسمها روزا بيرلنسيس.

«أزهرت للتو؛ إنها سوداء تمامًا ... تعال سيدي الرئيس، تعال.

«يشرفني أن أكون خادمتك المتواضعة».

«روزا غريفوس»

- هذا صحيح، هذا صحيح يا عزيزتي روزا. هذه الرسالة رائعة. لم يكن بمقدوري كتابتها بهذه البساطة. في المؤتمر، ستقدم جميع المعلومات التي ستُطلب منك. سنعرف كيف ابتكرت الزنبقة، ونوع الرعاية والساعات والمخاوف التي ساعدت في خلقها؛ لكن، في الوقت الحالي، يا روزا، لا ينبغي أن نضيع لحظة ... إلى الرسول! الرسول!

- ما اسم الرئيس؟

- أعطني كي أكتب العنوان. حسنًا! إنه معروف. إنه السيد ڤان هِيرْسِنْ، عمدة هارلم ... ناوليني، يا روزا، ناوليني الرسالة.

وبيد مرتجفة، كتب كورنيليوس على الرسالة:

«إلى السيد بيترز ڤان هِيرْسِنْ، عمدة هارلم ورئيس هيئة مزارعي الأزهار»

وقال كورنيليوس:

- والآن، اذهبي يا روزا، اذهبي ولنضع نفسينا تحت رعاية الرب، الذي مازال يحفظنا جيدًا حتى

الآن.

دودة الكتب حرامية

الفصل الثالث والعشرون

الحسود..

في الواقع، كان الشابان المسكينان في حاجة ماسة إلى حماية مباشرة من الرب.

لم يكونا قط قريبين من اليأس أبدًا كما في هذه اللحظة بالذات عندما اعتقدا أنهما متأكدين من تحقيق سعادتهما.

لن نشك البتة في ذكاء قارئنا لدرجة الارتياب في أنه تعرف في يعقوب صديقنا القديم، أو بالأحرى عدونا القديم إسحاق بوكستيل أنه يقف لهما بالمرصاد وبذلك قد خمن القارئ أن بوكستيل لاحق من بوتنهوف إلى لويفستين موضوعيْ حبه وكراهيته:

الزنبقة السوداء وكورنيليوس ڤان بيرل.

لقد رأيناه، وهو أشد سعادة باسم يعقوب مما هو عليه تحت اسم إسحاق، ينسج صداقة مع غريفوس، الذي كافأه على امتنانه وكرم ضيافته لعدة أشهر بأفضل مشروب من العرعر الذي صنع في المنطقة الممتدة من تيكسل إلى أنفير.

كان ينيم شكوكه. لأننا رأينا أن غريفوس العجوز كان شخصًا شديد الارتياب. لهذا نقول إنه هدأ شكوكه بإشعاره بأنه سيتزوج من روزا.

بعد أن مدح كبرياءه كأب. كان يداعب غرائزه كسجان من خلال وصفه للسجين المتعلم الذي احتجزه غريفوس خلف القضبان بأحلك الأوصاف، مدعيًا أنه أبرم ميثاقًا مع الشيطان لإيذاء سمو أمير أورانج.

في البداية كان قد نجح أيضًا مع روزا، ليس من خلال إلهامها بمشاعر متعاطفة -لأن روزا لم تكن تستلطف السيد يعقوب إلا قليلًا -ولكن بواسطة حديثه لها عن الزواج والعاطفة المجنونة، كان قد أطفأ أولًا كلّ شك يمكن أن يساورها.

لكننا رأينا كيف أن تهوره خلال ملاحقة روزا في الحديقة قد حط من قيمته في نظر الفتاة الصغيرة، وكيف أن مخاوف كورنيليوس الغريزية قد جعلتهما يحتاطان منه.

وهذا ما أثار على الخصوص قلق السجين.

- يجب أن يتذكر القارئ هذا الأمر-لأن ذلك الغضب العظيم الذي استبد بيعقوب تجاه غريفوس، بسبب تدميره للفص.

في هذه اللحظة، صار الغضب أكبر، حيث اشتبه بوكستيل في أن كورنيليوس مازال يملك فصًا ثانيًا، وبذلك صار الأمر أكثر من مؤكد.

ساعتها شرع يتجسس على روزا مقتفيًا أثرها ليس في الحديقة فحسب، ولكن أيضًا في الممرات. هذه المرة كان يلاحقها طوال الليل حافي القدمين، بحيث لا يُرَى ولا يُسمع، باستثناء تلك اللحظة التي اعتقدت روزا أنها رأت شيئًا مثل الظل يمر على الدرج.

ولكن بعد فوات الأوان، فقد علم بوكستيل من السجين نفسه بوجود الفص الثاني.

وقد ساعدت حيلة روزا، التي تظاهرت بدفن الفص في الحديقة، فلم يشك في أن هذه الخدعة الصغيرة ستجبره على كشف نفسه، لهذا ضاعف من احتياطاته ووضع كلّ حيله العقلية موضع التنفيذ لمواصلة التجسس على الآخرين دون أن يكشف نفسه.

رأى روزا تحمل إناء خزفيًا كبيرًا من مطبخ والدها إلى غرفة نومها.

ولاحظ روزا تغسله، بماء وافر، ويداها الجميلتان ممتلئتان بالتراب الذي عجنته لتصنع أفضل مغرس ممكن للزنبقة.

وأخيرًا، استأجر، في العلية، غرفة صغيرة تطل على نافذة روزا مباشرة، بعيدة بما يكفي بحيث لا يمكن التعرف عليه بالعين المجردة، ولكن قريبة بما يكفي بحيث كان قادرًا بمساعدة منظاره على متابعة كلّ ما يحدث في لويفستين، وفي غرفة الفتاة الصغيرة، تمامًا كما كان يراقب في دوردريخت كلّ ما يحدث في غرفة كورنيليوس الخاصة بالتجفيف.

لم تمض سوى ثلاثة أيام على إقامته في العلية، حتى صار متيقنًا من ظنونه.

في الصباح عند شروق الشمس، لاحظ أن الإناء الخزفي كان موضوعًا على النافذة، ومثل هؤلاء النساء الساحرات في ميريس وميتسو، ظهرت روزا في هذه النافذة محاطة بأول الفروع الخضراء من الساق الزاحف وزهرة العسل.

كانت روزا تنظر إلى وعاء الخزف نظرة انبهار كشفت لبوكستيل عن القيمة الحقيقية للشيء الموجود في الوعاء.

ما كان يحتويه الوعاء إذن هو الفص الثاني، أي أمل السجين الأسمى.

عندما كانت الليالي تهدد بأن تمسي أشد برودة، كانت روزا تدخل الوعاء الخزفي.

هذا ما يجب أن تفعله؛ كانت تتبع تعليمات كورنيليوس بالحرف، فهي تخشى أن يتجمد الفص. عندما يصبح الطقس مشمسًا، تخرج روزا الوعاء الخزفي من الحادية عشرة صباحًا حتى الثانية بعد الظهر.

لقد كان ذلك ما يجب أن تفعله أيضًا: كان كورنيليوس يخشى من جفاف التربة.

ولكن عندما خرجت حربة الزهرة من التربة، اقتنع بوكستيل تمامًا؛ لم يكن ارتفاعها سوى بوصة واحدة، وبفضل منظاره، لم يعد الرجل الحسود يساوره أدنى شك بأن كورنيليوس يملك فصين، والثاني عُهد به إلى حب ورعاية روزا.

ولأن بوكستيل عاين حب الشابين، فقد فكر في إيجاد طريقة لانتزاع الفص من رعاية روزا ومن حب كورنيليوس.

لكن الأمر لم يكن سهلاً. لأن روزا تراقب زنبقتها كما ترعى الأم طفلها. بل أكثر من ذلك، فهي تفعل مثل حمامة تحضن بيضها. لم تغادر روزا الغرفة طوال اليوم. كان هناك المزيد، شيء غريب! لم تغادر روزا غرفتها خلال الليل.

تجسس بوكستيل طيلة سبعة أيام، على روزا دون داع؛ فروزا لم تغادر غرفتها. كان ذلك خلال السبعة أيام التي شهدت خلافهما وانفصالهما، وكان سببًا في أن يعيش كورنيليوس شقاء مرّا حرم خلاله من روزا والزنبقة.

هل ستغضب روزا من كورنيليوس نهائيا؟ وهذا ما أحال السرقة أكثر صعوبة مما أعتقده السيد إسحاق في البداية.

نقول السرقة، لأن إسحاق وضع خطة لسرقة الزنبقة؛ ولكن مادامت الزهرة تنمو في سرية تامة، والشابان أخفيا وجودها عن الجميع، كما أن الجميع يعلم أنه مزارع أزهار مشهور بينما الفتاة الصغيرة غريبة عن كلّ تفاصيل البستنة وكذلك السجين المحكوم بجريمة الخيانة العظمى، فهو محروس، ومراقب، وبذلك لا يمكنهما ادعاء امتلاك الزنبقة وبذلك سيكون مالك الزنبقة ولأن الحيازة دليل على الممتلكات، فمن المؤكد أنه سيحصل على الجائزة، وبالتأكيد سيتوج بدلاً من كورنيليوس. كما أن الزنبقة سيطلق عليها اسم الزنبقة السوداء بوكستينيليس أو بوكسيليا، بدل الزنبقة السوداء بارليونسيس.

لم يكن السيد إسحاق ثابتًا بعد على أي اسم سيطلقه على الزنبقة السوداء؛ ولكن بما أن كليهما يعني الشيء نفسه، لم تكن هذه هي النقطة المسألة المهمة.

كانت المسألة المهمة هي سرقة الزنبقة.

ولكن لكي يتمكن بوكستيل من سرقة الزنبقة، يجب أن تخرج روزا من غرفتها. لذلك استقبل يعقوب أو إسحاق، كما نحب أن نسميه، بفرح حقيقي استئناف مواعيدهما الليلية المعتادة.

بدأ باستغلال غياب روزا لمعاينة قفل بابها.

كان الباب مغلقًا جيدًا، بقفل بسيط، لكن روزا وحدها من تملك المفتاح.

فكر بوكستيل في سرقة المفتاح من روزا، ولكن لم يكن من السهل البحث في جيب الفتاة الصغيرة، وإذا أدركت روزا أنها فقدت مفتاحها فقد تغير القفل. ولن تغادر غرفتها حتى يستبدل القفل، وبذلك سيرتكب بوكستيل جريمة غير ضرورية.

من الأفضل استخدام وسائل أخرى.

جمع بوكستيل جميع المفاتيح التي أمكنه العثور عليها، وبينما كانت روزا وكورنيليوس يقضيان أحلى ساعات لقائهما قرب الشباك شرع هو بتجريبها جميعًا.

دخل اثنان إلى القفل، أحدهما أدار القفل دورة وتوقف عند الثانية.

لذلك كان المفتاح قريبًا من فتح الباب، فقام بوكستيل بتغليفه بطبقة خفيفة من الشمع وكرر التجربة.

لكن العائق الذي واجهه المفتاح في الدورة الثانية ترك بصماته على الشمع، فلم يحتج بوكستيل سوى اتباع هذه البصمة وبرده بسكين حادة.

وبعد يومين آخرين من العمل صنع مفتاحًا ممتازًا.

انفتح باب روزا بلا ضوضاء وبلا مجهود فوجد بوكستيل نفسه داخل غرفة الفتاة بمفرده أمام زهرة الزنبقة.

كانت أول جريمة ارتكبها بوكستيل هي صعوده فوق الحائط للنبش عن الزنبقة والثانية هي دخوله مجفف كورنيليوس من خلال نافذته المفتوحة؛ والثالثة اقتحامه غرفة روزا بمفتاح مزيف.

كما نرى، جعل الحسد بوكستيل يتقدم بخطوات سريعة في مسيرته الإجرامية.

إذن وجد بوكستيل نفسه وحيدًا أمام الزنبقة.

لو كان لصًا عاديًا لوضع الوعاء تحت ذراعه وحمله منسحبًا.

لكن بوكستيل لم يكن لصًا عاديًا، لهذا شرع يفكر.

فكر متأملًا وهو ينظر إلى الزنبقة مستعينا بضوء فانوسه المظلم الأصم، لكن الزهرة لم تكن نابتة بما يكفي ليتأكد يقينا بأنها ستزهر باللون الأسود، على الرغم من أن مظهرها كان يرجح ذلك.

فكر مرة أخرى في احتمال ألا تزهر كحلية أو أن تزهر مبرقشة بلون آخر فستكون سرقته بلا جدوى.

فكر أن شائعة هذه السرقة ستنتشر، وأن السارق سيُشتبه به، بناءً على ما حدث في الحديقة، سيتم التحقيق معه، وحتى وإن أخفى الزنبقة، فسيكون من الممكن العثور عليها.

أما إذا أخفى الزنبقة في مكان لا يعثر عليه، فيمكنه أن يلحقها ضرر بسبب نقلها في ظروف صعبة.

لقد فكر أخيرًا أنه من الأفضل، مادام يملك مفتاحا لغرفة روزا فيمكنه الدخول إليها متى شاء، وبذلك فمن الأفضل انتظار إزهارها، أو أخذها قبل ساعة، أو بعد ساعة من تفتحها، ويغادر على الفور دون تأخير إلى هارلم، قبل أن يدعي أي أحد ملكيته لها، ستكون الزنبقة أمام لجنة الحكام.

كانت الخطة محكمة التصميم، جديرة بمن وضعها.

لذلك كان كلّ ليلة، وخلال تلك الساعة الحلوة التي يقضيها الشابان جوار بوابة السجن، يدخل غرفة الفتاة، ليس لانتهاك حرمتها الطاهرة، ولكن لمتابعة النمو الذي تحرزه الزنبقة السوداء في مراحل إزهارها.

في تلك الليلة التي تحدثنا عنها، كان سيأتي مثل باقي الليالي؛ ولكن، كما رأينا، تبادل الشابان بضع كلمات فقط، وطلب كورنيليوس من روزا أن تذهب لمراقبة الزنبقة.

عندما لاحظ روزا تعود إلى غرفتها، بعد عشر دقائق من مغادرتها، أدرك بوكستيل أن الزنبقة قد أزهرت أو توشك على الإزهار.

جرى ذلك خلال الليلة التي سيحدث فيها كلّ شيء، لذلك ذهب بوكستيل إلى غريفوس حاملًا في كلّ من جيبي معطفه إمدادًا مزدوجًا من شراب العرعر المعتاد؛ مكون من قنينتين.

استسلم غريفوس إلى نوم عميق، فصار بوكستيل سيد المكان تقريبًا.

عند الساعة الحادية عشرة، كان غريفوس في حالة سكر، شبه ميّت. في الساعة الثانية صباحًا، رأى بوكستيل روزا تخرج من غرفتها، لكن من الواضح أنها كانت تحمل بحذر بين ذراعيها شيئًا ما.

كان هذا الشيء بلا شك الزنبقة السوداء التي أزهرت للتو.

- لكن ماذا كانت ستفعل به؟

هل كانت ستأخذها إلى هارلم الآن؟

لا يمكن لفتاة أن تقوم بهذه الرحلة وحدها في مثل هذا الليل.

هل تريد أن تُرِي الزنبقة لكورنيليوس؟ كان ذلك محتمل جدًا.

تبع روزا حافي القدمين يمشي على رؤوس أصابعه.

رآها تقترب من الشباك.

وسمعها تنادي كورنيليوس.

وتحت ضوء الفانوس الباهت، لمح الزنبقة متفتحة، سوداء مثل الليل، الذي يحجبها بين جناحيه.

كما استمع للخطة الكاملة بين كورنيليوس وروزا لإرسال رسول إلى هارلم.

ورأى الشابين يقبلان بعضهما بعضًا، ثم سمع كورنيليوس يطلب من روزا العودة سريعًا إلى غرفتها.

ورمق روزا تطفئ الفانوس الأصم وتعود إلى غرفتها. ثم رآها، بعد عشر دقائق، تخرج من غرفتها وتغلق الباب بعناية.

لماذا كانت تغلق هذا الباب بحذر شديد؟ كان ذلك بسبب وجود الزنبقة السوداء خلف ذلك الباب.

كان بوكستيل، الذي رأى كلّ شيء مختبئًا في صحن درج الطابق العلوي لغرفة روزا، نزل درجة واحدة من طابقه، عندما كانت روزا تنزل درجة واحدة من طابقها، بحيث عندما لمست روزا الدرجة السفلية من السلم بقدمها الخفيفة، قام بوكستيل، بيد أكثر خفة، بلمس قفل غرفة روزا وفي هذه اليد، يجب أن نفهم يوجد المفتاح المزيف الذي فتح باب روزا بسهولة كبيرة، لهذا قلنا في بداية هذا الفصل أن الشابين المسكينين كانا في حاجة ماسة إلى حماية مباشرة من الرب.

الفصل الرابع والعشرون

سارق الزنبقة السوداء..

مكث كورنيليوس حيث تركته روزا، باحثًا، عبثا في داخله عن القوة لتحمل عبء سعادته المزدوجة والغامرة. مرت نصف ساعة. وبدأت أشعة النهار الأولى تدخل بالفعل، مزرقة وباردة، متسللة من بين قضبان النافذة إلى سجن كورنيليوس، وفجأة ارتجف عند سماعه خطوات قادمة من الدرج وصيحات تدنو منه. في الوقت نفسه تقريبًا، التقى وجهه بوجه روزا الشاحب. فتراجع إلى الوراء، وامتقع وجهه خوفًا.

صرخت روزا لاهثة:

- كورنيليوس! كورنيليوس!

سأل السجين مذعورًا:

– يا إلهي! ماذا حدث؟

- كورنيليوس! الزنبقة ...

- ماذا حصل؟

- كيف يمكنني إخبارك بذلك؟

- قولي يا روزا قولي ماذا لديك.

- سلبونا إياها، سرقوها منا.

صاح كورنيليوس:

- سلبونا إياها، سرقوها منا!

قالت روزا وهي تستند على الباب كي لا تسقط أرضًا:

- نعم، نعم، نهبت، وسرقت!

ورغم محاولة تماسكها إلا أن ساقيها خذلتاها، فانزلقت وسقطت على ركبتيها.

سأل كورنيليوس:

- ولكن كيف حدث ذلك؟ قولي لي، اشرحي لي...

- وا حسرتاه! ما حدث ليس خطئي يا صديقي.

روزا المسكينة! لم تعد تجرؤ أن تنطلق كلمة: حبيبي.

قال كورنيليوس بنبرة متحسرة:

- تركتها وحيدة!

- لحظة فقط، عندما ذهبت لإخبار رسولنا الذي يقطن على بعد خمسين خطوة، على ضفة نهر الفال

- وخلال هذا الوقت، على الرغم من توصياتي، تركت المفتاح في الباب، أيتها الصبية الشقية!

- لا، لا، لا، المفتاح لا يفارقني أبدًا؛ كنت أحمله في يدي باستمرار، وأمسكه بإحكام كما لو كنت أخشى أن ينزلق من يدي.

- ولكن كيف حصل ذلك؟

- أنا بدوري لا أعرف؟ لقد أعطيت الرسالة إلى رسولي، ثم ذهب رسولي أمامي. عدت إلى غرفتي، كان الباب مغلقًا. وعندما دخلت. كان كلّ شيء في مكانه في غرفتي، باستثناء الزنبقة التي اختفت هناك شخص حصل على مفتاح غرفتي، أو صنع مفتاحًا مزيفًا.

كاد كورنيليوس يختنق وهو يجهش باكيًا، بلا حراك، ملامحه متجهمة، يستمع تقريبًا دون أن يفهم ما يقال، ثم غمغم:

- سرقت، سرقت، سرقت! لقد ضعت.

صرخت روزا:

- آه! يا سيدي كورنيليوس، عفوك! عفوك! سأموت.

عقب وعيد روزا، أمسك كورنيليوس بقضبان البوابة، ورجّها بغضب صارخًا:

- روزا لقد تعرضنا للسرقة، هذا صحيح، لكن هل يجب أن يهزمنا ذلك؟ لا، المصاب جلل، لكن ربما يمكن إصلاحه يا روزا؛ نحن نعرف اللص.

- وا حسرتاه! كيف تريدني أن أرد بالإيجاب؟

- حسنًا! أنا أقول لك، إنه يعقوب السافل. هل ندعه يأخذ لهارلم ثمار أعمالنا، ثمار تعبنا وسهرنا، ومولود حبنا. روزا، يجب أن نلاحقه، يجب أن تدركيه!

- ولكن كيف يمكنني أن أفعل كلّ هذا يا صديقي؟ كيف أستطيع وأنا المرأة المقيدة، والماهرة قليلًا، كيف سأحقق هذا الهدف، الذي ربما لن تحققه بنفسك؟

- روزا، روزا، افتحي لي هذا الباب، وسترين كيف سأصل إليه. سترين كيف سأكشف اللص؛ سترين كيف سأجعله يعترف بجريمته. سترين كيف سأجعله يبكي من أجل الرحمة!

قالت روزا وهي تنتحب:

- وا حسرتاه! أفتح لك الباب؟ وهل أملك المفاتيح؟ لو كانت معي، ألن تكون حراً منذ فترة طويلة؟

- والدك معه المفاتيح؛ والدك السافل، الجلاد الذي سحق زنبقتي الأولى. البائس، البائس اللعين! إنه شريك يعقوب.

- بحق السماء، إنها توجد في الطابق السفلي، في السفلي!

- آه! صرخ كورنيليوس بغضب شديد:

إذا لم تفتحي الباب يا روزا، فسأخترق هذا السياج الحديدي وأقتل كلّ من أجده في السجن.

- صديقي هون عليك.

- أقول لك يا روزا أنني سأهدم الزنزانة حجرًا حجرًا.

وطفق الرجل البائس، وقد ازداد غضبه عشرة أضعاف، يهز الباب بصوت عالٍ، غير مكترث لصراخه الذي كان يصدر رعدًا في أسفل الدرج الحلزوني. وعبثا حاولت روزا مرعوبة أن تهدئ هذه العاصفة الغاضبة.

صاح ڤان بيرل:

- أقول لك إنني سأقتل السافل غريفوس. أقول لك إنني سأريق دماءه، كما سفك زنبقتي السوداء.

بدأ الرجل البائس يصاب بالجنون.

قالت روزا واجفة:

- حسنًا، نعم، نعم، لكن اهدأ، أجل، سآخذ مفاتيحه، نعم، سأفتح لك الباب؛ نعم، ولكن اهدأ يا كورنيليوس.

ولم تكد تنهي كلامها، حتى سمعت صياحًا قادما من الأمام، فتوقفت عن الكلام.

هتفت روزا:

- أبي قادم!

زمجر ڤان بيرل:

- غريفوس! آه! ذلك الوغد!

صعد غريفوس العجوز، وسط كلّ هذه الضوضاء، دون أن يُسمع. أمسك ابنته من معصمها بقسوة.

وقال بصوت مختنق من شدة الغضب:

- حسنًا! ستأخذين مفاتيحي مني. حسنًا! وهذا الوحش الدنيء، هذا المتآمر الذي يجب شنقه كورنيليوس حبيبك! تبًا! أنت تتواطئين مع سجناء الدولة. هذا جيد!

صفقت روزا بكلتا يديها بيأس:

- سحقًا!

وتابع غريفوس منتقلًا من نبرة الغضب المحمومة إلى سخرية المنتصر الباردة:

- هكذا إذن! السيد بستانيّ الزنابق البريء، عجبًا! السيد العالم اللطيف، عجبًا! ستقتلني، مهلًا! وسوف تشرب من دمي! هذا ممتاز! وليس هذا فحسب! بل بتواطؤ مع ابنتي! رباه! أنا إذن في وكر لصوص، أنا اذن في مغارة اللصوص. تبًا! سوف يعرف الحاكم كلّ شيء هذا الصباح، وسيعرف صاحب السمو كلّ شيء غدًا. سنعرف عقوبة المتمردين في السجن.

سنقدم لك الأنموذج الثاني من بوتنهوف، سيدي، والنموذج الصحيح. نعم، نعم، ستقضم قبضتيك مثل دب مأسور في قفص، وأنت، أيتها الجميلة، التي تلتهمين كورنيليوس بعينيك. أحذركما، يا خروفيّ، لن أسمح لكما بعد الآن بالتآمر معًا. هيا لننزل أيتها البنت الفاسدة. وأنت أيها السيد العالم، إلى اللقاء؛ كن هادئًا وداعًا!

كانت روزا محمومة لفرط رعبها ويأسها، فأرسلت إلى صديقها قبلة؛ ثم، لا شك أن فكرة مفاجئة

خطرت ببالها، فقالت وهي تنزل الدرج:

- لم نفقد بعد كلّ شيء، اعتمد عليّ، يا كورنيليوس.

لحقها والدها وهو يصرخ.

أما بالنسبة لمزارع الزنابق المسكين، فقد ترك شيئًا فشيئًا البوابة التي كان يمسكها بأصابعه المتشنجة: شعر بدوران، وعيناه تتمايلان في تجويفيهما، وسقط بشدة على أرضية غرفته، وهو يهمهم:

- سرقت! لقد سرقت مني!

في هذه الأثناء، ترك بوكستيل القلعة عبر الباب الذي فتحته روزا بنفسها. وقد لف الزنبقة السوداء تحت معطف كبير، وألقى بنفسه داخل عربة كانت تنتظره في غوركوم، ثم اختفى، دون أن يخبر، كما يمكن أن نتخيل، صديقه غريفوس بمغادرته المستعجلة.

والآن بعد أن رأيناه يدخل عربته، سنتبعه، إذا وافق القارئ، حتى نهاية رحلته. كان يمشي ببطء. لم يرد الإسراع خوفًا على الزنبقة السوداء من حركة العربة. لكن بوكستيل، كان أكثر خوفًا من ألا تصل في وقت مبكر لهذا وضعها في صندوق صنعه في مدينة دلفت، وأحاطها بالطحلب الطازج الناعم، حيث وضع الزنبقة؛ كانت الزهرة محفوفة برخاوة من جميع الجوانب وهواء خفيف ينعشها يأتيها من فوقها، وبذلك كانت العربة قادرة على الركض دون أي ضرر محتمل.

وصل في صباح اليوم التالي إلى هارلم، منهكًا لكنه يشعر بالانتصار، قام بتغيير وعاء الزنبقة لمحو آثار السرقة كلّها، وكسر الوعاء الخزفيّ، وألقى شظاياه في قناة النهر، ثم كتب رسالة إلى رئيس هيئة البستنة. أخبره فيها أنه وصل لتوه إلى هارلم حاملًا معه زنبقة سوداء تمامًا، ثم استقر في أفضل نُزُل برفقة زهرته السليمة وانتظر هناك.

الفصل الخامس والعشرون

الرئيس فان هيرسين..

كانت روزا، عند مغادرتها لكورنيليوس، قد اتخذت قرارها بأن تعيد له الزنبقة التي سرقها منه يعقوب، أو لن تراه أبدًا مرة أخرى. لقد رأت يأس السجين المسكين، يأسًا مزدوجًا غير قابل للشفاء.

في الواقع كان من جهة انفصالًا لا مفر منه، لأن غريفوس اكتشف سر حبهما ولقاءاتهما. من جهة أخرى، كان ذلك بمثابة تحطيم لكل الآمال الطموحة التي آمن بها كورنيليوس ڤان بيرل، تلك الآمال التي عمل وسهر عليها طوال سبع سنوات.

كانت روزا من أولئك النسوة اللواتي لا يهزمنهن شيء، المفعمات بالقوة ضد أي محنة عظمى، يجدن في المصائب نفسها الطاقة التي يمكن أن تحاربها، أو المصدر الذي يمكنه أن يصلحها. عادت الفتاة الصغيرة إلى المنزل، وألقت نظرة أخيرة على غرفتها، لترى ما إذا كانت مخطئة، وإذا لم تكن الزنبقة مازالت في زاوية، لكنها لم تلحظها، روزا بحثت دون جدوى، فُقدت الزنبقة، سُرقت الزنبقة.

أعدت روزا رزمة صغيرة من الملابس الضرورية، وأخذت مدخراتها المقدرة بثلاثمئة غيلدر، وهذا يشكل ثروتها كلّها، بحثت تحت الدانتيل حيث دفنت الفص الثالث، وأخفته بعناية في صدرها، أغلقت بابها جيدًا لتأخير أطول مدة أي اقتحام لغرفتها، ولكيلا يُكتشف هروبها بسرعة، نزلت الدرج، وغادرت السجن، وذهبت إلى مُستأجَر خيول حيث طلبت استئجار عربة من تلك التي استقلها بوكستيل في الليلة المنصرمة وقادته عبر طريق ديلفت.

نقول عبر الطريق إلى دلفت، لأن الأمر استغرق انعطافة طويلة للانتقال من لويفستين إلى هارلم؛ لو نظرنا إلى المسافة بجناحي وعيني طائر فإن المسافة لن تستغرق سوى نصف الوقت. لكن الطيور هي وحدها من يمكنها السفر بسرعة في هولندا، مادامت هذه الأخيرة من الدول التي تخترقها الأنهار والجداول والوديان والقنوات والبحيرات بكثرة، لذلك أُجبرت روزا على ركوب حصان، كان من السهل أن يسلمها صاحبه إياه مادام يعرف روزا، بصفتها ابنة بواب الحصن. كانت روزا تأمل رجاءً واحدًا، وهو أن تلحق برسولها، الفتى الطيب والشجاع لكي يرافقها ويكون مرشدها وداعمها. في الواقع، لم تكد تقطع فرسخًا حتى رأته على أحد أطراف طريق ساحر يمتد على طول النهر.

دفعت حصانها في هرولة وانضمت إليه. كان الشاب الطيب يجهل أهمية رسالته، ومع ذلك كان يسير كما لو كان يعرف محتواها. في أقل من ساعة كان قد قطع فرسخًا ونصف. أخذت منه روزا الرسالة غير المجدية، وشرحت أنها في حاجة لمساعدته. وضع الملاح نفسه تحت تصرفها، ووعد بالسير بسرعة الحصان، بشرط أن تسمح له روزا بوضع يده إما على ردف الحيوان أو على كتفه. سمحت له الفتاة أن يضع يده أينما شاء بشرط ألا يؤخرها. كان المسافران قد غادرا بالفعل قبل خمس ساعات، وسافرا بالفعل أكثر من ثمانية فراسخ، ولم يكن الأب غريفوس يشك بعد في أن الفتاة الصغيرة قد غادرت القلعة فعلًا. علاوة على ذلك، كان السجان، وهو الرجل الشرير يستمتع في أعماقه بسعادة بثه رعبًا شديدًا في قلب ابنته.

وبينما كان مغتبطًا، لأنه سيروي هذه القصة الجميلة لرفيقه يعقوب، كان يعقوب أيضًا على الطريق إلى ديلفت. لكن بفضل عربته فقد تقدم على روزا والملاح، بأربعة فراسخ. وفيما كان يتخيل روزا مرتجفة أو منهارة في غرفتها، كانت روزا تطوي الطريق. لم تكن روزا تزور والدها كثيرًا منذ أن شرعت بالاعتناء بالزنبقة، ولم ينتبه غريفوس حتى وقت العشاء، حينما لاحظ أن ابنته تقاطعه منذ فترة طويلة. فأرسل في طلبها بواسطة أحد مساعديه؛ وعندما عاد هذا الأخير، معلنًا أنه بحث عنها عبثًا، لكنه لم يجدها. قرر غريفوس أن يبحث عنها ويدعوها بنفسه، فذهب مباشرة إلى غرفتها؛ طرق الباب بكل قوته، فلم تجب روزا، فاستدعى صانع الأقفال في السجن، فتح هذا الأخير الباب، لكن غريفوس لم يعثر على روزا مثلما لم تجد روزا الزنبقة.

كانت روزا، في تلك اللحظة، قد دخلت روتردام لتوها. لذلك لم يجدها غريفوس لا في المطبخ ولا في غرفتها، ولا في الحديقة. استشاط السجان غضبًا، عندما بحث في المنطقة، فعلم أن ابنته استأجرت حصانًا، ومثل برادامانتي أو كلوريندي، ذهبت مثل باحثة حقيقية عن المغامرات، دون أن تقول أو تفصح عن وجهتها.

صعد غريفوس غاضبًا إلى زنزانة ڤان بيرل، فأهانه، وهدده، وبعثر كلّ أثاثه الرديء، وتوعده بزنزانة انفرادية، وتوعده بالسرداب المظلم، والجوع والسوط. كان كورنيليوس يصغي إلى ما يقوله السجان دون أن يعترض على سوء المعاملة، والإهانة، والتهديد، مستسلمًا للكآبة، بلا حراك، محطمًا، دون إحساس، غير مبال لأي نوع من الخوف.

بعد أن بحث عن روزا في جميع الجهات، فتش غريفوس عن يعقوب، ولأنه لم يجده، فقد اشتبه في تلك اللحظة أن يعقوب من اختطفها. في تلك الأثناء، كانت الفتاة، قد توقفت مدة ساعتين في روتردام، ثم واصلت طريقها مرة أخرى. نامت في المساء نفسه في ديلفت، وفي اليوم التالي وصلت إلى هارلم، بعد أربع ساعات من وصول بوكستيل هناك.

اقتيدت روزا أولًا إلى رئيس هيئة البستنة، السيد فان هيريسن وجدت المواطن الجليل في وضعية لا يمكننا أن نغفل وصفها، دون أن نفشل في واجباتنا كرسامين ومؤرخين. كان الرئيس منهمكا في كتابة تقرير إلى لجنة الهيئة على ورق كبير وبخط الرئيس الأشد جمالا.

قدمت روزا نفسها باسمها البسيط روزا غريفوس؛ لكن هذا الاسم، رغم كونه رنانًا، لم يكن معروفًا لدى الرئيس، لهذا رفض زيارتها. كان من الصعب تجاوز الأوامر في هولندا، بلد الحواجز والأقفال. لكن روزا لم تثبط عزيمتها، فقد فرضت على نفسها مهمة، وأقسمت ألا ترضخ للهزيمة أمام الرفض أو الوحشية أو الإهانات. فقالت مخاطبة الخادم:

- أخبر الرئيس، إنني قادمة لأحدثه عن الزنبقة السوداء.

لم تكن هذه العبارة أقل سحرية من الكلمات الشهيرة: افتح يا سمسم، الواردة في ألف ليلة وليلة، كانت كافية لتفتح لها الأبواب. بهذه العبارة، دخلت مكتب الرئيس فان هيرسن، الذي وجدته في طريقه لمقابلتها بلطف. لقد كان رجلاً قصيرًا نحيف الجسم، يشبه بدقة ساق زهرة، بينما رأسه الغليظ يشكل كأسها، وله ذراعان غامضان ومعلقان يحاكيان ورقتا الزنبقة المزدوجتين والمستطيلتين، ويسير بتمايل معتاد بالنسبة لرجل يشبه هذه الزهرة حينما تهب عليها أنفاس الرياح.

ناداها السيد فان هيريسن قائلًا:

- آنسة، أتيت، كما تقولين، من أجل الزنبقة السوداء؟

كانت الزنبقة السوداء تمثل بالنسبة لرئيس هيئة البستنة، سلطة من الدرجة الأولى، والتي يمكن أن توفد سفراء بصفتها ملكة الزنابق.

أجابت روزا:

- نعم يا سيدي، جئت، على الأقل، لأحدثك عنها.

قال فان هريسن بإجلال وهو يبتسم ابتسامة لطيفة:

- هل هي على ما يرام؟

قالت روزا:

. – وا حسرتاه! يا سيدي، لا أعرف.

- كيف! هل حدث لها مكروه؟

- مكروه عظيم جدًا، نعم يا سيدي، ليس لها، ولكن لي.

- ما هو؟

- سرقوها مني.

- هل سرقوا الزنبقة السوداء؟

- نعم يا سيدي.

- هل تعرفين من هو السارق؟

- أوه! لست متيقنة من ذلك، لكني لا أجرؤ الآن على اتهامه.

- ولكن سيكون من السهل التحقق من ذلك.

- كيف؟

- منذ أن سُرقت منك، لن يكون السارق بعيدًا عنك.

- لماذا لن يكون بعيدًا؟

- لأنني رأيتها قبل ساعتين.

صاحت روزا مهرولة نحو السيد فان هيرسن:

- هل رأيت الزنبقة السوداء؟

- كما أراك الآن، يا آنستي.

- ولكن أين؟

- عند سيّدك، على ما يبدو.

- عند سيدي؟

- نعم. ألست خادمة السيد إسحاق بوكستيل؟

- أنا؟

- أنت بلا شك.

- ولكن من تظنني يا سيدي؟

- بل من تظنينني أنت؟

- سيدي، أحسبكم، وآمل ذلك، أنكم ما أنتم عليه، أي السيد فان هريسن، رئيس بلدية هارلم ورئيس هيئة البستنة.

- وبماذا تريدين أن تخبريني؟

- قدمت لأخبرك يا سيدي أن زنبقتي السوداء سُرقت مني.

- زنبقتك إذن هي التي بحوزة السيد بوكستيل، أنت تشرحين بشكل سيئ يا بنيّتي؛ لم تسرق منك الزنبقة، ولكن سرقت من السيد بوكستيل.

- أكرر يا سيدي أنني لا أعرف من هو السيد بوكستيل وأن هذه هي المرة الأولى التي أسمع بهذا الاسم.

- أنت لا تعرفين من هو السيد بوكستيل، لكنك تملكين أيضًا زنبقة سوداء؟

سألت روزا وهي ترتجف:

- ولكن هل توجد واحدة أخرى؟

- نعم، ثمة واحدة وهي للسيد بوكستيل.

- كيف هي؟

- سوداء طبعًا!

- دون شائبة؟

- دون شائبة واحدة، بلا أدنى لطخة.

- هل الزنبقة بحوزتك؟ هل وضعت هنا؟

- لا، ولكن ستودع هنا، وقبل ذلك، يجب أن أعرضها على اللجنة قبل تسليم الجائزة.

صاحت روزا:

- سيدي، بوكستيل هذا، هو إسحاق بوكستيل، إنه يدعي أنه صاحب الزنبقة السوداء...

- ومن هو في الوقع.

- سيدي، أليس هذا الرجل نحيفًا؟

- نعم.

- وأصلع؟

- نعم.

- وعيناه زائغتان؟

- اعتقد ذلك.

- وقلقًا وأحدب وساقاه معوجتان؟

- في الحقيقة، أنت ترسمين بدقة صورة السيد بوكستيل.

- سيدي، هل الزنبقة في وعاء خزفي أزرق وأبيض مرسومة عليه أزهار صفراء تمثل حوض أزهار من جوانب الوعاء الثلاثة؟

- حسنًا! بالنسبة لهذا الجانب، فأنا غير متأكد، لأني كنت أنظر إلى الزهرة أكثر من الوعاء.

- سيدي، إنها زنبقتي، التي سُرقت مني؛ سيدي، إنها ملكي؛ سيدي، لقد جئت لأطالب بها هنا أمامك.

قال السيد فان هريسن، متفحصًا روزا:

- عجبًا! عجبًا! ماذا! أتيت إلى هنا لتطالبي بزنبقة السيد بوكستيل؟ يا لك من ثرثارة جريئة!

قالت روزا، منزعجة قليلًا من هذا التأنيب.

- سيدي، أنا لا أقول إنني جئت لأطالب بزنبقة السيد بوكستيل، أنا أقول إنني جئت لأطالب بزنبقتي.

- زنبقتك؟

- أجل تلك التي زرعتها، وسهرت بنفسي على نموها.

- حسنًا، اذهبي وابحثي عن السيد بوكستيل في فندق البجعة البيضاء، ويمكنك أن تتفقي معه؛ بالنسبة لي، بما أن القضية تبدو لي صعبة الحكم مثلها مثل تلك التي تم رفعها إلى الملك الراحل سليمان، وبما أنني لا أدعي حكمته، فسأكتفي بتقديم تقريري، بأنني شاهدت وجود الزنبقة السوداء وأطلب منح مئة ألف غيلدر لمستنبتها. الوداع يا بنيّتي.

لكن روزا قالت ملحة:

- أوه! سيدي! سيدي!

وأردف فان هريسن:

- يا بنيتي، كم أنت جميلة، وكم أنت صغيرة، ويبدو أنك صالحة، اعملي بنصيحتي. كوني حذرة من المضيّ في هذا الأمر، لأن لدينا محكمة وسجنًا في هارلم؛ بالإضافة إلى ذلك، نحن حساسون للغاية بشأن شرف الزنبقة. اذهبي يا بنيتي إلى السيد إسحاق بوكستيل، في فندق البجعة البيضاء.

ثم تناول السيد فان هريسن، ريشته الجميلة، واستأنف كتابة تقريره.

الفصل السادس والعشرون

عضو في هيئة البستنة..

كانت روزا مضطربة، تكاد تجن من الفرح والخوف من فكرة العثور على الزنبقة السوداء، فسلكت طريق فندق البجعة البيضاء، وما زال يرافقها ملّاحها، وهو صبي قوي من منطقة فريزلاند قادر على التهام عشرة من أمثال بوكستيل بمفرده.

خلال الرحلة، أخبرت روزا الملاح؛ ووعدها باستخدام القوة، إذا لزم الأمر، لكنه تلقى أوامر بأن يحافظ على الزنبقة مهما وقع. ولكن عندما وصلا إلى غروت ماركيت([2])، توقفت روزا فجأة. لقد استحوذت عليها فكرة مفاجئة، كان الموقف شبيهًا بما حدث لمينيرفا([3]) بطلة هوميروس، التي امسكت على أخيل من شعره، في اللحظة التي كان الغضب على وشك أن يستبد به.

همست قائلة:

- يا إلهي! لقد ارتكبت خطًأ فادحًا، ربما فقدت كورنيليوس، والزنبقة ونفسي! ... لقد أثرت حولي الشكوك. أنا مجرد امرأة، يمكن لهؤلاء الرجال أن يتحدوا ضدي، ثم أضيع ... أواه! يا لخسارتي، لكنها لا تساوي شيئًا أمام خسارة كورنيليوس، والزنبقة!

فكرت لحظة وبحكمة وقالت:

- إذا ذهبتُ إلى هذا المدعو بوكستيل، ولم أعرفه، أو إذا لم يكن بوكستيل هذا هو يعقوب المعني، أو إذا كان مزارعًا هاويًا اكتشف أيضًا الزنبقة السوداء، أو إذا كانت زنبقتي قد سرقها شخص آخر غير الشخص الذي أشتبه فيه، أو انتقلت بالفعل إلى أيدٍ أخرى، إذا لم أتعرف على الرجل، وتأكدت أنها زنبقتي، كيف يمكنني أن أثبت أنها لي؟ من جهة أخرى، إذا تعرفت على بوكستيل بأنه يعقوب المزيف، فلا أدري ماذا سيحدث؟ فقد نواجه بعضنا، فتتأذى وتموت الزنبقة! آه! ألهميني يا مريم العذراء! الأمر يتعلق بمصير حياتي، ويتعلق بالسجين المسكين الذي لا ريب أنه يَحتضر في هذه اللحظة.

عقب هذه الصلاة، انتظرت روزا بفارغ الصبر الإلهام الذي رجته من السماء.

في هذه الأثناء، صدرت ضوضاء عالية قادمة من نهاية غروت ماركيت، حيث كان الناس يركضون، والأبواب تُشرع؛ روزا، وحدها، كانت غير مبالية لكل هذه الحشود المتحركة.

قالت هامسة:

- يجب أن نعود إلى الرئيس.

قال الملاح:

- هيا لنرجع.

شقّا معا طريقهما عبر زقاق لاباي الصغير الذي قادهما مباشرة إلى منزل السيد فان هيرسن، الذي تركناه يواصل العمل على تقريره مستعملًا خطه البديع وريشته الجميلة.

في كلّ مكان، خلال مرورهما، كانت روزا لا تسمع شيئًا سوى اسم الزنبقة السوداء، وجائزة المئة

ألف غيلدر؛ كانت الأخبار تنتشر حتمًا في المدينة. لم تجد روزا صعوبة لكي تتذكر طريق العودة إلى منزل السيد فان هريسن، الذي شعر في هذه الأثناء بالتأثر، مثل المرة الأولى، عند سماعه لكلمة الزنبقة السوداء السحرية. ولكنه عندما تعرف على روزا، استولى عليه الغضب وأراد طردها. لكن روزا ضمّت يديها بخشوع، وبالنبرة الحقيقية الصادقة التي تخترق القلوب، قالت:

- سيدي، بحق السماء! لا تطردني واستمع، إلى ما سأقوله لك، وعلى العكس، إذا كنت لا تستطيع أن تنصفني، على الأقل لن تضطر إلى لوم نفسك يومًا ما، أمام الرب، لكونك كنت شريكًا في فعل سيئ.

كان فان هريسن صبورًا. فهذه هي المرة الثانية التي تزعجه فيها روزا في خضم تقريره الذي وضع فيه ثقته بنفسه وكبريائه المزدوج كرئيس للبلدية ورئيس لهيئة مزارعي الأزهار.

قال صارخًا:

- لكن تقريري! تقريري عن الزنبقة السوداء!

واصلت روزا بحزم البراءة والحقيقة:

- سيدي يا سيدي، إن تقريرك عن الزنبقة السوداء سوف يستند، إن لم تسمعني، على حقائق جنائية أو على حقائق كاذبة. أتوسل إليك، يا سيدي، أن تحضر هنا، أمامي وأمامك، السيد بوكستيل، الذي أؤكد أنه السيد يعقوب، وأقسم بالرب بأن أترك له ملكية الزنبقة إن لم أعرف الزنبقة وصاحبها.

قال فان هيريسن:

- طبعا! تقدم رائع.

- ماذا تعني؟

- أسألك كيف ستثبتين ذلك عندما تتعرفين عليه؟

قالت روزا بيأس:

- لكن بعد كلّ شيء، أنت رجل أمين يا سيدي. حسنًا، إن لم تكن ستمنح الجائزة لرجل مقابل عمل لم يقم به فحسب، بل لعمل مسروق أيضًا.

ربما كانت لهجة روزا قد أدخلت بعض اليقين على قلب فان هريسن وكان على وشك أن يردّ ردًا أكثر لطفًا على الفتاة المسكينة، عندما سُمعت ضوضاء عالية في الشارع، والذي بدا ارتفاعا محضًا وبسيطًا في الضجيج الذي سمعته روزا مسبقًا في غروت ماركيت، ولكنها لم تولِه أهمية، هذه الجلبة التي تكن لها القدرة على إفاقتها من صلاتها الورعة.

هزت الهتافات العالية المنزل.

فصرخ العمدة:

- ما هذا؟ ما هذا؟ هل هذا ممكن وهل ما أسمعه صحيح؟

واندفع إلى غرفة الانتظار، دون أن يبالي بروزا، التي تركها في مكتبه. لكن بمجرد وصوله إلى غرفة انتظاره، أطلق السيد فان هريسن صرخة مدوية عندما رأى درجه المكتظ إلى نهاية الدهليز. وفي المقدمة شاب يرتدي معطفًا بسيطًا من المخمل الأرجواني المطرّز بالفضة وهو يتجاوز العتبة

الحجرية الأخيرة المتألقة بالبياض والنظافة، كان يسير بخطوات بطيئة ونبيلة، وخلفه يمشي ضابطان، أحدهما من البحرية والآخر من سلاح الفرسان.

شق فان هريسن طريقه مفسحًا لنفسه منفذًا بين الخدم الحائرين، وانحنى أمام من تسبب في كلّ هذه الضوضاء صائحًا:

- مولاي، مولاي، سموك عندنا، هذا شرف عظيم وخالد لبيتي المتواضع.

قال غيوم الأورانج بهدوء حل مكان الابتسامة:

- عزيزي السيد فان هيرسن، أنا هولندي حقيقي، أحب الماء والجعة والأزهار، وأحيانًا حتى هذا الجبن الذي يقدر الفرنسيون طعمه. ومن بين الأزهار، بطبيعة الحال أفضّل أزهار الزنبق. سمعت في ليدن أن مدينة هارلم توجد بها أخيرًا زنبقة سوداء، وبعد أن تأكدت من صحة الخبر، رغم أنه لا يصدق، أتيت لأسأل رئيس هيئة البستنة عن أخبارها.

قال فان هيرسن مسرورًا:

- أوه! يا مولاي، مولاي، يا له من مجد للمجتمع إذا كانت أعماله تنال رضا سموك.

قال الأمير، الذي أدرك ربما أنه أسرف في الكلام:

- هل لديك الزهرة هنا؟

. - للأسف، لا، يا مولاي، ليست لدي هنا.

- وأين هي؟

- عند صاحبها.

- من هو صاحبها؟

- مزارع زنابق شجاع من دوردريخت.

- من دوردريخت؟

- نعم.

- وما اسمه؟

- بوكستيل.

- أين يقيم؟

- في البجعة البيضاء. سأرسل في طلبه، وفي الحال، إذا أراد صاحب السمو أن يشرفني بالدخول إلى الصالون، فسوف يسرع، إذا علم أن مولاي موجود هنا، وسيحضر زنبقته السوداء إلى مولاي.

- هذا جيد، أرسل في طلبه.

- أجل سموكم. لكن...

- ماذا؟

- أوه! لا شيء مهم يا مولاي.

- يا سيد فان هيرسن كلّ شيء مهم في هذا العالم.

- حسنًا يا سيدي، حدثت مشكلة.

- حسنًا وما هي؟

- صبية تدعي ملكيتها للزنبقة. ربما نوع من الاحتيال لأنها تساوي مئة ألف غيلدر.

- هذه جريمة يا سيد فان هيرسن.

- نعم سموكم.

- وهل لديها أدلة على ما تدعيه؟

- لا، يا سيدي، ولكن من تطالب بالزنبقة، يا مولاي، موجودة، في الغرفة المجاورة، كنت بصدد استجوابها، عندما قمتم بزيارتنا

- وما رأيك يا سيد فان هيرسن؟

- أعتقد، يا مولاي، أن مئة ألف غيلدر مبلغ مغرٍ لكل مُدّع.

- لنستمع إليها، يا سيد فان هريسن، فلنستمع إليها؛ أنا القاضي الأول في البلاد، سأستمع إلى الدعوى وسأحكم بالعدل

قال فان هريسن وهو ينحني مفسحًا للأمير الطريق:

- ها هو ملكي سليمان.

كان هذا الأخير على وشك أن يتقدم على محاوره، لكنه توقف فجأة وقال:

- تقدم أمامي ونادني بسيدي.

دخلا إلى المكتب. كانت روزا ماتزال في المكان نفسه، تنظر من النافذة إلى الحديقة.

قال الأمير إنها الشقراء، وهو يرى خوذة روزا الذهبية وتنورتها الحمراء.

- عجبًا! عجبًا! إنها الشقراء.

التفتت روزا إلى الضوضاء، لكنها لم تتبين الأمير الذي كان يجلس في عتمة ركن من أركان الغرفة. لقد كانت تصب اهتمامها كله، كما سيتضح، نحو هذا الشخص المهم الذي كان يُدعى فان هريسن، وليس لهذا الشخص الغريب المتواضع الذي يتبع سيد المنزل، والذي لا يُدعى من الأساس بالسيد.

تناول الغريب المتواضع كتابًا من المكتبة وأشار إلى فان هريسن لبدء الاستجواب. جلس فان هريسن بدوره بدعوة من الشاب الذي يرتدي المعطف الأرجواني، وكان سعيدًا جدًا وفخورًا جدًا بالأهمية التي أعطيت له وقال:

- يا بنتي، عديني بأن تقولي الحقيقة، الحقيقة الكاملة بخصوص هذه الزنبقة؟

- أعدك.

- حسنا! تكلمي إذن أمام السيد؛ السيد أحد أعضاء هيئة البستنة.

قالت روزا:

- سيدي، ماذا يمكنني أن أخبرك به، بعدما أخبرتك بكل شيء مسبقًا؟

- إذن حسنًا؟

- إذن أعود إلى رجائي لك.

- وما هو؟

- أن تحضر السيد بوكستيل هنا صحبة زهرته الزنبقة؛ إذا لم أتعرف عليها، فسأقولها بصراحة؛ لكن إذا عرفت أنها لي، فسأطالب بها، حتى لو ذهبت إلى صاحب السمو نفسه، البراهين بين يدي!

- إذن لديك دليل، أيتها الصبية الجميلة؟

- الرب الذي يعلم حقي، سيوفرها لي.

تبادل فان هريسن والأمير نظرة، لكن هذا الأخير بدا وهو يسمع كلمات روزا الأولى، وكأنه يحاول استرجاع ذكرياته، وكأن هذه ليست المرة الأولى التي يسمع فيها هذا الصوت الناعم.

غادر ضابط فورًا لإحضار السيد بوكستيل بينما واصل فان هريسن استجوابه.

قال: وعلى ماذا تبنين هذا الإثبات؛ بأنك مالكة الزنبقة السوداء؟

- على شيء بسيط للغاية، لأني أنا من غرسها وزرعها في غرفتي الخاصة.

- في غرفتك وأين توجد غرفتك؟

- في لويفستين.

هل أنت من لويفستين؟

- أنا ابنة سجان الحصن.

قام الأمير بحركة صغيرة تعني:

- عجبًا! إنها هي، أتذكر الآن.

وبينما كان يتظاهر بالقراءة، نظر إلى روزا باهتمام متزايد أكثر من ذي قبل.

وأردف فان هريسن:

- وهل تحبين الأزهار؟

- نعم يا سيدي.

- إذن، أنت عالمة أزهار؟

ترددت روزا لحظة ثم بنبرة نابعة من أعماق قلبها قالت:

- أيها السيدان، هل أتحدث إلى رجلين شريفين؟

كانت نبرتها حقيقية لدرجة أن كلّ من فان هريسن والأمير ردّا في الوقت ذاته بإيماءة تدل على الإثبات.

- حسنًا، لا، أنا لست عالمة أزهار، لا! أنا مجرد فتاة فقيرة من الشعب، فلاحة فقيرة من

فريزلاند، لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة قبل ثلاثة أشهر. لا! لم أبتكر الزنبقة بنفسي.

- ومن اكتشفها؟

- سجين مسكين من لويفستين.

قال الأمير:

- بواسطة سجين من لويفستين؟

عند سمعت روزا هذا الصوت، دبت الرعشة في جسدها.

وأردف الأمير:

- سجين دولة إذن، لأن في لويفستين لا يوجد فيها سوى سجناء الدولة؟

واستأنف القراءة، أو على الأقل، تظاهر باستئناف القراءة.

- نعم، همست روزا مرتجفة، نعم، من طرف سجين دولة.

عندما سمع مثل هذا الاعتراف أمام شاهد كهذا، أصبح فان هريسن شاحبًا، ثم قال غيوم ببرود لرئيس هيئة البستنة:

- استمر!

قالت روزا، مخاطبة الرجل الذي تعتقد أنه القاضي الحقيقي:

- أوه! سيدي، سأصبح مدانة أيضًا.

قال فان هريسن:

- في الواقع، يجب أن يكون سجناء الدولة معزولين عن العالم الخارجي في لويفستين.

- وا حسرتاه! يا سيدي.

- استنادًا إلى ما تقولينه، يبدو أنك استغللت منصبك كابنة السجان وتواصلت معه لزراعة الأزهار؟

تمتمت روزا بذهول:

- نعم يا سيدي، نعم، يجب أن أعترف بذلك، كنت أراه كلّ يوم.

صاح السيد فان هيرسن:

- أيتها البائسة!

رفع الأمير رأسه وهو يراقب رعب روزا وشحوب الرئيس، فقال بصوت جليّ وحازم:

- هذا لا يهم أعضاء هيئة البستنة؛ عليهم أن يحكموا على الزنبقة السوداء وألا يعلموا بالجرائم السياسية. هيا واصلي يا فتاة، واصلي كلامك.

بنظرة إجلال، شكر فان هيرسن باسم مزارعي الزنابق العضو الجديد في هيئة البستنة.

اطمأن قلب روزا، بهذا النوع من التشجيع الذي قدمه الغريب لها، فروت كلّ ما حدث في الأشهر الثلاثة الماضية، كلّ ما فعلته، كلّ ما عانته. تحدثت عن قسوة غريفوس، وتدمير الفص

الأول، وألم السجين، وعن الاحتياطات المتخذة حتى ينمو الفص الثاني جيدًا، وصبر السجين، وكربه خلال انفصالهما؛ وكيف أراد أن يموت جوعاً، لأنه لم يعد يسمع أخبار الزنبقة؛ وعن الفرح الذي شعرا به عند لقائهما من جديد، وأخيراً عن يأس كليهما عندما علما أن الزنبقة التي أزهرت حديثًا قد سُرقت منهما بعد ساعة من تفتّحها.

قيل كلّ هذا بنبرة حقيقية تركت الأمير هادئ الأعصاب، في الظاهر فقط، لكنها أفلحت في التأثير بالسيد فان هيرسن.

قال الأمير:

- لكنك لم تكوني تعرفين هذا السجين منذ فترة طويلة.

فتحت روزا عينيها مندهشة ونظرت إلى الغريب الغارق في العتمة وكأنه يريد الهروب من هذه النظرة بالذات.

فسألت:

- لماذا هذا يا سيدي؟

- لأن السجان غريفوس وابنته موجودان في لويفستين منذ أربعة أشهر فقط.

- هذا صحيح يا سيدي.

- كنت قد طلبت تغيير عمل والدك للّحاق بالأسير الذي نقل من لاهاي إلى لويفستين

قالت روزا خجلة:

- سيدي!

قال غيوم:

- أنهِي كلامك بعجالة.

- أعترف أنني كنت أعرف السجين في لاهاي.

قال غيوم مبتسمًا:

- سجين سعيد!

في تلك اللحظة، عاد الضابط الذي أرسل إلى بوكستيل وأعلن للأمير أن الشخص الذي ذهب لجلبه قادم خلفه برفقة زنبقته.

الفصل السابع والعشرون

الفصّ الثالث..

ما إن أعلن عن قدوم بوكستيل، حتى بادر بالدخول شخصيًا إلى غرفة الضيوف الخاصة بالسيد فان هيرسن، يتبعه رجلان يحملان العبء الثمين في صندوق، ثم وضعاه على طاولة.

عندما علم الأمير، غادر المكتب، وقصد غرفة الضيوف، مُبديًا إعجابه ولكن بصمت، ثم عاد بهدوء ليحتل مكانه في الزاوية المظلمة حيث جلس فوق أريكة.

انتظرت روزا، واجفة، شاحبة، مرتعبة، أن يدعوها أحدهم كي ترى بدورها. سمعت صوت بوكستيل.

صاحت:

- إنه هو!

أشار إليها الأمير أن تذهب وتنظر إلى غرفة الضيوف من خلال الباب الموارب.

صرخت روزا:

- إنها زنبقتي، إنها هي، أنا أعرفها. يا لكرونيليوس المسكين!

وانفجرت باكية.

نهض الأمير وذهب إلى الباب حيث وقف للحظة في النور. حينها استقرت عينا روزا عليه.

لم تكن متأكدة أكثر من أي وقت مضى أن هذه ليست المرة الأولى التي ترى فيها هذا الغريب.
قال الأمير:

- سيد بوكستيل، تعال إلى هنا.

سارع بوكستيل فوجد نفسه وجهاً لوجه مع غيوم الأورانج.

فصاح وهو يتراجع.

- صاحب السمو!

كررت روزا بذهول:

صاحب السمو!

عقب هذا التعجب القادم من يساره، استدار بوكستيل فرأى روزا.

وعلى إثر رؤيتها، ارتجف جسد الرجل الحسود ارتجافًا، وكأنه لمس بطارية فولتائية.

همس الأمير متحدثا إلى نفسه:

- عجبًا! ها هو في حيرة من أمره.

لكن بوكستيل، وبجهد كبير تمالك نفسه، فاستعاد رباطة جأشه، وقال غيوم:

- السيد بوكستيل، يبدو أنك وجدت سر الزنبقة السوداء؟

أجاب بوكستيل بصوت مرتبك:

- نعم يا مولاي.

صحيح أن هذا الارتباك قد يكون ناتجًا عن العاطفة التي شعر بها مزارع الزنابق عقب تعرفه على الأمير غيوم.

وتابع الأمير:

- لكن، توجد هنا، فتاة تدعي أنها عثرت عليها أيضًا.

ابتسم بوكستيل بازدراء وهز كتفيه.

تابع غيوم كلّ حركاته باهتمام ملفت للانتباه.

قال الأمير:

- إذن أنت لا تعرف هذه الفتاة الصغيرة؟

- لا، مولاي.

«وأنت أيتها السيدة الشابة، هل تعرفين السيد بوكستيل؟

- لا، لا أعرف السيد بوكستيل، لكني أعرف السيد يعقوب

- ماذا تعنين؟

- أقصد أنه من يسمي نفسه إسحاق بوكستيل كان يسمي نفسه بالسيد يعقوب في لويفستين.

- ماذا تقول في ذلك يا سيد بوكستيل؟

- يا مولاي، أقول إن هذه الفتاة كاذبة.

- هل تنكر أنك ذهبت إلى لويفستين؟

تردد بوكستيل وأمام عيني الأمير الشاخصتين والمتفحصتين والصارمتين لم يستطع المراوغة، فقال:

- لا يمكنني إنكار أنني ذهبت إلى لويفستين، يا مولاي، لكنني أنكر أنني سرقت الزنبقة.

صرخت روزا بسخط:

- لقد سرقتها مني وبالضبط من غرفتي!

- أنفي ذلك

- اسمع، هل تنكر أنك تبعتني إلى الحديقة في اليوم الذي أعددت فيه مكانًا لغرس الزهرة؟ هل تنكر أنك تبعتني إلى الحديقة حيث تظاهرتُ بزراعتها؟ هل تنكر أنك هرعت في ذلك المساء، بعد انصرافي، إلى المكان الذي كنت تأمل أن تجد فيه الفص؟ هل تنكر أن نبشت التراب بيديك، ولكن حمدا للرب، كان بلا جدوى! لأن ما فعلته كان هذه مجرد خدعة لفضح نواياك؟ قل، هل تنكر كلّ هذه الأمور؟

ارتأى بوكستيل أنه ليس من المناسب الإجابة على هذه الأسئلة المختلفة. لهذا تخلى عن مجادلة روزا وتوجه إلى الأمير:

- يا مولاي منذ عشرين عامًا، وأنا أزرع أزهار الزنبق في دوردريخت؛ بل اكتسبت سمعة طيبة في هذا الفن: إن أحد اكتشافاتي الهجينة اسمها لامع في السجل. لقد أهديتها إلى ملك البرتغال. الآن ها هي الحقيقة. هذه الفتاة تعرف أنني عثرت على الزنبقة السوداء، وقد شكلت هذه الفتاة مع عشيق لها في سجن لويفستين خطة لتحطيمي والاستيلاء على جائزة المئة ألف غيلدر، التي آمل أن أفوز بها، بفضل عدالتكم الرشيدة.

صاحت روزا غاضبة:

- يا للعجب!

قال الأمير:

- اصمتي.

ثم توجه بكلامه إلى بوكستيل:

- ومن هو، هذا السجين الذي تقول إنه عاشق هذه الفتاة؟

كادت روزا أن يغمى عليها، لأن السجين مسجل لدى الأمير كمذنب كبير. لا شيء يمكن أن يكون أكثر متعة من هذا السؤال.

كرر الأمير:

- من هو هذا السجين؟

- مولاي هذا السجين، هو رجل سيثبت اسمُه وحدُه لسموك أنه لا يمكن الثقة في نزاهته. هذا السجين مجرم دولة، حكم عليه بالإعدام مرة واحدة.

- وما اسمه؟

بحركة يائسة خبأت روزا رأسها بكلتا يديها.

قال بوكستيل:

- يُدعى كورنيليوس ڤان بيرل، وهو ربيب ذلك الشرير كورني دو وايت.

اختلج الأمير. وتطاير الشرر من عينيه، ودبّ برد الموت مرة أخرى في وجهه الجامد. تقدم نحو روزا وأمرها بإبعاد يديها عن وجهها، فأطاعت روزا.

- إذن من أجل اللحاق بهذا الرجل أتيت لتطلبي مني في ليدن تغيير مكان عمل والدك؟

خفضت روزا رأسها وانهارت مغمغمة:

- نعم يا سيدي.

قال الأمير مخاطبا بوكستيل:

- تابع كلامك.

- ليس لدي ما أقوله، سموك يعرف كلّ شيء. والآن لم أكن أريد أن أقول هذا الكلام، حتى لا

أجعل هذه الفتاة تحمر خجلاً ونكرانا للجميل. ذهبت إلى لويفستين لأن أعمالي اقتضت ذلك؛ فتعرفت على غريفوس العجوز هناك، ووقعت في حب ابنته، تقدمت للزواج منها، ولأنني لم أكن غنيًا، ومسرفًا كما كنت، فقد بحت لها بأملي في الفوز بالمئة ألف غيلدر؛ ولتبرير هذا الأمل، أطلعتها على الزنبقة السوداء. لذلك قامت وعشيقها، في دوردريخت، بتدبير مؤامرة، وخطط كلاهما لخرابي.

في اليوم السابق لتفتح الزهرة، سرقت هذه الفتاة زنبقتي من منزلي، لكنها أحضرتها إلى غرفتها، لحسن حظي تمكنت من استعادتها في اللحظة، التي أرسلتْ فيها رسالة بجرأة كبيرة لكي تخبر السيد رئيس هيئة مزارعي الزنابق. ليعلن أعضاء هيئة البستنة اكتشاف الزنبقة السوداء العظيمة؛ ولا شك أنها خلال الساعات القليلة التي احتفظت بها في غرفتها، عرضتها على عدد قليل من الأشخاص الذين ستدعوهم للشهادة لصالحها؟ لكن لحسن الحظ، يا مولاي، ها أنتم تعلمون بتفاصيل هذه المؤامرة وبأمر شهودها المزعومين.

تأوهت روزا وأجهشت بالبكاء، وألقت بنفسها عند قدمي الأمير الذي رغم اعتقاده بتورطها، إلا أنه أشفق على حزنها الرهيب وقالت:

- عجبًا! يا إلهي! يا إلهي! يا لك من دنيء!

قال الأمير:

- لقد أخطأت أيتها الفتاة الصغيرة، وسيعاقب حبيبك لأنه نصحك بذلك؛ لأنك صغيرة جدًا وتبدين صادقة جدًا، وأريد أن أصدق أن الشر كان هو مصدره ولست أنت.

صاحت روزا:

- مولاي! مولاي! كورنيليوس غير مذنب.

أومأ غيوم بحركة وقال:

- أليس مذنبًا حينما نصحك. هذا ما تقصدينه، أليس كذلك؟

- أعني، يا مولاي، أن كورنيليوس ليس مذنباً بارتكاب الجريمة الثانية أكثر مما هو متهم بالجريمة الأولى.

- الجريمة الأولى؟ وهل تعلمين ما هي الجريمة الأولى؟ هل تعلمين بما اتهم به وبماذا أدين؟ هل تعرفين ماذا يعني أن يكون شريكًا لكورنيْ دو وايت، وأن يخفي مراسلات المتقاعد الأكبر وماركيز دو لافوا.

- حسنًا يا مولاي، لقد كان يجهل من هو صاحب هذه المراسلات؛ يجهله تماما. يا إلهي! كان سيعترف لي. هل من الممكن أن يكون لهذا القلب النفيس سرا ليخفيه عني؟ لا، لا، يا سيدي، أكرر، حتى لو كان يتهددني غضبك، فإن كورنيليوس ليس مذنباً بارتكاب الجريمة الأولى أكثر من ارتكابه الجريمة الثانية. حسنًا! يا ليتك كنت تعرف يا مولاي حقيقة كورنيليوس!

صاح بوكستيل:

- واحد من عائلة وايت! حسنًا! يا مولاي أنتم تعرفونه جيدًا، ما دمتم قد منحتموه نعمة الحياة في السابق.

قال الأمير:

- سكوت، هذه أمور عن الدولة، وكما سبق وقلت، ليست من مسؤولية هيئة البستانيين في هارلم.

ثم قال عابسًا:

- فيما يخص الزنبقة، لا تقلق يا سيد بوكستيل.

وأضاف:

- ستتحقق العدالة.

انحنى بوكستيل احترامًا وقلبه مفعم بالفرح ثم تلقى تهنئة من الرئيس.

وتابع غيوم أورانج:

- أنت، فتاة صغيرة، لقد كدت أن ترتكبي جريمة، ولن أعاقبك عليها؛ لكن الجاني الحقيقي سيعاقب مرتين. يمكن لرجل يحمل اسمه أن يتآمر، بل يخون ... لكن لا يجدر به أن يسرق.

صاحت روزا:

- يسرق! يسرق! من؟ كورنيليوس، آه يا مولاي! حاذر؛ لأنه سيموت إذا سمع كلامك! كلماتك ستقتله بالتأكيد أكثر مما سيفعله سيف الجلاد في بوتنهوف. إذا كانت ثمة سرقة يا سيدي أقسم أن هذا الرجل هو من ارتكبها.

قال بوكستيل ببرود:

- أثبتي ذلك.

قالت المرأة الشقراء بحماس:

- نعم. بعون الربّ.

ثم التفتت ناحية بوكستيل:

- هل كانت الزنبقة ملكك؟

- نعم.

- كم عدد فصوصها؟

تردد بوكستيل لحظة. لكنه فهم أن الفتاة لن تسأل هذا السؤال لو لم يكن ثمة فصان معروفان وموجودان منفصلين.

قال:

ثلاثة.

سألت روزا:

- ماذا حدث لهذين الفصين؟

- ماذا حدث لهما؟ ... أحدهما أجهض، والآخر أعطانا الزنبقة السوداء...

- والثالث؟

- الثالث؟

- الثالث أين هو؟

قال بوكستيل مرتبكا:

- الثالث في منزلي.

- في منزلك؟ أين؟ في لويفستين أو دوردريخت؟

قال بوكستيل:

- في دوردريخت.

صاحت روزا:

- أنت تكذب!

وأضافت وهي تخاطب الأمير:

- مولاي، أنا سأروي لكم القصة الحقيقية لهذه الفصوص الثلاثة. الأول دهسه والدي في غرفة السجين، وهذا الرجل يعرف ذلك جيدًا، لأنه كان يأمل في الحصول عليه، وعندما رأى أن ذلك الأمل تحطم، كاد أن يتشاجر مع والدي بسبب ذلك. أما الثاني، فقد اعتنيت به، وهو الذي أعطى الزنبقة السوداء، بينما الثالث، والأخير، (سحبته الفتاة من صدرها)، والثالث ها هو هنا في الورقة نفسها التي كانت تضم الاثنين الآخرين، اللذين سلّمهم لي كورنيليوس ڤان بيرل وهو يساق إلى المقصلة. ها هو يا سيدي خذه.

وأخرجت روزا الفص من الورقة التي تغلفه، وسلمته إلى الأمير الذي أخذه من يديها وتفحصه.

- لكن، يا مولاي، ألا تستطيع هذه الفتاة أن تسرقه مثل الزنبقة؟

قال بوكستيل متلعثما، وخائفًا من الاهتمام الذي كان الأمير يفحص به الفص وكذلك الحالة التي أصبحت عليها روزا وهي تقرأ بضعة أسطر مدونة على الورقة التي بقيت بين يديها. وفجأة أشرقت عينا الفتاة الصغيرة، وهي تعيد قراءة هذه الورقة الغامضة مبهورة، ثم صرخت، وسلمت الورقة للأمير.

- أوه! اقرأ يا مولاي، بحق السماء، الجنة، أن تقرأ!

قدم غيوم الفص الثالث إلى الرئيس وأخذ الورقة وقرأها.

ما أن نظر غيوم إلى هذه الورقة حتى ترنح؛ وارتجفت يده وبدت كأنها ستسقط الورقة؛ واكتست عيناه تعبيرًا مخيفا ملؤه الألم والشفقة. هذه الورقة، التي أعطته إياها روزا للتو، كانت صفحة الكتاب المقدس التي أرسلها كورني دو وايت إلى دوردريخت، بواسطة كرايك، رسول أخيه جون، ليطلب من كورنيليوس أن يحرق مراسلات المتقاعد الأكبر بينه وبين لافوا.

نتذكر أن هذا الطلب قد كتب على النحو التالي:

«ربيبي العزيز، أحرق الوديعة التي استأمنتك عليها، أحرقها دون النظر إليها، دون فتحها، حتى تظل مجهولة بالنسبة لك إن الأسرار التي تتضمنها تقتل من يؤتمن عليها. أحرقها، وبذلك تنقذ

جان وكورنيْ.

وداعًا، وأحبني. «كورنيْ دو وايت»

«20 أغسطس 1672»

كانت هذه الورقة دليلاً على براءة ڤان بيرل وملكيته لفص الزنبقة. تبادلت روزا والأمير نظرة واحدة.

نظرة روزا كانت تعني: «هل صدقت! بينما نظرة الأمير فتعني: «أسكتي وانتظري!»

مسح الأمير قطرة من العرق البارد كانت قد تفصدت للتو من جبهته ونزلت إلى خده. طوى الورقة ببطء، تاركًا نظرته الشاردة، تغوص في تلك الهاوية التي لا نهاية ولا مخرج منها والتي تسمى الندم والعار من الماضي. وسرعان ما رفع رأسه بجهد مخاطبًا بوكستيل:

- انصرف يا سيد بوكستيل، ستتحقق العدالة، لقد وعدتك بذلك.

ثم مخاطبا الرئيس:

- وأنت، عزيزي السيد فان هريسن، احتفظ هنا بهذه الفتاة والزنبقة أيضًا. الوداع.

انحنى الجميع انحناءة إجلال، وخرج الأمير مطأطئًا تحت ضجيج الهتافات الشعبية الهائلة.

عاد بوكستيل إلى فندق البجعة البيضاء، معذبًا تمامًا. كانت هذه الورقة، التي تلقاها غيوم من روزا، والتي قرأها وطواها ووضعها في جيبه بعناية كبيرة، قد أثارت قلقه.

اقتربت روزا من الزنبقة، وقبلت بتلاتها قبلة بخشوع، وأسلمت مصيرها إلى الرب كليًا، وهي تهمهم:

- يا إلهي! أنت وحدك تعلم لأي غرض كان كورنيليوس يعلّمني القراءة؟ نعم، لقد كان الرب يعلم، لأنه هو من يعاقب البشر ويجزيهم بما يستحقون.

الفصل الثامن والعشرون

أغنية الأزهار..

بينما كانت تجري الوقائع التي تحدثنا عنها مسبقًا، كان ڤان بيرل التعس، يعاني منسيًا في زنزانته بسجن لويفستين، وبالتحديد من غريفوس كلّ ما يمكن أن يعانيه السجين عندما يتحامل عليه السجان، ويتحول أمامه إلى جلاد عتيد.

لم يتلق غريفوس أية أخبار من روزا، ولم يتوصل لأي أخبار من يعقوب، وأقنع غريفوس نفسه أن كلّ ما كان يحدث له كان من عمل الشيطان، وأن الدكتور كورنيليوس ڤان بيرل هو مبعوث الشيطان على الأرض.

ونتيجة لذلك، صعد غريفوس ذات صباح جميل -وقد مضى على اختفاء يعقوب وروزا ثلاثة أيام - إلى غرفة كورنيليوس أشد غضبًا من المعتاد.

كان هذا الأخير يضع مرفقيه على النافذة، ورأسه مستلق على يديه، شاردًا ببصره في الأفق الضبابي حيث كانت طواحين الهواء في دوردريخت ترفرف بأجنحتها، مستنشقًا الهواء لكفكفة دموعه ومانعًا تلاشي هدوءه.

كان الحمام مازال هناك، لكن الأمل ضاع؛ والمستقبل صار غائمًا.

وا حسرتاه على روزا! مادامت تحت المراقبة، فلن تستطيع القدوم. يا ليتها تستطيع الكتابة فقط، وإذا كتبت، فهل يمكنها أن تراسله؟ لا. لقد رآها أمس، وكان شديد الغضب وكان الشر في عيني غريفوس العجوز يتطاير ولا يمكنه أن يتراخى عن مراقبتها لحظة، وبعد ذلك، إلى جانب العزلة، والغياب، لا يجب أن تعاني من عذاب أسوأ من هذا الوحش، وهذا الوغد، وهذا العربيد، ألن ينتقم لنفسه على غرار آباء المسرح اليوناني؟

عندما سيصعد شراب العرعر إلى دماغه، ألن يمد ذراعه، وقد أصلحها كورنيليوس بقوة ذراعين وعصا؟

كانت فكرة أن روزا ربما تعرضت لسوء المعاملة، أثارت غضب كورنيليوس، لكنها أشعرته، بلا جدواه، وعجزه، وعدمه. تساءل عما إذا كان الربّ محقًا في بعثه الكثير من الأسى إلى مخلوقيْن بريئيْن. وبالتأكيد في تلك اللحظات كان يشكّ لأن الشقاء لا يجعلك ساذجًا.

خطط فان بارل كثيرًا للكتابة إلى روزا. لكن أين هي روزا؟

خطرت بباله فعلًا فكرة الكتابة إلى لاهاي للتحذير مما قد يرغب غريفوس حشده، للوشاية به، وإنزال عواصف جديدة على رأسه.

لكن بماذا سيكتب؟ وقد استولى غريفوس على قلمه وورقه. بالإضافة إلى ذلك، في كلا الحالتين، لن يكون غريفوس بالتأكيد من سيتكلف بإرسال رسالته.

ثم فكر كورنيليوس مرارًا وتكرارًا في كلّ هذه الحيل البائسة التي يستخدمها السجناء.

لقد فكر مليًا في الهروب، وهو الأمر الذي لم يفكر فيه أبدًا عندما كان يستطيع رؤية روزا كلّ يوم. لكن كلما فكر في الأمر، كلما بدا له الهروب مستحيلًا. لقد كان من هؤلاء الميّالين بطبعهم

إلى الخوف من عامة الناس، والذين غالبًا ما يفوتون كلّ الفرص الجيدة في الحياة، بسبب عدم رغبتهم في السير في طريق مبتذلة. هذا الطريق الكبير الذي يسير عليه الأشخاص العاديون، ويقودهم إلى كلّ شيء.

قال كورنيليوس في نفسه:

- كيف سأتمكن من الهروب من لويفستين، أليست هي التي فرّ منها السيد دو غروتيوس ذات مرة؟ منذ ذلك الهروب، ألم تصبح الأمور أكثر تشديدًا وحرصًا؟ ألن تكون النوافذ محمية جيدًا؟ أليست الأبواب محكمة الإقفال مرتين أو ثلاثًا؟ أليست مراكز الحراسة أكثر يقظة عشر مرات؟

«ثم إلى جانب النوافذ المحروسة، والأبواب المحكمة، والحراسة أكثر يقظة من أي وقت مضى، أليس لديّ مراقب يترصدني، مراقب أكثر خطورة لأنه ينظر إليّ بكراهية، إنه غريفوس؟»

أخيرًا، ألن يحدث ظرف يعيقني؟ كغياب روزا. عندما أستغل عشر سنوات من حياتي لأصنع منشارًا لأقطع بها قضباني، أو لضفر الحبال لكي أنزل من النافذة، أو ألصق جناحين على كتفي لأطير بعيدًا مثل دايدالوس... يا لحظي التعس! ستتآكل الشفرة، وسوف يتمزق الحبل، وسيذوب جناحاي تحت أشعة الشمس. وسأقتل نفسي أسوأ قتلة. سيحملونني أعرج، وأكتع، وكسيحًا. وسأوضع في متحف لاهاي، بين صدرية غيوم الصامت الملطخة بالدماء والمرأة البحرية التي عثر عليها في ستافورين، ولن يتكلل مشروعي إلا بمنحي شرف الوجود ضمن الأشياء الطريفة في هولندا.

«كلا، بدأت أفقد صبري منذ أن فقدت فرحتي باللقاء بروزا، بل ومنذ أن فقدت زنابقي. ليس ثمة شك في أن غريفوس في يوم من الأيام سيهاجمني في شرفي أو حبي أو سلامتي الشخصية. أشعر منذ حبسي، بقوة غريبة، وبشراسة لا تطاق. أحس برغبة في الصراع، وشهية للمواجهة، وعطش غير مفهوم للعراك. سأنقض على عنق هذا العجوز الوضيع وأخنقه!»

توقف كورنيليوس، على إثر هذه الكلمات الأخيرة لحظة، وقد تشنج فمه وشخصت عيناه.

ثم أعاد بلا كلل أو ملل فكرته، التي لا تكف عن إغرائه. وتابع كورنيليوس:

- حسنًا! وبعد أن أخنق غريفوس، لمَ لا آخذ منه المفاتيح؟ ولماذا لا أنزل الدرج وكأنني قد فعلت للتو أكثر الأعمال صلاحًا؟ لماذا لا تشرح لها الحقيقة، وتقفز رفقتها من نافذتها إلى نهر الفال؟ يمكنني بالتأكيد السباحة جيدًا حاملا روزا! يا إلهي إن غريفوس والدها. لن توافق على قتله أبدًا، مهما كان حبها لي، لن تسامح رجلًا خنق والدها، حتى وإن كان هذا الأخير وحشًا، وقاسيًا. سيحتاج الأمر بعد ذلك إلى نقاش مقنع وعند آخر عبارة منه، سيجد أحد الحراس، غريفوس يلفظ أنفاسه أو ميتا، وعلى الفور سيلقى عليّ القبض.

عندئذ سأرى مرة أخرى سجن البوتنهوف ووميض ذلك السيف الشنيع، الذي لن يتوقف هذه المرة بل سيحز رقبتي حزا.

يا صديقي كورنيليوس لا تفعل هذا أبدا؛ هذه طريقة سيئة! ولكن ماذا بعد ذلك؟ وكيف سأجد روزا؟

كانت هذه تداعيات كورنيليوس بعد مضيّ ثلاثة أيام من مشهد الانفصال الكارثي بين روزا

ووالدها، وتحديدًا في اللحظة التي اطلعنا عليها، عندما كان كورنيليوس متكئًا على نافذته.

في هذا الوقت بالذات دخل غريفوس.

كان يمسك بيده عصا ضخمة، وعيناه تومضان بأفكار شريرة. ويرسم على شفتيه ابتسامة متوترة. كان جسده يختلج بعصبية، ويبدو مستعدًا لتصرفات سيئة.

كان كورنيليوس، محطمًا كما رأينا سابقًا، بسبب الحاجة إلى الصبر، وهي الضرورة التي اقتنع بها كلّ الاقتناع، سمعه كورنيليوس وخمن أنه هو من يدخل زنزانته، لكنه لم يلتفت إلى اتجاهه.

كان يعلم أن روزا لن تأتي هذه المرة في أعقابه.

ليس ثمة أكثر بشاعة للذين ينتابهم الغضب من لامبالاة المغضوب عليهم.

لقد بذلنا جهدًا كثيرًا، ولا نريد أن نخسره. سنثير أعصابه، ونجعل دمه يغلي. ولا فائدة إذا كان هذا الغليان لا يحقق الرضا ولو كان انفعالًا عصبيًا صغيرًا.

إن كلّ وغد يشحذ عبقريته الشريرة لكي يجرح بكلامه جرحًا بليغًا شخصا واحدا على الأقل.

لذلك، عندما رأى غريفوس أن كورنيليوس غير مبال، بدأ في تحديه بشراسة:

- حسنًا! حسنًا!

ترنم كورنيليوس بأغنية الأزهار بصوت خافت، أغنية حزينة لكنها ساحرة.

نحن بنات النار السرية.

النار التي تجري في عروق الأرض.

نحن بنات الفجر والندى.

نحن بنات الهواء.

نحن بنات الماء.

لكن قبل كلّ شيء نحن بنات السماء.

أدت هذه الأغنية، ذات الطابع الهادئ والرائع إلى زيادة الكآبة الوادعة، فضرب غريفوس البلاط بعصاه وهو يصرخ غاضبًا:

- مهلًا! أيها السيد المغني ألا تسمعني؟

التفت كورنيليوس وقال:

- صباح الخير.

وواصل أغنيته:

الرجال يدنسوننا ويقتلوننا بحبهم.

نحن مرتبطون بالأرض بخيط،

هذا الخيط هو جذر حياتنا،

لكننا نرفع أيدينا إلى السماء قدر المستطاع.

صرخ غريفوس:

- تبا لك! أيها الساحر الملعون، أظن أنك تمزح، أليس كذلك!

وتابع كورنيليوس:

الجنة وطننا،

وطننا الحقيقي،

منها تأتي روحنا،

وإليها تعود روحنا،

روحنا، هي عطرنا.

اقترب غريفوس من السجين:

- ولكن ألا ترى أنني جلبت الوسيلة الصحيحة لتأديبك وإجبارك على الاعتراف بجرائمك؟

سأل كورنيليوس وهو يلتفت:

- هل أنت مجنون يا عزيزي السيد غريفوس؟

وبعد أن قال عبارته، رأى كورنيليوس أن وجه غريفوس قد امتقع، وعينيه تومضان، وفم السجان العجوز يرغي غضبًا فقال كورنيليوس:

- اللعنة! نحن أكثر من مجانين، وعلى ما يبدو. نحن غاضبون!

أدار غريفوس عصاه على البلاط، ولكن دون أن يتحرك.

فقال ڤان بيرل:

- السيد غريفوس، يبدو أنك تهددني؟

صاح السجان:

- أكيد، إنني أهددك!

- ولماذا؟

- أولًا، انظر إلى ما أحمله في يدي.

قال كورنيليوس بهدوء:

- أعتقد أنها عصا، بل هي عصا غليظة؛ لكني لا أفترض أن هذا ما تهددني به.

- آه! أنت لا تفترض ذلك! ولماذا؟

- لأن أي سجان يضرب سجيناً يواجه عقوبتين؛ الأولى، المادة: 9 من قواعد سجن لويفستين، أي سجان أو مفتش أو حامل مفتاح يعتدي بيديه على سجين حكومي سيطرد.

قال غريفوس والغضب يكاد يطير عقله:

- أنا لن أستعمل اليد، لكن العصا! نعم العصا، القواعد لا تذكرها.

تابع كورنيليوس:

- والثانية، وهذه الثانية لا تدخل في القواعد ولكنها موجودة في الإنجيل، الثانية، ها هي:

«من يضرب بالسيف يهلك بالسيف»، «أي شخص يعاقب بالعصا سيضرب بالعصا».

شعر غريفوس بسخط متزايد تجاه نبرة كورنيليوس الهادئة والحكيمة، فلوح بعصاه؛ ولما رفعها عاليا وثب كورنيليوس وخطفها من يده ووضعها تحت ذراعه، عندها أطلق غريفوس صرخة غاضبة، فقال كورنيليوس:

- أحذرك أيها العجوز، أتريد أن تخاطر بخسارة عملك.

زأر غريفوس:

- حسنًا! أيها الساحر، سأعاقبك بطريقة أخرى.

- متى تشاء.

- هل ترى يدي الفارغة؟

- نعم أراها، وأشعر بارتياح.

- أنت تعلم أنه ليس من عادتي أن أصعد إلى زنزانتك في الصباح.

- آه! هذا صحيح، عادة ما تحضر لي أسوأ وأفظع حساء يمكن تخيله. لكن هذا، بالنسبة لي ليس عقابًا. أنا آكل الخبز فقط، وكلما كان الخبز طعمه سيئًا في نظرك يا غريفوس، كان أفضل عندي.

- أفضل عندك؟

- نعم.

- وما سبب ذلك؟

- حسنًا! السبب بسيط جدًا.

- قل ما هو.

- بكل سرور، عندما تقدم لي خبزًا سيئًا، تعتقد أنك ستزيد من معاناتي.

- في الواقع أنا لا أقدمه لك لإرضائك أيها اللص.

- حسنًا! أنا ساحر، كما تعلم، لهذا أقوم بتغيير خبزك السيئ إلى خبز ممتاز، يعجبني أكثر من الكعك، وإذن يسعدني أن آكل حسب ذوقي أولًا، ثم لأجعلك في حالة غضب شديد.

صرخ غريفوس حانقًا وقال:

- حسنًا! أنت تعترف إذن بأنك ساحر!

- بالطبع! نعم، لكني لا أقول ذلك أمام الملأ، لأن ذلك قد يقودني إلى المحرقة كما حدث لجوفريدي أو أوربان غراندي؛ ولكن عندما نكون لوحدنا فقط، فلا بأس من إخبارك بذلك

أجاب غريفوس:

- طيب هذا ممتاز، ولكن إذا كان الساحر يصنع خبزًا أبيض عوض الخبز الأسود، فالساحر لن يموت جوعاً إذا لم يكن لديه خبز على الإطلاق؟

قال كورنيليوس:

- ماذا!

- لهذا لن أحضر لك المزيد من الخبز على الإطلاق وسنرى بعد ثمانية أيام.

امتقع وجه كورنيليوس.

وتابع غريفوس:

- ابتداء من اليوم. وما دمت ساحرًا جيدًا، فلترنا إذن، كيف تقوم بتحويل الأثاث في غرفتك إلى خبز؛ بالنسبة لي، سأكسب كلّ يوم ثمانية عشر سنتًا التي تدفع لي مقابل طعامك.

صرخ كورنيليوس مرتعبًا رعبًا مبررًا، مردّه إلى هذا النوع الرهيب من الموت.

- ولكن هذه جريمة قتل!

واصل غريفوس بنبرة ساخرة:

- حسنًا، بما أنك ساحر، ستعيش على أي حال.

استرجع كورنيليوس مزاجه الضاحك، وهز كتفيه:

- ألم تر كيف أحضرت الحمام من دوردريخت إلى زنزانتي؟

قال غريفوس:

- يا للعجب!

- طيب! الحمام المشوي لذيذ. أظن أن الرجل الذي يأكل حمامة كلّ يوم لن يموت جوعا؟

قال غريفوس:

- ومن أين تأت بالنار؟

- تسأل عن النار! لكنك تعلم أنني عقدت صفقة مع الشيطان. هل تعتقد أن الشيطان سيتركني دون نار وهي مصدر تكوينه؟

- لا يستطيع الرجل، مهما كان قويًا، أن يأكل حمامة كلّ يوم، ثم إنك في النهاية ستملّ ذلك.

قال كورنيليوس:

- حسنًا! عندما سأتعب من الحمام، سأحضر السمك من الفال والموز.

جحظت عينا غريفوس مذعورتين:

وتابع كورنيليوس:

- أحب السمك كثيرًا، أنت لم تقدمه لي أبدا. حسنًا! سأستغل رغبتك في تجويعي لأتغذى على الأسماك.

كاد غريفوس يغمى عليه من شدة الغضب بل والخوف أيضًا، لكنه غير رأيه وقال وهو يضع يده

في جيبه، وأخرج سكينًا وفتحها:
- حسنًا! أنت الآن تجبرني.
قال كورنيليوس مدافعًا عن نفسه بعصاه.
- حسنًا! ستستخدم السكين!

الفصل التاسع والعشرون

أين أُخِذ ڤان بيرل..

قبل أن يغادر لويفستين، سوّى كورنيليوس حساباته مع غريفوس.

في الزنزانة وقفا لحظة يراقبان بعضهما، غريفوس يستعد للهجوم، وڤان بيرل في موقع الدفاع، لكن الوضع بقي على حاله، فترة طويلة، فبادر كورنيليوس إلى استفسار خصمه عن أسباب غضبه فقال:

- حسنًا، والآن ماذا تريد؟

أجاب غريفوس:

- سأخبرك ماذا أريد. أريدك أن تعيد لي ابنتي روزا.

صرخ كورنيليوس:

- ابنتك!

- نعم روزا! روزا التي أخذتها مني بفنك الشيطاني. هل ستخبرني أين هي؟

وأصبح غريفوس شيئًا فشيئا أكثر خطورة.

صاح كورنيليوس:

- لا توجد روزا في لويفستين؟

- أنت تعرف ذلك جيدًا. هل ستعيد لي روزا مرة أخرى؟

قال كورنيليوس:

- حسنًا، أنت تنصب لي شركا.

- أسألك للمرة الأخيرة، هل ستخبرني أين توجد ابنتي؟

- مهلًا! إذا كنت لا تعرف، يمكنك أن تخمن مكانها أيها الوغد.

دمدم غريفوس شاحبًا وشفتاه تتشنجان من الجنون الذي بدأ يغزو دماغه:

- انتظر، انتظر، آه! ألا تريد أن تعترف، حسنًا! وإذن سأكسر أسنانك.

خطا خطوة نحو كورنيليوس، وأشهر السلاح الذي بدأ يلمع في يده وقال:

- هل ترى هذا السكين؟ حسنًا، لقد قتلت به أكثر من خمسين ديكًا أسود، وسأقتل سيدهم الشيطان كما قتلتهم، هيا استعد!

قال كورنيليوس:

- سحقا لك، أيها النذل، أنت تريد حقًا اغتيالي!

- أريد أن أفتح قلبك، لأرى المكان الذي تختبئ فيه ابنتي.

وعقب قوله هذه الكلمات بحيرة شديدة، اندفع غريفوس صوب كورنيليوس، فلم يكن أمام هذا الأخير لتفادي الضربة الأولى سوى إلقاء نفسه خلف طاولته.

استخدم غريفوس سكينه الكبير، وأطلق تهديدات مروعة، محذرا كورنيليوس أنه إذا كان بعيد المنال، فلن يكون بعيدًا عن سلاحه.

أدرك كورنيليوس أن السلاح يمكن أن يصوبه في اتجاهه، فيجتاز الفضاء، ويأتي ليطعنه في صدره. لذلك لم يضيع لحظة، وبادر بواسطة عصاه، إلى تسديد ضربه قوية إلى معصم اليد الحاملة للسكين، فأسقطه على الأرض، ووضع كورنيليوس قدمه فوقه، ثم حاول غريفوس أن يخوض صراعًا شرسًا بعدما شعر بالعار من نزع سلاحه مرتين، لكن كورنيليوس جثم على صدره، وانهال بالضرب على السجان ببرودة أعصاب، وبشجاعة كبيرة، مصطفيا في كلّ مرة المكان الذي تسقط فوقه الهراوة الرهيبة.

وسرعان ما بدأ غريفوس يطلب الرحمة.

ولكن قبل أن يطلب الرحمة صرخ كثيرًا، فسمعت صرخاته وأثارت اضطراب جميع العاملين في السجن. وفجأة حضر حارسان من حملة المفاتيح ومفتش وثلاثة أو أربعة حراس وفاجؤوا كورنيليوس وهو يستخدم العصا في يده والسكين تحت قدمه.

ونظرا لوجود كلّ هؤلاء الشهود على الجريمة التي ارتكبها للتو، والتي كانت ظروفها غير معروفة، كما يقولون اليوم، شعر كورنيليوس بالضياع التام.

في الواقع كانت كلّ الدلائل العينية ضده.

في لمح البصر، نزع سلاح كورنيليوس؛ وكان غريفوس محاطًا، مرفوعًا، مدعومًا، يمكنه أن يحصي، غاضبًا، الكدمات التي انتفخت في كتفيه وعموده الفقري، مثل تلال كثيرة تبرقش سفح الجبل.

حرر على الفور محضر اعتداء السجين على حارسه، ولا يمكن اتهام التقرير الذي نفذه غريفوس بالفتور؛ لأن الاعتداء بمثابة محاولة اغتيال، خطط لها السجان منذ فترة طويلة ونفذها مع سبق الإصرار في حق السجان، وبالتالي فهي بمثابة تمرد علنيّ.

خلال إعداد المحضر ضد كورنيليوس، وبعد تقديم غريفوس المعلومات الضرورية أصبح وجوده دون جدوى، فأنزله حارسان إلى غرفته، يئن مطحونًا من الضرب.

خلال هذا الوقت، كان الحراس الذين سيطروا على كورنيليوس منشغلين بإبلاغه بأسلوب لطيف عن عادات وأعراف لويفستين، والتي كان يعرفها جيدًا، لأن القواعد تليت عليه لحظة دخوله إلى السجن، وبعض مواد هذه القواعد قد ترسخت في ذاكرته تمامًا. كما أخبروه أن هذه القواعد طبقت مسبقًا على سجين يُدعى ماتياس، الذي قام في عام 1668، أي قبل خمس سنوات، بتمرد بشكل مختلف وليس مؤذيا كثيرًا كما فعل كورنيليوس.

كان قد وجد حساءه ساخنًا جدًا فألقاه على وجه رئيس الحراس، الذي بعدما مسح وجهه انسلخ جزء من جلده.

أخذ ماتياس عند الساعة الثانية عشرة من غرفته. ثم اقتيد إلى سجن لويفستين حيث دون اسمه في سجل المغادرين؛ وبعد ذلك نقل إلى المنتزه حيث المنظر الطبيعي في غاية الجمال، وحيث

المدى يحتضن أحد عشر فرسخًا. هناك قيدت يداه، وعصبت عيناه وتلا ثلاث صلوات.

ثم دعي إلى للجثو على ركبتيه. كان حراس لويفستين، وعددهم اثنا عشر، تحت إمرة الرقيب، سددوا بمهارة شديدة رصاصات بنادقهم إلى جسمه.

مما أدى إلى مقتل ماتياس حالا. استمع كورنيليوس بقدر كبير من الاهتمام لهذه القصة البغيضة.

ثم بعد أن أصغى إليها قال:

-عجبًا! عجبًا! تقول عند الساعة الثانية عشرة ؟

قال راوي الواقعة:

- نعم، وأعتقد أن الساعة الثانية عشرة لم تدق بعد.

قال كورنيليوس:

- شكرا لك.

لم يكد الحارس يختم ابتسامته الكريمة التي كانت بمثابة علامات ترقيم لقصته حتى تردد صدى خطوات قادمة من الدرج، فتنحى الحراس جانبا للسماح لضابط بالمرور. دخل الأخير غرفة كورنيليوس في اللحظة التي كاتب لويفستين مازال مسترسلًا في حديثه.

فسأله الضابط:

- هل هذا رقم 11؟

أجاب ضابط الصف:

- نعم سيدي العقيد.

- هنا إذن غرفة السجين كورنيليوس ڤان بيرل؟

- بالضبط، عقيد.

- أين السجين؟

أجاب كورنيليوس ممتقعا قليلًا رغم شجاعته:

-ها أنذا يا سيدي.

سأل، هذه المرة مخاطبا السجين ذاته:

- هل أنت السيد كورنيليوس ڤان بيرل؟

- نعم يا سيدي

- إذن، اتبعني.

قال كورنيليوس وقلبه يخفق بقوة، وقد بدأ يشعر بقلق عارم من دنو ساعة الموت:

- عجبًا! عجبًا!، ما هذه السرعة التي يعمل بها المرء في قلعة لويفستين، هذا الطريف الوغد أخبرني أن الأمر ينفذ في الساعة الثانية عشرة!

قال الحارس في أذن المحكوم بالإعدام.

- أرأيت! ماذا قلت لك؟

- كذبة.

- كيف ذلك؟

- لقد وعدتني بأن يتم الأمر في الثانية عشرة

- آه! نعم. لكن أنت أرسلوا إليك مساعدًا لصاحب السمو، السيد فان ديكين أحد أكثر المقربين منه. اللعنة! لم يحظ بمثل هذا الشرف ماتياس المسكين.

قال كورنيليوس وهو يملأ صدره بأكبر قدر ممكن من الهواء:

- هيا، هيا، دعنا نبين لهؤلاء الأشخاص أن البورجوازي، ربيب كورني دو وايت، يمكنه، دون وجل، أن يتلقى أكبر عدد من رصاص البنادق، تماما كالمدعو ماتياس.

وتجاوز بكبرياء كاتب المحكمة الذي توقفت مهامه، فغامر قائلًا للضابط:

- لكن، أيها العقيد فان ديكن، إن تحرير المحضر لم ينته بعد.

أجاب الضابط:

- لا داعي لإنهائه.

أجاب الكاتب، ممسكًا بتصنع أوراقه وريشة في محفظة بالية وقذرة.

- حسنًا!

فكر كورنيليوس المسكين:

- لقد قدر عليّ فعلًا، ألا أمنح اسمي في هذا العالم لا لابن، ولا لزهرة، ولا لكتاب، هذه الضروريات الثلاث التي يفرض الرب واحدة منها، على الأقل، لكل رجل منظم قليلًا يتنازل للسماح للأرض بأن تنعم بملكية الروح والانتفاع بالجسد.

وسار كورنيليوس وراء الضابط بقلب حازم ورأسه شامخ وهو يعدّ الدرجات المؤدية إلى الباحة، متأسفا لأنه لم يسأل من قبل السجان عن عددها.

كلّ ما كان يخشاه محكوم بالإعدام وهو في طريقه، أن يرى بالتأكيد كما الشخص الذي سيقوم برحلة طويلة، غريفوس بدل أن يرى روزا. ويا للرضا، حقا، الذي سيشرق على وجه الأب! ويا له من ألم سيظهر على وجه الفتاة!

لكنه إذا لم ير روزا، الفتاة المسكينة، وإذا كان سيموت دون أن يقبلها آخر قبلة أو على الأقل أن يودعها الوداع الأخير؛ إذا كان سيموت أخيرًا، دون أن يسمع أية أخبار عن الزنبقة السوداء العظيمة، وإذا كان سيستيقظ هناك، ولا يعرف أية وجهة يجب أن ينظر إليها لكي يعثر عليها!

في الواقع، حاول بستاني الزنابق المسكين ألا يجهش بالبكاء في مثل هذه اللحظة.

حاول كورنيليوس النظر إلى اليمين عبثًا، وإلى اليسار بلا جدوى، ووصل إلى الباحة دون أن يرى روزا، ودون أن يلمح غريفوس.

كان ثمة تعديل تقريبا.

وصل كورنيليوس إلى الساحة، ونظر بشجاعة إلى الحراس بحثًا عن منفذي الإعدام، فرأى بالفعل عشرات الجنود متحلقين يتجاذبون أطراف الحديث؛ ولكنهم متجمعون ويدردشون دون بنادق؛ يتحدثون دون اصطفاف بل ويتهامسون مع بعضهم البعض بصوت خافت، بدا لكورنيليوس هذا التصرف غير جدير بجسامة الحدث الاستثنائي.

فجأة خرج غريفوس من سجنه وهو يعرج، مترنحًا، متكئًا على عكاز. ورمق كورنيليوس بنظرة مشحونة بوميض أخير من الكراهية يتطاير شررها من عينيه الرماديتين اللتين تشبهان عيني قط. ثم بدأ يقذف في وجه كورنيليوس سيلا بغيضا من الشتائم دفعت كورنيليوس إلى مخاطبة الضابط:

- سيدي، لا أعتقد أنه من اللائق أن أهان من هذا الرجل، وخاصة في هذه اللحظة بالذات.

قال الضابط ضاحكًا:

- اسمع، من الطبيعي أن يستاء منك هذا الرجل الطيب يبدو أنك أشبعته ضربا.

- لكن يا سيدي كان ذلك ضد إرادتي، لأني كنت أدافع عن نفسي.

قال العقيد وهو يطبطب برزانة على كتفيه:

- حسنًا! دعه يقول ما يريد. لا يهمك الآن.

على إثر هذا الرد تفصد جبين كورنيليوس بعرق بارد، واعتبره مفارقة وحشية بعض الشيء، خاصة من ضابط قيل أنه مقرب جدًا من الأمير.

أدرك التعس أنه أصبح أعزل، ولم يعد لديه أصدقاء فاستسلم لمصيره المحتوم.

فتمتم مطأطئا رأسه:

- حسنًا؛ لقد خُلق العديد من أشباه المسيح، أكثر براءة مني. لا أستطيع مقارنة نفسي به. كان المسيح سيسمح بأن يضربه السجان ولن يقاومه البتة.

ثم التفت نحو الضابط، الذي بدا منتظرا ومراعيا أن ينتهي كورنيليوس من تفكيره فسأله:

- قل يا سيدي، إلى أين أنا ذاهب؟

أشار الضابط إلى عربة يجرها أربعة جياد، ذكّرته بإلحاح بالعربة التي لفتت انتباهه في مثل هذه الظروف في بوتنهوف وقال:

- اصعد إلى الداخل.

غمغم كورنيليوس:

- عجبًا! يبدو أنهم لن يمنحوني شرف الميدان!

قال ذلك بصوت عالٍ بما يكفي لكي يسمعه كاتب المحكمة الذي كان يسير إلى جانبه، فظن هذا الأخير أن من واجبه أن يقدم لكورنيليوس معلومات جديدة، لأنه اقترب من الباب، وبينما كان الضابط، يضع قدمه على الدرج، ويعطى بعض الأوامر، قال له، بصوت خافت:

- لقد رأينا بعض المدانين يؤخذون إلى بلداتهم، ولكي يكونوا عبرة لعدد أكبر من الناس،

يتعرضون للعقاب أمام أبواب منازلهم. وذلك يعتمد على نوع العقوبة.

أومأ كورنيليوس بعلامة شكر.

ثم قال في نفسه:

- حسنًا، نعم الأمر! هنا صبي لا يفشل أبدًا في تقديم العزاء عندما تسنح الفرصة. من قلبي، يا صديقي، أنا ممتن لك كثيرًا. الوداع!

وانطلقت العربة.

صرخ غريفوس مشيرًا بقبضته إلى ضحيته الهاربة:

- آه! أيها الوغد! آه! أيها اللص! أظن أنه يغادر دون أن يعيد ابنتي إلي!

قال كورنيليوس:

- إذا أخذوني إلى دوردريخت، فسأرى بيتي، وخلال مروري، سأتأكد إن كانت مشاتل أزهاري قد دمرت.

الفصل الثلاثون

الارتياب فيما ينتظر كورنيليوس ڤان بيرل من عقاب..

سارت العربة طوال اليوم تاركة دوردريخت على اليسار وعبرت روتردام ووصلت إلى دلفت. بحلول الساعة الخامسة مساءً، قطعت عشرين فرسخًا على الأقل.

وجه كورنيليوس بعض الأسئلة إلى الضابط الذي كان، على حد سواء، حارسه ورفيقه؛ ولكن، على الرغم من أن طلباته كانت حذرة، إلا أنه كره أن تبقى دون إجابة.

أسف كورنيليوس لأن الحارس الملاطف والمتحدث باسترسال، لم يرافقه في الرحلة.

كان سيقدم، بلا شك، عن هذه الغرابة التي تحدث في مغامرته الثالثة، تفاصيل رشيقة وتفسيرات دقيقة كما في المرحلتين الأوليتين.

قضوا الليل في العربة، وفي اليوم التالي، عند الفجر، وجد كورنيليوس نفسه خارج ليدن، حيث كان بحر الشمال على يساره وبحر هارلم على يمينه.

بعد ثلاث ساعات دخل هارلم.

لا يعلم كورنيليوس ما حدث في هارلم البتة، وسنتركه في جهله إلى أن يحين أوان مشاركته في الحوادث

لكن لا يمكن قول الشيء نفسه عن القارئ، الذي له الحق في معرفة الأشياء، حتى قبل بطلنا.

لقد رأينا أن روزا والزنبقة، الشبيهتين بالشقيقتين والطفلتين اليتيمين، قد تركهما أمير أورانج مع الرئيس فان هريسن.

لم تتلق روزا أي خبر من الستاتهاودر منذ مساء يوم رؤيتها له وجهًا لوجه.

عند حلول المساء دلف ضابط إلى منزل فان هيرسن. جاء مبعوثًا من صاحب السمو لدعوة روزا إلى منزل المدينة.

أدخلت إلى غرفة المدأولًات الكبرى حيث وجدت الأمير يكتب.

كان وحيدًا وعند قدميه كلب سلوقي فريز ياندي كبير يحدق به، كما لو أن الحيوان المخلص يحاول أن يفعل شيئًا لا يستطيع البشر أن يفعلوه، كأن يقرأ ما يدور في رأس سيده.

واصل غيوم الكتابة برهة، ثم نظر إلى الأعلى فرأى روزا واقفة بالقرب من الباب، فقال دون أن يتوقف عن الكتابة:

- تعالي يا آنسة.

خطت روزا بضع خطوات نحو الطاولة وقالت وهي تتوقف:

- مولاي.

قال الأمير:

- هذا حسن، اجلسي.

انصاعت روزا، لأن الأمير كان ينظر إليها.

لكن ما أن نظر إليها حتى عاد إلى تمعن ورقته، فخفضت بصرها خجلة.

واصل الأمير كتابة رسالته. وخلال هذا الوقت، ذهب السلوقي إلى جوار روزا وتعرف عليها وداعبها.

أشار غيوم إلى كلبه وقال:

- عجبًا! عجبًا! لا بد أنك تعرفت على الفتاة هي من بلدك.

ثم التفت إلى روزا ورمقها بنظرة فاحصة ومضمرة في آن واحد، قال:

- تعالي يا بنتي.

كان الأمير يكاد يبلغ سن الثالثة والعشرين، وكانت روزا في الثامنة عشرة أو العشرين؛ كان من الأفضل لو قال «أختي».

قال بنبرته الغريبة التي تجمد دماء كلّ يعاشره عن قرب:

- ابنتي، نحن لوحدنا، فلنتحدث.

بدأ جسم روزا يرتجف كله، ولكن وجه الأمير، لا يوحي إلا بالطمأنينة والعطف.

فقالت متلعثمة:

- مولاي.

- هل والدك في لويفستين؟

- نعم، مولاي.

- أنت لا تحبينه؟

- أنا لا أحبه، يا سيدي، على الأقل، كما تحب الفتاة والدها.

- من الخطأ ألا تحبي أباك، يا بنيتي، لكن من الجيد ألا تكذبي على أميرك.

فخفضت روزا عينيها.

- ولماذا لا تحبين والدك؟

- والدي لئيم وشرير.

- كيف يظهر شره؟

- والدي يسيء معاملة السجناء.

- كلّ السجناء؟

- نعم كلّهم.

- ولكن ألا تلومينه على إساءة معاملة شخص محدد؟

- والدي يسيء معاملة السيد ڤان بيرل بشكل خاص، والذي...

- الذي تحبينه؟

تراجعت روزا خطوة للوراء، ردت بكبرياء:

- نعم أنا أحبه يا مولاي.

سأل الأمير:

- منذ مدة طويلة؟

- منذ اليوم الذي رأيته.

- ومتى رأيته؟

- في اليوم التالي ليوم إعدام المتقاعد الأكبر جان وشقيقه كورني، وبشكل رهيب.

زمّ الأمير شفتيه منفعلًا، وقطب جبهته، وخفض جفنيه لحظة، ليخفي عينيه، وتابع كلامه، بعد برهة صامتة:

- ولكن ما فائدة أن تحبي رجلاً مصيره أن يعيش ويموت في السجن؟

- سيساعدني، يا مولاي، إذا كان سيعيش ويموت في السجن، لأساعده على العيش والموت.

- وهل تقبلين أن تكوني زوجة سجين؟

- سأكون أكثر فخرًا وأبهج المخلوقات البشرية لكوني زوجة السيد فان بيرل؛ ولكن...

- ولكن ماذا؟

- لا أجرؤ على الكلام يا مولاي.

- في نبرتك شعور بالأمل؛ ماذا تأملين؟

رفعت عينيها الجميلتين ونظرت إلى غيوم، كانت عيناها صافيتين ومترعتين بذكاء نفاذ إلى درجة أنهما غاصتا عميقًا بحثًا عن الرحمة الراقدة في أعماق ذلك القلب المظلم، والغارق في سبات الموتى.

- حسنًا! أدرك ما تريدين.

ابتسمت روزا وهي تضم يديها رجاء.

- قال الأمير:

أنت تأملين أن أساعدك.

- نعم مولاي.

- حسنًا!

ختم الأمير الرسالة التي كان بصدد كتابتها ونادى أحد ضباطه، وقال له:

- السيد فان ديكن، احمل هذه الرسالة إلى لويفستين اقرأ أوامري على حاكم السجن، واعمل على تنفيذها بالحرف.

انحنى الضابط، وبعد برهة سمع، تحت قبة المنزل، صدى ركض الحصان.

وتابع الأمير:

- يا بنتي، يصادف الأحد عيد الزنبقة، والأحد هو بعد غد.

خذي الخمسمئة غيلدر هذه وتزيني بها بأحسن الملابس؛ لأنني أريد أن يكون ذلك اليوم يوم احتفالك الكبير.

همست روزا:

- كيف تريد سموك أن تكون ملابسي؟

قال غيوم:

- ارتدي زي عروس الفريزلانديين، سيليق بك كثيرًا.

لفصل الحادي والثلاثون

هارلم..

تعتبر هارلم، التي دخلناها قبل ثلاثة أيام مع روزا ودخلناها مع السجين، مدينة جميلة تفخر بحق لكونها واحدة من أكثر المدن فيئا في هولندا.

في الوقت الذي وضعت فيه مدن أخرى، بريق كبريائها في الترسانات العسكرية، والساحات والمتاجر والبازارات، وضعت هارلم كلّ مجدها مقارنة بمدن المقاطعات جميعها في غرس أشجار الدردار الكثيفة الجميلة وأشجار الحور النحيلة، وخاصة منتزهاتها الظليلة، والتي تمتد فوقها أقواس من أشجار السنديان، والزيزفون، والكستناء.

عندما لاحظت هارلم أن ليدن جارتها، وأمستردام ملكتها، تسير الأولى في طريق أن تصبح مدينة للعلوم، والأخرى ستغدو مدينة تجارية، اختارت هارلم أن تكون مدينة زراعية أو بالأحرى مدينة للبستنة.

في الحقيقة، تتميز المدينة بأنها مغلقة جيدًا وتهويتها ممتازة ودافئة بأشعة الشمس، وبهذا وفرت للبستانيّين، برياحها البحرية أو شموسها في السهول، ضمانات لا يمكن أن تقدمها لهم مدينة أخرى.

لهذا السبب نرى تلك العقول الهادئة كلّها، التي نشأت في هارلم على حب الأرض وممتلكاتها، كما نرى في روتردام وأمستردام، تلك العقول القلقة والمضطربة التي يستحوذ عليها حب السفر والتجارة، كما نلاحظ أيضًا أن كلّ السياسيين ومحبي الحياة الاجتماعية يستقرون في لاهاي.

قلنا: إن ليدن كانت موطن العلماء واكتشافاتهم.

لكن هارلم نزعت صوب الأشياء الحلوة والموسيقى والرسم والبساتين والنزهات والغابات وأحواض الأزهار.

فأضحت هارلم مجنونة الأزهار، ومن بين هذه الأزهار، أزهار الزنبق، لهذا اقترحت هارلم جوائز تكريمًا لأزهار الزنبق، ومن ثَمّ نأتي، بشكل طبيعي تمامًا كما نرى، للحديث عن الجائزة التي اقترحتها المدينة، في 15 مايو 1673، تكريمًا للزنبقة السوداء العظيمة الخالية من الشوائب والعيب، والتي كان من المفترض أن ينال مخترعها مئة ألف غيلدر.

بعد أن تألقت هارلم بفضل تخصصها، أبدت اهتمامًا راقيًا بالأزهار بشكل عام والزنابق بشكل خاص، في الوقت الذي كان كلّ شيء في حالة حرب أو فتنة، كانت هارلم سعيدة برؤية أنموذج طموحها، وشرفها العظيم يزدهر بأزهار الزنبقة المثالية.

لذلك أرادت هارلم، المدينة الجميلة المليئة بالغابات والشمس والظلال والضوء، أن تجعل الاحتفال بافتتاح الجائزة عيدًا يستمر خالدًا في ذاكرة الرجال.

وكان لها كلّ الحق في القيام بذلك لأن هولندا هي بلد المهرجانات؛ لم تكن طبيعتها خاملة أبدًا بل كانت في مناسبات الترفيه أكثر حماسة وغناء ورقصًا من جمهور المقاطعات السبع الطيبين.

ويمكن ملاحظة ذلك في لوحات تينيرز.([4])

من المؤكد أن الكسالى هم أكثر الرجال حرصًا على إجهاد أنفسهم، ليس بسبب انهماكهم في العمل، بل لأنهم يستمتعون بأوقاتهم أيما استمتاع.

لذلك شعرت هارلم بسعادة غامرة ومضاعفة ثلاث مرات، لأنها ستحتفل لأسباب ثلاثة: اكتشاف الزنبقة السوداء؛ ثم حضور غيوم أمير أورانج الحفل كما يليق بأي هولندي حقيقي؛ وأخيرًا، كانت فرصة شرفية للأقاليم المتحدة أن تُبين للفرنسيين، بعد الحرب الكارثية التي وقعت في 1672، أن أرض الجمهورية الهولندية كانت شديدة الصلابة بحيث يمكن للمرء أن يرقص هناك بمرافقة ودعم مدافع الأساطيل.

أثبتت هيئة هارلم للبستنة أنها تستحق ذلك من خلال التبرع بمئة ألف غيلدر من أجل بصيلة زنبق. أبت المدينة إلا أن تساهم، فصوتت لصالح هذا المبلغ الذي سلم إلى وجهائها للاحتفال بهذه الجائزة الوطنية.

ولذلك حدد، يوم الأحد لهذا الحفل، لم نر قطّ مثل هذا الشغف من الحشد، ومثل هذا الحماس من سكان المدينة، حيث لا يستطع المرء، وحتى بالنسبة للفرنسيين وابتسامتهم الماكرة، الذين يضحكون على كلّ شيء وفي كلّ مكان إلا الإعجاب بشخصية هؤلاء الهولنديين الطيبين، المستعدين لإنفاق أموالهم، سواء لبناء سفينة بهدف محاربة العدو، أي دعم شرف الأمة، ومكافأة اختراع زهرة جديدة قُدِّر لها أن تسلي يوماً ما النساء والعلماء والفضوليين.

خلال ذلك اليوم، وعلى رأس الأعيان ولجنة البستنة أشرق السيد فان هريسن، مرتديًا ملابسه النفيسة.

لقد بذل الرجل القدير قصارى جهده ليُشبه زهرته المفضلة بأناقة ملابسه الرصينة والصارمة، ودعونا نسارع إلى القول إنه سعى أيضًا إلى إظهار افتخاره بنجاحه التام.

كان الرئيس متشحًا بلباس أسود قاتم، مصنوع من المخمل الجربيّ، والحرير البنفسجي، والكتان الأبيض المبهر، تقدم الرئيس على رأس لجنته، مع باقة ضخمة مثل تلك التي كان سيحملها بعد مئتين وإحدى وعشرين سنة السيد دو روبسبيير خلال عيد الكائن الأسمى.

لكن الرئيس الشجاع، بدلًا من أن يحمل ذلك القلب المليء بالكراهية والاستياء من الحسد للخطيب الفرنسي، كان صدره يضم زهرة لا تقل براءة عن تلك التي كان يحملها بيده.

يمكننا أن نرى خلف هذه اللجنة، الملونة مثل العشب، المعطرة مثل الربيع، شخصيات المدينة، من القضاة، والجنود، والنبلاء، والرعاع.

وحتى جمهوريو المقاطعات السبع لم يجدوا مكانهم في ترتيب المسيرة هذه؛ فوقفوا وراء الحاجز.

علاوة على ذلك، فهي أفضل الأماكن التي يمكن الرؤية منها ... وأكثر الأماكن التي تحتشد فيه جموع المنتظرين، هذه فلسفة الدول، حتى يتم عرض الانتصارات، ليعرفوا كيف يروونها، وأحيانًا ماذا يفعلون بها، لكن هذه المرة، لم تكن مسألة انتصار بومبي، ولا انتصار قيصر. هذه المرة، لن يحتفل بهزيمة ميثريدات ولا غزو بلاد الغال. كان الموكب يمر لطيفًا ووديعا مثل قطيع من الأغنام على الأرض، ومسالًما كسرب من الطيور يحلق في السماء.

لا تملك هارلم أي انتصارات أخرى غير البستانيين. كانت هارلم تعشق الأزهار، وتؤله مزارعي الأزهار.

في وسط المسيرة المسالمة والمعطرة، كان بإمكاننا رؤية الزنبقة السوداء، محمولة على نقالة مغطاة بمخمل أبيض مهدب بشراريب من الذهب. بواسطة أربعة رجال حُملوا بدورهم فوق نقالة حملها الآخرون، كما في روما؛ حينما نقل أولئك الذين حملوا الأم سايبيل، عندما دخلت المدينة الخالدة، قادمة من إتروريا مصحوبة بأصوات الأبواق وتمجيد الشعب.

كان معرض الزنابق هذا تكريمًا قدمه شعب همجي برمته، بلا ثقافة ولا ذوق، من أجل ذوق وثقافة أوليائهم المشهورين والأتقياء الذين يعرفون كيف يسفكون دماءهم على رصيف بوتنهوف الموحل، باستثناء من سجلت أسماء ضحاياهم، فيما بعد، على أجمل حجر في البانتيون الهولندي.

لقد تقرر أن يوزع الأمير ستاتهاودر جائزة المئة ألف غيلدر بنفسه، الأمر الذي كان يهم الجميع بشكل عام، وأن يلقي خطابًا يثير اهتمام أصدقائه وأعدائه بشكل خاص.

في الواقع، لطالما اعتقد أصدقاء أو أعداء هؤلاء السياسيين أن خطاباتهم الأكثر لامبالاة، يوجد فيها دائمًا ما يمكن أن تفسر منه أفكارهم.

كما لو أن قبعة السياسي لم تكن حاجزا لإخفاء الحقيقة ومنع بارقة كلّ الضوء.

وأخيرًا، قدم اليوم العظيم المنتظر في 15 مايو 1673، واصطفت هارلم كلّها، مدعومة بمحيطها، على طول أشجار الغابة الجميلة، مع قرار حازم بألا يُصفَّق هذه المرة لا لغزاة الحرب، ولا لممارسي العلم، ولكن ببساطة لهؤلاء الطبيعيين، الذين أجبروا للتو هذه الأرض الأم التي لا تنضب على ولادة الزنبقة السوداء المستحيلة.

لكن الشعوب لا تلتزم بقرارات التصفيق والإشادة بهذا الشيء دون ذاك. عندما تصفق مدينة ما، يبدو الأمر كما لو كان صفيرًا، فلا يعرف أبدًا متى سيتوقف، ولا أين سينتهي.

لذلك صفقت في البداية من أجل باقة أزهار فان هيرسن، وأشادت بأعضاء الهيئة، وحيّت نفسها؛ وأخيراً، نقولها بكل إنصاف هذه المرة، فقد صفقت مشيدة بالموسيقى الماهرة التي أغدقها موسيقيو المدينة بسخاء على كلّ وقفة للموكب.

كانت الأنظار كلّها تبحث عن بطلة الحفلة وهي الزنبقة السوداء، كما تفتش عن بطل الحفلة، وهو بطبيعة الحال مخترع هذه الزنبقة. سيظهر هذا البطل بعد الخطاب الذي هيّأه فان هريسن الطيّب بضميره الحيّ، من المؤكد أن هذا البطل سيكون له تأثير كبير على ستاتهاودر نفسه.

ولكن، بالنسبة لنا، فإن أهمية هذا اليوم لا تكمن في هذا الخطاب الموقر لصديقنا فان هريسن، حتى وإن كان بليغًا، ولا في الأرستقراطيين الشباب المرتدين أبهى الأزياء والذين يلتهمون كعكاتهم الثقيلة، ولا في الفقراء الصغار أنصاف العراة، الذين يمضغون ثعابين الماء المدخنة، كما لو كانت عيدان الفانيليا. إن الأهمية ليست حتى في هؤلاء الفتيات الهولنديات الجميلات ببشرتهن الوردية وأثدائهن البيضاء، ولا في السادة البدينين القصار الذين لم يغادروا منازلهم أبدًا، ولا في المسافرين النحيفين والشاحبين القادمين من سيلان أو جاوة، ولا في الرعاع الظامئين الذين يبتلعون الخيار المخلل في المياه المالحة. ولا تكمن، بالنسبة إلينا أهمية الموقف؛ الأهمية القوية، الأهمية الدرامية ليست في هذا كله.

تتجلى الأهمية في شخصية مشعة وحيوية تتجول بين أعضاء لجنة البستنة، والأهمية في هذا

الشخص المرصع بالأزهار عند الخصر، يرتدي قماشًا ناعمًا من الألياف الملساء ذات اللون القرمزي، هذا اللون يبرز شعره الأسود وبشرته الصفراء.

كان هذا المنتصر المتهلل، والمنتشي، بطل اليوم المنذور لشرف أن ينسي الناس خطاب فان هريسن وحضور الستاتهاودر، هو إسحاق بوكستيل، الذي يرى أمامه إلى اليمين، وعلى وسادة مخملية، الزنبقة السوداء، ابنته المزعومة؛ وإلى اليسار، داخل محفظة ضخمة، مئات الآلاف من الغيلدرات، من القطع الذهبية اللامعة والجميلة والمتألقة، والتي قرر أن يراقبها حتى لا يغفل عنها لحظة.

من وقت لآخر، يسارع بوكستيل ليفرك مرفقه محتكًا بفان هيرسن. يأخذ بوكستيل من كلّ أعضاء الهيئة قليلًا من قيمته وقدره، من أجل أن يصنع قيمته الخاصة، كما سرق من روزا زهرة الزنبق، ليجعل منها مجده وثروته.

بقي ربع ساعة أخرى، على وصول الأمير، سيتوقف الموكب عند المستراح الأخير، حيث وضعت الزنبقة تحت عرشه، وسيأخذ الأمير، الذي سيفسح المجال لمنافسته في الحب الجماهيري، برشمانًا مزخرفاً بشكل جميل كتب عليه اسم المخترع، ثم سيعلن بصوت عالٍ وجليّ أن عجيبة العجائب؛ وأن هولندا، وبواسطة بوكستيل، أجبرت الطبيعة على إنتاج زهرة سوداء، ومن الآن فصاعدًا ستسمى تلك الزهرة tulipa nigra Boxtellea

ومع ذلك، كان بوكستيل من وقت لآخر، يرفع عينيه عن الزنبقة والمحفظة للحظة ليختلس نظرات خجلة إلى الحشد، لأنه كان يخشى قبل كلّ شيء أن يرى بين الحشود الوجه الشاحب للفريزلاندية الجميلة.

نتفهم توجسه لكنها لن تكون سوى شبح، سيبلبل حفلته، لا أكثر ولا أقل تمامًا كشبح بانكو الذي أزعج مأدبة ماكبث.

ودعونا نسارع لقول ذلك، هذا البائس، الذي اخترق حائطًا لم يكن حائطه، والذي تسلق النافذة ليدخل منزل جاره، والذي بمفتاح مزيف اقتحم غرفة روزا، هذا الرجل الذي سرق أخيرًا مجد الرجل ومهر المرأة، ألا يعتبر هذا الرجل نفسه لصًا؟

لقد راقب الزنبقة بحماس شديد، وتبعها بحماس شديد من درج مجفف كورنيليوس إلى مقصلة بوتنهوف، ومن مقصلة بوتنهوف إلى سجن قلعة لويفستين، لقد رآها جيدًا وهي تولد وتنمو على نافذة روزا، وكثيرًا ما كان يسخن الهواء من حولها بأنفاسه، حيث لن يوجد مخترع لها سواه؛ ومن يدعي في هذه الساعة أنها ملكه، فهو من سيسرقها منه.

لكنه لم ير روزا.

وبذلك، لا وجود لمن سيعكر فرحة بوكستيل.

توقف الموكب في مركز دائري تُزين أشجاره الرائعة بالأكاليل والنقوش. توقف الموكب على صوت الموسيقى الصاخبة، وظهرت فتيات هارلم يرافقن زهرة الزنبق إلى المقعد المرتفع الذي يجب أن تشغله فوق المنصة، بجانب الكرسي الذهبي لصاحب السمو.

وسرعان ما هيمنت الزنبقة الفخورة، المرفوعة فوق قاعدتها، إذ شدت انتباه الحاضرين الذين صفقوا بحرارة فترددت أصداء التصفيقات العارمة في هارلم كلّها.

الفصل الثاني والثلاثون

رجاء أخير..

في هذه اللحظة الجليلة، وبينما كان التهليل والتصفيق يدوي بعيدًا، مرت عربة على الطريق المحاذي للأشجار، وشقت ببطء طريقها بسبب حرصها على تجنب الأطفال المغادرين للرصيف المحفوف بالأشجار.

كانت هذه العربة، المتربة، المتعبة، التي تئنّ فوق محاور عجلاتها، تنقل التعس ڤان بيرل، الذي بدأ من خلال الباب المفتوح، يملّي نفسه بالمشهد الذي حاولنا، بلا شك، أن نجعل قراءنا يشاهدونه أيضًا.

أذهل هذا الحشد، وهذا الضجيج، وهذا البهاء المتجلي من العظمة البشرية والطبيعية السجين وكأن وميضًا اخترق عربته.

على الرغم من إحجام رفيقه عن الإجابة، عندما سأله عن مصيره، فقد غامر باستجوابه مرة أخيرة حول كلّ هذه الاضطرابات، والتي كان عليه في البداية أن يصدق أنه كان غريبًا تمامًا عنها.

سأل الضابط المسؤول عن مرافقته:

- سيدي الملازم، من فضلك، ما هذا؟

أجاب هذا الأخير:

- كما ترى، يا سيدي، إنه حفل.

قال كورنيليوس بتلك النبرة الحزينة اللامبالية لرجل لم يحظ في هذا العالم، بأي نوع من الفرح منذ فترة طويلة:

- آه! حفل!

ثم بعد برهة من الصمت وبعد أن سارت العربة بضعة أمتار، سأل:

- هل هو حفل القديس الراعي في هارلم؟، لأني أستطيع أن أرى الأزهار.

- سيدي إنه بالفعل حفل تلعب فيه الأزهار الدور الرئيس.

هتف كورنيليوس:

- ما أجمل هذه الروائح العطرة! وما أروع هذه الألوان الجميلة!

قال الضابط للجندي المكلف بسياقة العربة، بنبرة شفقة لطيفة لا نجدها إلا لدى الجنود.

- توقف قليلًا، لينظر السيد.

أجاب ڤان بيرل بنبرة كئيبة:

- أوه! أشكرك سيدي على لطفك؛ لكن فرحة الآخرين أصبحت فرحة موجعة، بالنسبة لي على الأقل، أعفني منها إذن، أتوسل إليك.

- من دواعي سروري. دعنا إذن نسير على الأقدام. لقد أمرت أن نتوقف، ما دمت قد طلبت مني ذلك، كما تبدو محبًا للأزهار، وخاصة تلك التي يحتفل بعيدها اليوم.

- وما هي هذه الأزهار التي يحتفل بها اليوم، يا سيدي.

- أزهار الزنبق.

صاح ڤان بيرل:

- صدقا هل هي أزهار الزنبق! هل اليوم ينظم مهرجان الزنابق؟

- نعم يا سيدي؛ لكن بما أن هذا المشهد لم يعجبك، فلنواصل المسير.

وكان الضابط على وشك إعطاء الأمر لانطلاق العربة، ولكن كورنيليوس استوقفه. لقد خطر بباله شك مؤلم.

فسأل بصوت مرتجف:

- سيدي، هل اليوم موعد تقديم الجائزة؟

- أجل، جائزة الزنبقة السوداء.

تورّد وجه كورنيليوس، وسرت قشعريرة في جسده كله، وتفصد العرق من جبينه. ثم فكر برهة أنه مادام غير موجود لا هو ولا زنبقته، فإن الحفل سيلغى بلا شك، لغياب الرجل وزهرته من أجل تتويجهما.

فقال:

- وا حسرتاه! كلّ هؤلاء الناس الطيبين سيكونون تعساء مثلي، لأنهم لن يروا هذا الجلال العظيم الذي استدعوا من أجله، أو على الأقل سيرونه ناقصًا.

- ماذا تقصد يا سيدي؟

قال كورنيليوس وهو يلقي بنفسه في مؤخرة العربة:

- أقصد، شخصًا واحدًا أعرفه، قد يأت بالزنبقة السوداء.

قال الضابط:

- إذن، يا سيدي هذا الشخص الذي تعرفه وجدها فعلاً، لأن ما تشاهده الآن هارلم كلّها، هو الزهرة التي تعتقد أنها متعذرة الوجود.

صرخ ڤان بيرل وألقى نصف جسده خارج الباب:

- الزنبقة السوداء! أين هي؟ أين هي؟

- هناك فوق العرش، هل تراها؟

- أراها!

قال الضابط:

- لنذهب! يا سيدي، الآن يجب أن ننطلق.

قال ڤان بيرل:

- مهلًا! رحماك وعفوك يا سيدي، مهلًا! لا تأخذني! اسمح لي أن أرى مرة أخرى! هل ما أراه هناك هو الزنبقة السوداء، الشديدة السواد ... هل هذا ممكن؟ عجبًا! سيدي هل رأيتها؟ يجب أن تحتوي على بقع، ويجب أن تكون مَعيبة، وقد تكون مصبوغة بالأسود فقط؛ مهلًا! إذا كنت هناك، فسأعرف جيدًا ما أقوله، أنا، يا سيدي، دعني أنزل، دعني أراها عن قرب، أتوسل إليك.

- هل أنت مجنون يا سيدي؟ هل بمقدوري ذلك؟

- أرجوك.

- لكن هل نسيت أنك سجين؟

- أنا سجين، هذا صحيح، لكنني رجل شريف؛ وبشرفي يا سيدي لن أهرب. لن أحاول الهرب. فقط دعني أنظر إلى الزهرة!

- لكن أوامري يا سيدي...

وقام الضابط بحركة أخرى ليأمر الجندي بالسير في طريقه. فاستوقفه كورنيليوس مرة أخرى.

- مهلًا! تحلى بالصبر، كن كريمًا، حياتي كلّها تعتمد على شفقتك. وا حسرتاه! حياتي، يا سيدي، ربما لن تكون مديدة الآن. آه! يا سيدي أنت لا تدرك ما أعانيه، ولا تعرف يا سيدي كلّ ما يتقاتل بداخل رأسي وقلبي. لأنه بعد كلّ شيء، -واستمر كورنيليوس بيأس- إذا كانت الزنبقة لي، إذا كانت هي التي سُرقت من روزا. مهلًا! يا سيدي، هل تفهم ما معنى أن تعثر على الزنبقة السوداء، وأن تراها للحظة، وأن تدرك كم هي مثالية الكمال والجمال، وأنها في الوقت نفسه تحفة فنية وطبيعة ثم تضيع منك، وتفقدها إلى الأبد؟ مهلًا! يجب أن أذهب لرؤيتها، أقتلني بعد ذلك إذا أردت، لكنني سأراها، سأراها.

- أصمت، أيها الرجل التعس، وارجع بسرعة إلى عربتك، حرس صاحب السمو سيمر بمحاذاتك، وإذا لاحظ الأمير فوضى، وسمع ضوضاء، فسينتهي أمرك وأنا معك.

ألقى ڤان بيرل بنفسه مرة أخرى إلى داخل العربة خائفًا على رفيقه أكثر من خوفه على نفسه، لكنه لم يستطع الصمود لمدة نصف دقيقة فقرر بمجرد مرور أول عشرين فارسًا أن يعود إلى الباب، وخلال مرور صاحب السمو سيتوسل إليه.

كان غيوم، الهادئ والبسيط كالعادة، في طريقه إلى الساحة لأداء واجبه كرئيس. كان يحمل في يده لفافة برشمان، التي أصبحت في هذا اليوم الاحتفالي بمثابة صولجان حكمه.

عندما لمح الأمير هذا الرجل الذي كان يشير ويتوسل، وربما تعرف أيضًا على الضابط الذي كان يرافق الرجل، أصدر أمرًا بالتوقف. وعلى الفور، توقفت خيوله وهي ترتجف على بعد ست خطوات من ڤان بيرل، المحبوس داخل عربته.

سأل الأمير الضابط الذي قفز من العربة، عندما أصدر الأمير أمره، واقترب منه بإجلال.

- ماذا يجري هنا؟

قال الضابط:

- مولاي، إنه سجين الدولة الذي بأمر منك ذهبت لجلبه من لويفستين، وقد أحضرته إلى هارلم،

كما أراد سموك.

- ماذا يريد؟

- يطلب بإلحاح السماح له بالتوقف هنا للحظة.

صرخ ڤان بيرل وهو يضم يديه مستعطفًا:

- يا مولاي أرجو رؤية الزنبقة السوداء، وبعد أن أراها، وأعرف سيطمئن قلبي، وأموت، إذا لزم الأمر، ولكن وأنا أموت، سأبارك سموك الرحيم والوسيط بيني وبين الرب. يا صاحب السمو، اسمح بأن ينال عملي نهايته ومجده.

كان مشهدًا مثيرًا للدهشة حقًا أن نرى هذين الرجلين، كلّ منهما يجلس خلف باب عربته، محاطين بحراسهما؛ الأول صاحب نفوذ والآخر شخص بائس. أحدهما يقترب من اعتلاء عرشه، والآخر يعتقد أنه قريب من صعود المقصلة.

نظر غيوم ببرود إلى كورنيليوس واستمع لرجائه الحماسي، عندئذ خاطب الضابط:

- أليس هذا الرجل هو السجين المتمرد الذي أراد قتل السجان في لويفستين؟

تنهد كورنيليوس وطأطأ رأسه. وفي اللحظة نفسها احمرّ وجهه اللطيف والصادق خجلًا واصفرّ شحوبًا.

لم يحاول المنازعة ولا الممانعة، ولا حاول أن يدافع عن نفسه؛ لكنه قدم للأمير هذا المشهد المؤثر عن يائس صافي القلب ومدرك لمآل الأمور، مشهد قلب عظيم وعقل عظيم، سيدرك معناه كلّ عقل حكيم.

فقال الستاتهاودر:

- اسمح للسجين بأن يترجل، ودعه يرى الزنبقة السوداء، لأنها تستحق المشاهدة ولو مرة واحدة على الأقل.

قال كورنيليوس، وهو يكاد يغمى عليه فرحًا ويهوي من على درجات العربة:

- يا لفرحتي!، ويا لغبطتي! يا مولاي!

وانحبست أنفاسه وكاد يسقط، لولا ذراع الضابط التي أسندته، كان كورنيليوس المسكين يريد أن يجثو على ركبتيه واضعًا جبهته فوق التراب كي يشكر سموه.

بعد هذا الإذن، واصل الأمير رحلته بين الأشجار وسط التصفيقات الأكثر حماسة. وسرعان ما وصل إلى المنصة الشرفية، فأطلق المدفع دويّه إلى أعماق الأفق ترحيبًا بمقدم الأمير.

الفصل الثالث والثلاثون

خاتـمة..

اخترق ڤان بيرل الحشود، بمساعدة أربعة حراس كانوا يتقدمون أمامه يشقون الطريق له، عبر بشكل منحرف نحو الزنبقة السوداء، التي كانت تلتهمها نظراته وأخيرًا بدأ يقترب منها شيئًا فشيئًا.

حينما رأى الزهرة الفريدة أخيرًا خطر بباله أنها ذات يوم وتحت تأثير مزيج غير معروف من الحرارة والبرودة والظل والضوء سيكون مآلها في النهاية الاختفاء نهائيًا. لكنه الآن يراها بشغاف قلبه، وعلى بعد ست خطوات فقط، فتوقف للاستمتاع بكمالها وجمال صنعتها.

رآها وراء الفتيات الصغيرات اللواتي شكلن حرسًا شرفيًا لملكة النبل والطهارة. ومع ذلك، كلما تأكد بأم عينيه من كمال الزهرة، تمزق قلبه. وبحث في كلّ مكان حوله ليسأل سؤالًا واحدًا فقط. لكنه لم ير في كلّ أرجاء المكان غير وجوه مجهولة، مذهولة يشد انتباهها العرش الذي اعتلاه الستاتهاودار غيوم، الذي وقف جاذبًا إليه انتباهًا شاملًا، ثم حدق بهدوء نحو الحشد المنتشي، فاستقرت عينه الثاقبة بالتعاقب على ثلاثة أطراف لمثلث تشكل أمامه من ثلاثة اهتمامات وثلاث مآس مختلفة.

في إحدى الزوايا، كان بوكستيل يرتجف بفارغ الصبر محدقًا بكل انتباهه إلى الأمير، والغيلدرات، والزنبقة السوداء، وأعضاء الهيئة.

وفي الطرف الآخر، كان كورنيليوس مبهوراً، وصامتًا، لا يملك نظرة ولا حياة، ولا حبًا إلا من أجل ابنته الزنبقة السوداء.

وأخيرًا، في الطرف الثالث، كانت تقف على الدرج بين عذارى هارلم، امرأة فريزيلاندية جميلة ترتدي فستاناً من الصوف الأحمر الناعم المطرز بالفضة، وتضع على شعرها خوذتها الذهبية المهدبة بالدانتيلا؛ إنها روزا، التي كانت تستند على ذراع أحد ضباط غيوم متعبة وغائمة العينين.

وحينما لاحظ الأمير أن جميع مستمعيه مستعدون، فتح البرشمان ببطء، وبصوت هادئ وواضح، رغم ضعف الصوت قليلًا، إلا أن كلماته كانت تصل إلى أسماع الحاضرين كلّهم، وذلك بفضل الصمت الديني الشامل الذي نزل فجأة فوق الخمسين ألف متفرج صمتًا مطبقًا، وقال:

- أنتم تعلمون، لأي سبب اجتمعنا هنا، اليوم.

لقد خُصصت جائزة بقيمة مئة ألف غيلدر لمن يجد الزنبقة السوداء.

والزنبقة السوداء! – هذه الأعجوبة الهولندية، معروضة على ناظريكم، هنا- لقد اكتشفت الزنبقة السوداء، في ظل الظروف جميعها التي يشترطها برنامج هيئة البستنة في هارلم.

«إن قصة ولادتها واسم صاحبها سيدونان في كتاب المدينة الشرفي.»

«أحضروا مالك الزنبقة السوداء.»

وبينما قال هذه الكلمات، راقب الأمير تأثيرها، محدقا بوضوح في الأطراف الثلاثة للمثلث.

رأى بوكستيل يهب من مقعده.

رأى كورنيليوس يقوم بحركة لا إرادية.

رأى أخيرًا الضابط المسؤول عن حراسة روزا، وهو يقودها، أو بالأحرى يدفعها في اتجاه عرشه. ثم انطلقت صرخة مزدوجة في آن واحد قادمة عن يمين وعن يسار الأمير.

صعق بوكستيل، واضطرب كورنيليوس في ذهول وصاحا معًا:

- روزا! روزا!

قال الأمير:

- أيتها الفتاة، أهذه الزنبقة لك، أليس كذلك؟

تلعثمت روزا وقالت بصوت هامس:

- نعم يا مولاي!

تمتم كورنيليوس:

- عجبًا! كانت تكذب إذن عندما قالت إن الزهرة سُرقت منها. سحقا! لهذا تركت لويفستين! تبا! نسيتْني، وخانتْني، وأنا من اعتقد أنها أفضل صديق لي!

تأوّه بوكستيل من جانبه متحسرًا وقال:

- لقد ضعت!

وتابع الأمير كلامه:

- ستحمل هذه الزنبقة، اسم مكتشفها، وسيُدرج في سجل الأزهار تحت اسم (tulipa nigra Rosa Baerlensis)، الزنبقة السوداء روزا بيرلنسيس، نسبة إلى ڤان بيرل، وبذلك سيصبح اسم هذه الفتاة من الآن فصاعدًا: روزا ڤان بيرل.

وفي اللحظة نفسها، أخذ غيوم يد روزا ووضعها في يد الرجل الذي كان قد اندفع لتوه، شاحبًا، مذهولًا، غارقًا في فرح عارم، ووقف على أعتاب العرش، مُرحبًا بدوره بأميره، وخطيبته والرب الذي كان يشاهد راضيًا من أعماق السماء اللازوردية مشهد قلبين سعيدين.

وفي اللحظة ذاتها سقط أيضًا أمام قدم الرئيس فان هريسن رجل آخر صعقته مشاعر مختلفة جدًا. إنه بوكستيل، الذي دمره انهيار آماله، فأغمي على الفور.

حملوه وجسوا نبضه وقلبه، كان قد مات.

لم تعكر قط هذه الحادثة أجواء الاحتفال المنتظر، بحيث لم يظهر على الرئيس ولا الأمير أي انزعاج يذكر.

تراجع كورنيليوس في حالة من الرعب: فقد تعرف فورًا على اللص؛ يعقوب الكاذب، إنه جاره إسحاق بوكستيل الحقيقي، الذي لم يكن يشك في طهارة روحه، ولو لحظة واحدة ومع ذلك قام بهذا العمل الشرير.

علاوة على ذلك، كان من دواعي سعادة بوكستيل أن الربّ أرسل إليه هذه السكتة الدماغية المدمرة في الوقت المناسب ليمنعه من رؤية المزيد من الأشياء الشديدة الإيلام لكبريائه

وجشعه.

بعد ذلك، وعلى صوت الأبواق، استأنف الموكب مسيرته دون أن يكون هناك أي تغيير في مراسمه، باستثناء أن بوكستيل مات، وسار كورنيليوس وروزا، المنتصرين، جنبًا إلى جنب ويدًا بيد.

وعندما عادوا إلى دار البلدية، أشار الأمير إلى كورنيليوس كي ينظر إلى حقيبة المئة ألف غيلدر من الذهب وقال:

- لا نعرف حقًا، من سينال هذا المال، إذا كنت أنت أو روزا؛ لأنك إذا كنت قد وجدت الزنبقة السوداء، فهي رعتها وجعلتها تزهر، لذلك لن تقدمه لها كمهر، لأن هذا غير عادل. إلى جانب ذلك، يعتبر المال هدية مدينة هارلم إلى الزنبقة.

كان كورنيليوس ينتظر ليعرف ما الذي يقصده الأمير.

واستطرد الأخير:

- سأعطي روزا مئة ألف غيلدر، لأنها كسبتها قطعًا، ويمكن أن تهبها لك؛ إنها جزاء حبها وشجاعتها وصدقها. أما بالنسبة لك يا سيدي، فبفضل روزا مرة أخرى التي قدمت دليلاً على براءتك....

وعقب هذه الكلمات، سلم الأمير لكورنيليوس ورقة الكتاب المقدس الشهيرة التي كُتبت عليها الرسالة من كورنِيْ دو وايت، والتي استُخدِمَت لفافة للفصوص الثلاثة، ثم أردف الأمير:

- أما بالنسبة لك، فقد لاحظنا أنك سُجنت بسبب جريمة لم ترتكبها.

وهذا لا يعني أنك حر فحسب، ولكن أيضًا لا يمكن مصادرة ممتلكات رجل بريء. لذلك أعيدت إليك ممتلكاتك. يا سيد ڤان بيرل، أنت ربيب السيد كورنِيْ دو وايت وصديق السيد جان. ابق جديرًا بالاسم الذي عمدك به أحدهما، والصداقة التي حظيت بها من الآخر. حافظ على إرثهما ومناقبهما الجليلة، لأن هذين الأخوين دو ويت، حكم عليه حكمًا سيئًا، وعوقبا بشدة، في لحظة خطأ شعبي، بيد أنهما مواطنان عظيمان تفتخر بهما هولندا اليوم.

وعقب ما قاله، تحرك الأمير خلافًا لعادته، فقدم يديه ليقبلها الزوجان اللذان جثوا إلى جانبه.

ثم تنهد متحسرًا وأضاف:

- للأسف! أنتما في غاية السعادة، لأنكما ربما تحلمان بالمجد الحقيقي لهولندا وقبل كلّ شيء بسعادتها الحقيقية، ولا تسعيان إلا لمنحها ألوان جديدة من أزهار الزنبق.

ونظر في اتجاه فرنسا، كما لو أنه رأى غيومًا جديدة تتكاثف قادمة من اتجاهها، ثم صعد إلى عربته وغادر.

من جانبه، غادر كورنيليوس، في اليوم نفسه، إلى دوردريخت رفقة روزا، التي أبلغت والدها، بواسطة العجوز زوغ، حيث أرسلت إليه، وأخبرته بكل ما حدث.

إن الذين يعرفون شخصية غريفوس العجوز، سيفهمون أنه واجه صعوبة في التصالح مع صهره. كان يحمل في قلبه الضربات التي تلقاها بالهراوة، والتي أحصاها كدمة كدمة؛ فوجد عددها إحدى وأربعين، لكنه استسلم في نهاية المطاف، حتى لا يكون أقل كرمًا، كما قال، من صاحب

السمو الستاتهاودر.

وبعدما كان سجانًا للبشر، أصبح حارسًا لأزهار الزنبق وقد أضحى أقسى سجان أزهار عرفته هولندا حتى الآن، لذلك يمكن أن نتصور مشهد مراقبته للفراشات الخطرة، وقتله لفئران الحقل ومطاردته للنحل الجائع.

عندما علم بقصة بوكستيل شعر كورنيليوس بالغضب الشديد لأن يعقوب المزيف خدعه، فقام بهدم المرصد الذي أقامه الحاسد وراء شجرة الجميز؛ لأن أرض بوكستيل بيعت في المزاد، فأضافها كورنيليوس إلى أحواض أزهاره.

وما فتئت روزا، تزداد جمالًا، وتعلمًا؛ وفي حدود نهاية عامين من الزواج، تمكنت من القراءة والكتابة بشكل جيد لدرجة أنها تمكنت من تولي مسؤولية تعليم طفلين جميلين، رزقتهما في مايو 1674 و1675، مثل زهرتي زنبق، ولم يتسببا لها في المشاكل؛ بل أقل بكثير من الزهرة الشهيرة التي تدين لها بالحصول على طفليها. وغني عن القول إن أحدهما كان فتى، بينما الآخر كان فتاة، فقد أطلق على الأول اسم كورنيليوس، والثاني اسم روزا.

ظل ڤان بيرل مخلصًا لروزا، مثلما واصل إخلاصه لأزهار الزنبق؛ فأمضى حياته كلّها مهتمًا بسعادة زوجته وزراعة الأزهار، وهذه الثقافة اكتشف بفضلها عددًا كبيرًا من الأصناف المدرجة في السجل الهولندي.

كان أشد ما يفتخر به الورقتين اللتين وضعهما على حائط في غرفة الضيوف داخل إطارين كبيرين من الذهب، وهما الورقة الممزقة من إنجيل كورنيليوس دو وايت؛ حيث وصية عرّابه كي يحرق مراسلات الماركيز دو لافوا، وفي الورقة الثانية، وصيته لروزا بالاحتفاظ بفصوص الزنبقة السوداء، بشرط أن تتزوج بمهرها البالغ مئة ألف غيلدر شابًا وسيمًا يبلغ من العمر ما بين ستة وعشرين وثمانية وعشرين عامًا، يحبها وتحبه. هذا الشرط الذي كانت متحرجة ولا ترغب بالوفاء به، على الرغم من أن كورنيليوس لم يمت في ذلك الوقت، وبالتحديد لأنه لم يمت.

وفي النهاية من أجل محاربة الحُسّاد القادمين، والذين قد لا تشاء العناية الإلهية تخليصه منهم مرة أخرى كما فعلت مع إسحاق بوكستيل، كتب كورنيليوس فوق باب منزله بيتا شعريًا كان قد نقشه غروتيوس على جدار زنزانته، يوم هربه من سجنه:

«أحيانًا ولفرط معاناتنا، أصبحنا لا نستطيع أبدا، الإفصاح عن سعادتنا»

(تمت بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

نبذة عن الرواية

الفصل الأول

امتنان الشعب..

الفصل الثاني

الأخوان..

الفصل الثالث

تلميذ جان دو وايت..

الفصل الرابع

السفّاحون..

الفصل الخامس

عاشق الزنابق وجاره..

الفصل السادس

كراهية مزارع الزنابق..

الفصل السابع

الرجل السعيد يواجه الشقاء..

الفصل الثامن

الاقتحام..

الفصل التاسع

زنزانة عائلية..

الفصل العاشر

ابنة السجّان..

الفصل الحادي عشر
وصية كورنيليوس ڤان بيرل..
الفصل الثاني عشر
الإعدام..
الفصل الثالث عشر
ما الذي كان يدور في خلد المتفرج..
الفصل الرابع عشر
حَمَامُ دوردريخت..
الفصل الخامس عشر
الشُبَّاك..
الفصل السادس عشر
المعلم وتلميذته..
الفصل السابع عشر
الفص الأول..
الفصل الثامن عشر
عاشق روزا..
الفصل التاسع عشر
المرأة والزهرة..
الفصل العشرون
ما حدث خلال تلك الأيام الثمانية..
الفصل الحادي والعشرون
الفصّ الثاني..

الفصل الثاني والعشرون
الإزهار..
الفصل الثالث والعشرون
الحسود..
الفصل الرابع والعشرون
سارق الزنبقة السوداء..
الفصل الخامس والعشرون
الرئيس فان هيرسين..
الفصل السادس والعشرون
عضو في هيئة البستنة..
الفصل السابع والعشرون
الفصّ الثالث..
الفصل الثامن والعشرون
أغنية الأزهار..
الفصل التاسع والعشرون
أين أُخِذ ڤان بيرل..
الفصل الثلاثون
الارتياب فيما ينتظر كورنيليوس ڤان بيرل من عقاب..
لفصل الحادي والثلاثون
هارلم..
الفصل الثاني والثلاثون
رجاء أخير..

الفصل الثالث والثلاثون

خاتـمة..

الملاحظات

[←1]

(1) - السلفة أنثى السلف وهو كائن خرافي يرمز إلى الهواء في الأساطير، يعيش في السماء.

[←2]

(2) - ساحة شهيرة في مدينة هارلم، تعتبر سوقا تجاريًا مهمًا

[←3]

(3) - إلهة العقل والحكمة والمهارات والفنون والحرف اليدوية عند قدماء الرومان وهي في إلياذة هوميروس من سيمنع أخيل من قتل أغا ممنون.

[←4]

(4) - ديفيد تينيرز الثاني، المعروف باسم الأصغر، ولد في أنتويرب في15 ديسمبر1610 وتوفي في بروكسل يوم 25 أبريل 1690 رسام فلمنكي ونقاش ومصمم ورسام منمنمات، إنه فنان متعدد الاستخدامات، معروف بإنتاجه الغزير إنه مبتكر في مجموعة واسعة من الأنواع مثل التاريخ، والنوع، والمناظر الطبيعية، والبورتريه، والحياة الساكنة والفلاحين، والحانات، كما رسم المجموعات الفنية ومشاهد الكيميائيين والأطباء. (المترجم)